

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

نهائية الألف

في

فنونه الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

الجزء الثالث عشر

المتأهرة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م

جزء
معين التاريخ
لأهل التاريخ

الطبعة الأولى بمطبعة دارالكتب المصرية

جميع الحقوق محفوظة لدارالكتب المصرية

بيان

يوجد من نُسخ هذا الجزء بدار الكتب المصرية نسختان كاملتان مأخوذتان بالتصوير الشمسي؛ وقطعة غير كاملة من نسخة أخرى مأخوذة بالتصوير الشمسي أيضا، وقد نبهنا على الموضع الذي تنتهي عنده هذه القطعة في إحدى الحواشي .

أما خطوط النسخ الثلاث : فإحداها مكتوبة بخط نور الدين العاملي في سنة ٩٦٦ هـ . وثانيتهما مكتوبة بخط الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم الجبرتي الحنفى في سنة ٩٦٦ هـ أيضا . والثالثة منسوب خطها إلى المؤلف كما نص على ذلك في بعض الأجزاء الأخرى منها .

أما التحريف والتصحيح في هذه الأصول فيكاد يكون متفقا في جميعها؛ غير أننا وجدنا أن بعض هذه النسخ قد سقطت منها عبارات وجدناها مثبتة في النسخ الأخرى، فأكملنا بعضها من بعض كي يكون الجزء نسخة كاملة من جميع هذه الأصول .

ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا الموضع أن المؤلف قد نقل موضوعات هذا الجزء عن كتابين : أحدهما ”يواقيت البيان في قصص القرآن“ لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي؛ والثاني ”المبتدأ“ لأبي الحسن محمد بن عبد الله المعروف بالكسائي؛ وقد بحثنا في محفوظات دار الكتب عن آسمى هذين الكتابين فلم نجدهما، غير أننا وجدناهما باسمين آخرين؛ فكتاب الثعلبي مكتوب عليه : ”قصص الأنبياء المسمى بالعرائس“ . وكتاب الكسائي يسمى ”بالعرائس“ أيضا؛ ويسمى أيضا ”نفائس العرائس“ كما هو مكتوب على بعض نسخه المخطوطة . وفي ”كشف الظنون“ أنه يسمى ”خلق الدنيا وما فيها“ . والأول مطبوع بالمطبعة البهية بالقاهرة عام ١٣٠١ هـ . والثاني مخطوط سنة ٨٠٣ هـ .

ومما يرجح لدينا أن هذين الكتابين هما اللذان أشار إليهما المؤلف ونقل عنهما وإنما تغير اسماهما دون مسماهما، مراجعة ما فيهما على ما نقله المؤلف في هذا الجزء عنهما ملخصا، والاتفاق التام في العبارات بين المنقول والمنقول عنه .

ويلاحظ أنه قد ورد في هذا الجزء نقلاً عن الكتابين المذكورين كثير من الأسماء العبرانية التي تعود المؤرخون القدماء ذكرها في كتبهم في الكلام على بدأ الخليقة وقصص الأنبياء ، وهذه الأسماء لم تقف على نصوص صريحة تدل على الصواب في ضبطها ، والصحة في تقييد حروفها .

وقد بحثنا فيما بين أيدينا من مصادر التاريخ الكثيرة عنها للوثوق من صحتها فوجدنا تلك المصادر مختلفة كل الاختلاف فيها ، حتى لا تجد كتاباً متفقاً مع غيره في كتابتها . لهذا رأينا أن نبقى تلك الأسماء كما هي في الأصول ، إلا ما وجدناه مضبوطاً بخط موثوق بكتابته .

وعسى أن نكون قد وفقنا في هذا الجزء إلى ما قصدنا إليه في الأجزاء السابقة من تصحيح التحريف ، وتكميل النقص ، وضبط الملتبس من الألفاظ ، وغير ذلك مما سردناه في الكلام على تصحيح الأجزاء السابقة .

وقد تم طبعه في عهد من اعتز العلم بنصره ، وازدهت الآداب في عصره وقويت آمال لغة العرب فيه ، واختالت زهوا بأياديه :

حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم

”فاروق الأول“ حفظه الله

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر بالشكر والثناء تلك الجهود العظيمة التي بذلها ويذلها حضرة صاحب العزة العالم الكبير ”الدكتور منصور فهمي بك“ مدير عام دار الكتب المصرية ، واهتمامه الصادق بإخراج هذه الكتب في أقرب وقت ممكن على أحسن وجه وأكمله ، تحقيقاً لما نتوق إليه الأمة العربية جمعاء من إحياء لغتها وآدابها بنشر الكتب الثمينة في الدين واللغة والأدب والتاريخ وغيرها من أنواع العلوم .

ونسأل الله سبحانه أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه ^{مصححه} ما

أحمد الزين

القاهرة في ٧ شوال سنة ١٣٥٧ هـ (٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٨ م)

تكملة

الجزء الثالث عشر

من

كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري

صفحة

- الفن الخامس في التاريخ ويشتمل على خمسة أقسام ١
- القسم الأول من الفن الخامس في مبدأ خلق آدم وحواء عليهما السلام ودخولهما الجنة، وما كان بينهما وبين إبليس لعنه الله وهبوطهما إلى الأرض واجتماعهما بعد الفرقة ، وخبر حرثه وزرعته، وحمل حواء ووضعها ، وخبر آبنى آدم هابيل وقابيل ، ونبوته آدم عليه السلام ووفاته ، وخبر شيث وأولاده ، وقصة إدريس ونوح وهود وصالح عليهم السلام، وخبر أصحاب البئر المعطلة والقصر المشيد، وخبر أصحاب الرس ، وفيه ثمانية أبواب ٣
- الباب الأول من هذا القسم في مبدأ خلق آدم وحواء عليهما السلام وما كان من أخبارهما إلى حين وفاتهما — ذكر خلق آدم عليه السلام ١٠
- ذكر دخول الروح فيه ١١
- ذكر سجود الملائكة لآدم ١٢
- ذكر خلق حواء عليها السلام ١٣
- ذكر عرض الأمانة على آدم عليه السلام ١٤
- ذكر خبر إبليس والطاوس والحية ١٥

صفحة

ذكر خروج آدم وحواء من الجنة ١٨
ذكر سؤال إبليس لعنه الله ١٩
ذكر سؤال آدم عليه السلام ٢٠
ذكر سؤال حواء عليها السلام ٢١
ذكر توبة آدم عليه السلام ٢٣
ذكر أخذ الميثاق على ذرية آدم عليه السلام ٢٥
ذكر اجتماع آدم بحواء ٢٦
ذكر بناء آدم وزرعه وحرثه ٢٨
ذكر حمل حواء عليها السلام وولادتها ٣٠
ذكر مبعث آدم عليه السلام إلى أولاده ٣١
ذكر قتل قابيل هابيل ٣٢
ذكر وفاة آدم عليه السلام ٣٤
ذكر وفاة حواء ٣٥

الباب الثاني من القسم الأول من الفن الخامس في خبر شيث بن آدم

عليهما السلام وأولاده ٣٥
ذكر قتال شيث قابيل ٣٦

الباب الثالث من القسم الأول من الفن الخامس في أخبار إدريس النبي

عليه السلام ٣٨
-------------	-----------

الباب الرابع من القسم الأول من الفن الخامس في قصة نوح عليه السلام

وخبير الطوفان ٤٢
ذكر مبعث نوح عليه السلام ٤٣

من نهاية الأرب

(ز)

صفحة

ذكر عمل السفينة ... ٤٦

ذكر خبر دعوة نوح على ابنه حام ودعوته لابنه سام ... ٤٩

ذكر وصية نوح ووفاته ... ٥٠

ذكر خبر أولاد نوح عليه السلام من بعده ... ٥٠

الباب الخامس من القسم الأول من الفن الخامس في قصة هود عليه

السلام مع عاد وهلاكهم بالريح العقيم ... ٥١

ذكر مبعث هود عليه السلام ... ٥٢

ذكر خبر وفد عاد إلى الحرم يستسقون لهم ... ٥٦

ذكر إرسال العذاب على قوم هود ... ٥٨

ذكر خبر مرثد ولقمان ... ٦٠

ذكر خبر إرم ذات العماد وقصة شديد وشداد بنى عاد ... ٦١

الباب السادس من القسم الأول من الفن الخامس في قصة صالح عليه

السلام مع ثمود وعقرهم الناقة وهلاكهم ... ٧١

ذكر ميلاد صالح عليه السلام ... ٧٣

ذكر مبعثه عليه السلام ... ٧٥

ذكر خروج الناقة ... ٨٠

ذكر خبر عقر الناقة وهلاك ثمود ... ٨٢

الباب السابع من القسم الأول من الفن الخامس في أخبار أصحاب البئر

المعطلة والقصر المشيد وما كان من أمرهم وهلاكهم ... ٨٦

الباب الثامن من القسم الأول من الفن الخامس في خبر أصحاب الرين

وما كان من أمرهم ... ٨٨

صفحة

القسم الثاني من الفن الخامس في قصة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام	
وخبره مع نمرود وقصة لوط وخبر إسحاق ويعقوب وقصة يوسف	
وأيوب وذى الكفل وشعيب، وفيه سبعة أبواب - الباب الأول	
منه في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام وخبره مع نمرود بن كنعان	
ذكر خبر نمرود بن كنعان	٩٦
ذكر الآيات التي رآها نمرود قبل مولد إبراهيم عليه السلام	٩٩
ذكر حمل أم إبراهيم عليه السلام وطلوع نجمه	١٠٠
ذكر ميلاد إبراهيم عليه السلام	١٠٢
ذكر خروج إبراهيم عليه السلام من الغار واستدلاله	١٠٢
ذكر معجزة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام	١٠٥
ذكر مبعث إبراهيم عليه السلام	١٠٧
ذكر سؤال إبراهيم عليه السلام في إحياء الموتى	١٠٨
ذكر آية لإبراهيم عليه السلام	١٠٨
ذكر خبر تكسير إبراهيم الأصنام وإلقائه في النار	١١١
ذكر خبر صعود نمرود إلى السماء على زعمه	١١٣
ذكر خبر إرسال البعوض على نمرود وقومه	١١٤
ذكر هجرة إبراهيم عليه السلام	١١٥
ذكر خبر ميلاد إسماعيل عليه السلام ومقامه وأمه في البيت المحترم	١١٥
ذكر خبر بشارة إبراهيم بإسحاق عليهما السلام	١١٨
ذكر خبر الذبيح وفدائه	١٢٠
ذكر وفاة إبراهيم عليه السلام	١٢٢

صفحة

الباب الثاني من القسم الثاني من الفن الخامس في قصة لوط عليه السلام	
وقلب المدائن	١٢٣
ذكر خبر نزول العذاب على قوم لوط وقلب المدائن	١٢٥
الباب الثالث من القسم الثاني من الفن الخامس في خبر إسحاق ويعقوب	
عليهما السلام	١٢٨
ذكر مبعث يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام	١٢٩
الباب الرابع من القسم الثاني من الفن الخامس في قصة يوسف بن يعقوب	
ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام — ذكر خبر ميلاد يوسف عليه	
السلام	١٣٠
ذكر رؤيا يوسف عليه السلام وكيد إخوته له	١٣١
ذكر رجوع إخوة يوسف إلى يعقوب — ذكر كلام الذئب بين يدي	
يعقوب	١٣٣
ذكر خبر خروج يوسف من الحب وبيعه من مالك بن دعر	١٣٤
ذكر خبر بيع يوسف من عزيز مصر	١٣٥
ذكر خبر يوسف وزليخا	١٣٦
ذكر خبر النسوة اللاتي قطعن أيديهن	١٣٨
ذكر إلهام يوسف عليه السلام التعبير	١٤٠
ذكر خبر الحباز والساق	١٤٠
ذكر رؤيا الملك وتعبيرها وما كان من أمر يوسف وولايته	١٤١
ذكر حاجة زليخا إلى الطعام وزواج يوسف بها	١٤٤
ذكر دخول إخوة يوسف عليه السلام في المرة الأولى	١٤٥
ذكر خبر دخولهم عليه في المرة الثانية	١٤٧

صفحة

ذكر خبر دخولهم عليه في الدفعة الثالثة	١٥٢
ذكر خبر حديث الصاع	١٥٢
ذكر دعوة يوسف عليه السلام وارتحاله عن بلد الريان	١٥٥
ذكر خبر وفاة يوسف عليه السلام	١٥٦
الباب الخامس من القسم الثاني من الفن الخامس في قصة أيوب عليه السلام	
وابتلائه وعافيته	١٥٧
ذكر كشف البلاء عن أيوب عليه السلام	١٦٣
الباب السادس من القسم الثاني من الفن الخامس في خبر ذى الكفل ...	
الباب السابع من القسم الثاني من الفن الخامس في خبر شعيب النبي عليه السلام	
ذكر مبعث شعيب عليه السلام	١٦٩
ذكر خبر الظلة	١٧٢
القسم الثالث من الفن الخامس يشتمل على قصة موسى بن عمران عليه السلام	
وخبره مع فرعون وخبر يوشع بن نون وإلياس واليسع وغياث واشمويل	
وداود وطالوت وجالوت وسليمان بن داود ويونس بن متى وجرجيس	
وبلقيا وزكريا وعمران ومريم وعيسى عليهم السلام وأخبار الحوارين	
وفيه ستة أبواب — الباب الأول من القسم الثالث من الفن الخامس	
في قصة موسى بن عمران وهارون عليهما السلام وخبر فرعون وابتداء أمره	
وغرقه ، وأخبار بني إسرائيل ، وخبر قارون ، وحروب موسى عليه السلام	١٧٣
خبر فرعون وابتداء أمره ، وكيف توصل إلى الملك	١٧٣
ذكر خبر قتل الملك واستيلاء فرعون على ملكه وما كان من أمره ...	١٧٥
ذكر خبر آسية بنت مزاحم وزواج فرعون بها	١٧٧
ذكر شيء من الآيات التي رآها فرعون قبل مولد موسى عليه السلام ...	١٧٨

- ذكر خبر قتل الأطفال ١٧٨
- ذكر خبر ميلاد موسى وما كان من أمره وإلقائه في التابوت ... ١٧٩
- ذكر دخول التابوت في دار فرعون ورجوع موسى إلى أمه ... ١٨٠
- ذكر شيء من عجائب موسى عليه السلام وآياته ... ١٨٢
- ذكر خبر القبطى وخروج موسى من مصر ... ١٨٣
- ذكر خبر ورود موسى مدين وما كان بينه وبين شعيب وزواجه ابنته ... ١٨٤
- ذكر خبر خروج موسى عليه السلام من أرض مدين ومناجاته ومبعثه إلى فرعون ... ١٨٦
- ذكر خبر مسير موسى إلى مصر واجتماعه بأخيه هارون وأمه ... ١٨٩
- ذكر خبر دخول موسى عليه السلام إلى فرعون وما كان من أمره معه ... ١٩٠
- ذكر خبر العصا حين صارت ثعبانا واليد البيضاء ... ١٩١
- ذكر خبر السحرة واجتماعهم وما كان من أمرهم وإيمانهم ... ١٩٢
- ذكر خبر حزقيل مؤمن آل فرعون ... ١٩٤
- ذكر خبر بناء الصرح وما قيل فيه ... ١٩٦
- ذكر خبر الآيات التسع ... ١٩٧
- ذكر خبر مسخ قوم فرعون ... ١٩٨
- ذكر خبر قتل الماشطة ... ٢٠٦
- ذكر خبر قتل آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ... ٢٠٦
- ذكر خبر انقطاع النيل وكيف أجراه الله عز وجل لفرعون ... ٢٠٧
- ذكر خبر غرق فرعون وقومه ... ٢٠٧
- ذكر خبر ذهاب موسى عليه السلام لميقات ربه وطلبه الرؤية وخبر الصاعقة والإفاقة ... ٢١٠

صفحة	
٢١٤	ذكر خبر الألواح ونزول العشر كلمات
٢٢٣	ذكر خبر السامري واتخاذ العجل وافتتان بني إسرائيل به
٢٢٦	ذكر خبر رجوع موسى إلى قومه وما كان من أمرهم
	ذكر خبر امتناع بني إسرائيل من قبول أحكام التوراة ورفع الجبل
٢٢٩	عليهم وإيمانهم
٢٣٠	ذكر خبر الحجر الذي وضع موسى عليه السلام ثيابه عليه
	ذكر خبر طلب بني إسرائيل رؤية الله تعالى وهلاكهم بالصاعقة وكيف
٢٣٠	أحياهم الله عز وجل وبعثهم بعد موتهم
٢٣٢	ذكر خبر قارون
٢٤٠	ذكر خبر موسى والخضر عليهما السلام
٢٤٤	ذكر خبر البقرة وقتل عامل
٢٥٢	ذكر بناء بيت المقدس وخبر القربان والتابوت والسكينة وصفة النار
٢٥٥	ذكر ما أنعم الله تعالى به على بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر
٢٦٠	ذكر خبر النقباء ومسيرهم إلى أريحا وقصة عوج بن عوق وخبر التيه
	ذكر مسير موسى — عليه السلام — وبني إسرائيل لحرب الجبارين
٢٦٥	ودخولهم القرية
٢٦٧	ذكر خبر مدينة بلقاء وخبر بلعم بن باعورا وما يتصل بذلك
٢٧٤	ذكر خبر وفاة هارون عليه السلام
٢٧٥	ذكر خبر وفاة موسى بن عمران عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه توفيقى

وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم .

الفرس الخامس

فى التاريخ

ويشتمل على خمسة أقسام

قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ ؛ وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ؛ إلى غير ذلك من الآى . ١٠

والتاريخ مما يحتاج إليه الملك والوزير ، والقائد والأمير ، والكاتب والمُشير والغنى والفقر ، والبادى والحاضر ، والمقيم والمسافر .

فالملك يعتبر بما مضى من الدول ومن سلف من الأمم ، والوزير يقتدى بأفعال من تقدمه ممن حاز فضيلتى السيف والقلم ؛ وقائد الجيش يطلع منه على مكاييد الحرب ، ومواقف الطعن والضرب ؛ والمشير يتدبر الرأى فلا يُصدره إلا عن روية ١٥ ويتأمل الأمر فكأنه أعطى درجة المعية وحاز فضيلة الأُلعية^(١) ؛ والكاتب يستشهد به فى رسائله وكتبه ، ويتوسّع به إذا ضاق عليه المجال فى سرّبه^(٢) ، والغنى^(٢) يحمّد الله تعالى

(١) الأُلعية : توفد الذكاء . (٢) سرّبه ، أى طريقه فى الكتابة .

على ما أولاه من نعمه ورزقه من نواله ، وينفق مما آتاه الله إذا علم أنه لا بد من زواله وانتقاله ؛ والفقر يرغب في الزهد لعلمه أن الدنيا لا تدوم ، ولتيقنه أن سعتها بضيقها لا تقوم . ومن عدا هؤلاء يسمعه على سبيل المسامحة ، ووجه المحاضرة والمذاكره ؛ والرغبة في الأطلاع على أخبار الأمم ، ومعرفة أيام العرب وحروب العجم .

فقد تبين بهذه المقدمة تعويل الأمر عليه ، وميل المرء إليه .
وسأورد إن شاء الله في هذا الفن جُملاً من تواريخ الأمم السالفة والعصور الخالية ، وأطرزه من القصص والسير بما تصبح به صفحات الطروس حاله .

ولما رأيت غالب من أترخ في الملة الإسلامية وضع التاريخ على حكم السنين ومساقها ، لا الدول وآساقها ؛ علمت أن ذلك ربما قطع على المطالع لذة واقعة أستحلاها ، وقضية أستجلاها ؛ فأنقضت أخبار السنة ولا أستوعب تكملة فصولها ولا آنتهى إلى جملتها وتفصيلها ؛ وأنقل المؤرخ بدخول السنة التي تليها من تلك الوقائع وأخبارها ، والممالك وآثارها ، والدولة وسيرها ، والحالة وخبرها ؛ فتنتقل من الشرق إلى الغرب ، وعدل عن السلم إلى الحرب ؛ وعطف من الجنوب إلى الشمال وتحول من البكر إلى الآصال ؛ وقد تجول به خيل الاستطراد فيبعد ، وتحول بينه وبين مقصده السنون فيغور تارة وتارة يُنجد^(١) ، فلا يرجع المطالع إلى ما كان قد أهمّه إلا بعد مشقة ، وقد يعدل عنه إذا طالت المسافة وبعُدت عليه الشقة .

فآخترت أن أقيم التاريخ دُولاً ، ولا أبغى عن دولة إذا شرعت فيها حولاً ؛ حتى أسردها من أوائلها إلى أواخرها ، وأذكر جُملاً من وقائعها ومآثرها ؛ وسيأق أخبار ملوكها ، ونظم عقود سلوكها ؛ ومقر ممالكها ، وتشعب مسالكها .

(١) « يغور رنجد » ، أى ينخفض ويرتفع . والغور بفتح أوله : ما انخفض من الأرض .
والنجد : ما ارتفع منها ؛ وهما في هذا الموضع على سبيل الاستعارة .

فإذا أنقضت مدتها ، وأنقضت عدتها ، وانتقلت من العين إلى الأثر ، ومن العيان إلى الخبر ، رجعت إلى غيرها فقفوت أثرها ، وشرحت خبرها ، وبيّنت خبرها ، وذكرت أسبابها ، وسردت أنسابها ، وبدأت بأصلها ، وتفوّهت بأخبار من نبغ من أهلها ، وأستقصيتها دولة بعد دولة ، وجالت بي خيول المطالعة جولة ناهيك بها من جولة ، ورغبت مع ذلك في الاختصار دون الاقتصار^(١) ، وأوردت ما يحتاج إلى إirاده من غير تكرار ولا إكثار .

٥

فإن عرضت واقعة كانت بين ملكين كان وقتها واحدا ، وكان الدهر لأحدهما على الآخر مساعدا ، شرحتها بجلتها في أخبار الظاهر منهما ، وأحلت في أخبار المغلوب عليها ، وأكتفيت بإيرادها في أحد الموضعين ولم أعرج في الآخر إلا بالإشارة إليها .
وجريت في تقسيم هذا الفن على القاعدة التي تقدّمت فيما قبله من الفنون ليكون أبسط للنفوس وأنشط للخواطير وأقرّ للعيون ، وجعلته خمسة أقسام ، ووضعته على أحسن اتّساق وأكمل انتظام .

١٠

القسم الأول

في مبدأ خلق آدم — عليه السلام — وحواء وأخبارهما ومن كان بعد آدم إلى نهاية خبر أصحاب الرّس ، وفيه ثمانية أبواب :

١٥

الباب الأول — في مبدأ خلق آدم وحواء — عليهما السلام — وما كان من أخبارهما إلى حين وفاتهما .

الباب الثاني — في خبر شيث بن آدم — عليهما السلام — وأولاده .

الباب الثالث — في أخبار إدريس النبي عليه السلام .

(١) يستفاد من سياق هذه العبارة أن الفرق بين الاختصار والاقتصار أن المراد بالأول : الإيجاز في شرح كل حادثة مع ذكر جميع الحوادث وعدم ترك واحدة منها . وبالثاني ، الاكتفاء بذكر بعض الحوادث عن بعض .

٢٠

- الباب الرابع - في قصة نوح - عليه السلام - وخبر الطوفان .
- الباب الخامس - في قصة هود - عليه السلام - مع عاد وهلاكهم بالريح العقيم .
- الباب السادس - في قصة صالح - عليه السلام - مع ثمود وعقرهم الناقة وهلاكهم .
- الباب السابع - في أخبار أصحاب البئر المعطلة والقصر المشيد وهلاكهم .
- الباب الثامن - في خبر أصحاب الرّس ، وما كان من أمرهم .

القسم الثاني

- ١٠ . في قصة إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - وخبره مع النمرود [لعنه الله] وقصة لوط وخبر إسحاق ويعقوب ، وقصة يوسف وأيوب وذى الكفل وشعيب - عليهم السلام - وفيه سبعة أبواب :
- الباب الأول - في قصة إبراهيم الخليل - عليه السلام - وأخبار نمرود بن كنعان .
- ١٥ . الباب الثاني - في خبر لوط مع قومه وقلب المدائن .
- الباب الثالث - في خبر إسحاق ويعقوب عليهما السلام .
- الباب الرابع - في قصة يوسف بن يعقوب عليهما السلام .
- الباب الخامس - في قصة أيوب - عليه السلام - وأبتلائه وعافيته .
- الباب السادس - في خبر ذى الكفل بن أيوب عليهما السلام .
- ٢٠ . الباب السابع - في خبر شعيب - عليه السلام - وقصته مع مدين^(١) .

(١) مع مدين ، أى مع أهل مدين .

القسم الثالث

يشتمل على قصّة موسى بن عمران — عليه السلام — وخبره مع فرعون
وخبر يوشع ومن بعده وخبر حزقيال وإلياس واليسع وغيا وأشمويل وطالوت
وجالوت وداود وسليمان وسعياً وإرميأ وخبر بختنصر وخراب بيت المقدس وعمارته
وما يتصل بذلك من خبر عزير وقصّة يونس بن متى وخبر بلوقيا وخبر زكريا ويحيى
وعمران ومريم وعيسى — عليهم السلام — وخبر الحواريين وما كان من أمرهم
وخبر جرجيس، وفيه ستة أبواب :

وذيلت على هذا القسم ذيلاً يشتمل على أبواب أربعة ، ذكرت فيها ما قيل
في الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسى — عليه السلام — إلى الأرض ، وأخبار
المهدي والدجال ، ونزول عيسى — عليه السلام — ومدة إقامته في الأرض ووفاته
وما يكون بعده ، وشيئا من أخبار الحشر والمعاد .

وإنما ذكرت هذا الذيل في هذا الموضع — وإن كان غير داخل في فنّ
التاريخ — لأن النفوس لما كانت مائلة إلى الاطلاع على أخبار ماضى من الزمان
ومن سلف من الأمم ، فميلها إلى الاطلاع على ما يظهر في مستقبل الزمان أكثر
وتشوقها إليه أوفر ، فأوردت ما أذكره لهذا السبب ، ولأن كتابنا هذا ليس مبناه
على مجرّد التاريخ بل هو كتاب أدب ، لا نخرجه هذه الزيادة عن شرطه .

الباب الأوّل — في قصّة موسى بن عمران وهرون عليهما السلام
وغرق فرعون ، وأخبار بني إسرائيل وخبر قارون وحروب موسى وخبر الجبارين
وبلعم وغير ذلك .

الباب الثاني - فيما كان بعد موسى بن عمران - عليه السلام - وهو
أخبار يوشع وخبر حزقييل وإلياس واليسع وغيلأ وأشمويل وطالوت وجالوت
وداود وسليمان - عليهم السلام - ومن بعدهم .

الباب الثالث - في أخبار سَعْيَا وإِرْمِيَاءَ وخبر مُخْتَصَرٍ ونُحْرَاب بيت
المقدس وعمارته ، وما يتصل بذلك من خبر عَزْرِي .

الباب الرابع - في قصة ذى النون يونس بن متى - عليه السلام -
وخبر بلوقيا .

الباب الخامس - في خبر زكريا ويحيى وعمران ومريم آبنته وعيسى
آبن مريم عليهم السلام .

الباب السادس - في أخبار الحواريين الذين أرسلهم عيسى وما كان
من أمرهم وخبر جريجيس .

التذييل على هذا القسم ، وفيه أربعة أبواب

الباب الأول - في ذكر الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسى بن مريم
عليه السلام .

الباب الثاني - في خبر نزول عيسى إلى الأرض وقتل الدجال ونزول
يأجوج ومأجوج وإفسادهم وهلاكهم ، و وفاة عيسى عليه السلام .

الباب الثالث - في ذكر ما يكون بعد وفاة عيسى بن مريم إلى
النفخة الأولى .

الباب الرابع - في أخبار يوم القيامة والحشر والمعاد والنفخة
الثانية في الصور .

القسم الرابع

في أخبار ملوك الأصقاع ، وملوك الأمم والطوائف ، وخبر سَيْلِ
العَرَمِ ، ووقائع العرب في الجاهلية ، وفيه خمسة أبواب

الباب الأول — في أخبار رذی القرنين المذكور في كتاب الله عز وجل .

الباب الثاني — في أخبار ملوك الأصقاع ، وهم ملوك مصر والهند

والصين والترك وجبل الفتح .

الباب الثالث — في أخبار ملوك الأمم من الأعاجم ، وهم ملوك الفُرس

الأول ، وملوك الطوائف من الفُرس ، والملوك الساسانية منهم ، وملوك اليونان
والسريان والكُلدانيين والروم والصقالبة والنُوبَرْدُ^(١) والفرنجية والحلالية وطوائف

السودان . ١٠

الباب الرابع — في أخبار ملوك العرب ، وما يتصل بها من خبر

سَيْلِ العَرَمِ .

الباب الخامس — في أيام العرب ووقائعها في الجاهلية .

القسم الخامس

في أخبار الملة الإسلامية وذكر شيء من سيرة نبينا محمد — صلى الله عليه وسلم — ١٥

وأيام الخلفاء من بعده — رضى الله عنهم — والدولة الأموية والعباسية والعلوية

ودُولِ ملوك الإسلام وأخبارهم ، وما فتح الله عليهم ، وفيه اثنا عشر بابا

(١) النوبرد ، هم اللونبرد سكان لومبرديا ، وهم الإقليم المعروف في شمال إيطاليا انظر (تقويم البلدان)

س ٢٠٨ طبع أوربا . وفي بعض الكتب : النوكبرد .

- الباب الأول — في سيرة سيدنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — .
- الباب الثاني — في أخبار الخلفاء من بعده : أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ، وآبنة الحسن — رضى الله عنهم — .
- الباب الثالث — في أخبار الدولة الأموية بالشأم وغيره .
- الباب الرابع — في أخبار الدولة العباسية بالعراق ومصر .
- الباب الخامس — في أخبار الدولة الأموية بالأندلس ، وأخبار الأندلس بعد أنقراض دولتهم .
- الباب السادس — في أخبار إفريقية وبلاد المغرب ومن وليها من العمال، ومن استقل بالملك .
- ١٠ الباب السابع — في أخبار من نهض في طلب الخلافة من الطالبين في الدولتين : الأموية والعباسية فقتل دونها بعد مقتل الحسين بن عليّ — رضى الله عنهما — .
- الباب الثامن — في أخبار صاحب الزنج والقرامطة والحوارج ببلاد الموصل .
- ١٥ الباب التاسع — في أخبار من استقل بالملك والممالك في البلاد الشرقية والشمالية في خلال الدولة العباسية ، وهم ملوك خراسان وما وراء النهر والجبال وطبرستان وغزنة والغور وبلاد السند والهند ، كالدولة السامانية ، والدولة الصفارية ، والدولة الغزنوية ، والدولة الغورية ، والدولة الديلمية الختلية .
- الباب العاشر — في أخبار ملوك العراق وما والاها ، وملوك الموصل والديار الجزيرية والديار البكرية والبلاد الشامية والحلبية ، كالدولة الحمدانية ، والدولة الديلمية البويهية ، والدولة السلجقية ، والدولة الأتابكية .
- ٢٠

الباب الحادى عشر — فى أخبار الدولة الخوارزمية والدولة الجنكزخانية
وهى دولة التتار (جنكزخان وأولاده) وما تفرع منها .

الباب الثانى عشر — فى أخبار ملوك الديار المصرية الذين ملكوا فى خلال
الدولة العباسية نيابة عن خلفائها، وهم الملوك الطولونية والملوك الإخشيدية، ومن
استقل بملكها وأنترعها وأخرجها من يد نواب خلفاء الدولة العباسية، وهم الملوك
العبيديون الذين انتسبوا إلى العلويين، وما كان من أمرهم من ابتدائه إلى انتهائه
وما ملكوه من بلاد المغرب، وكيف استولوا على الديار المصرية والبلاد الشامية
والثغور الساحلية، وأنقراض دولتهم، وقيام الدولة الأيوبية وأخبار ملوكها بمصر
والشام إلى حين أنقراضها، وقيام دولة الترك ومن ملك منهم وما حازوه من الأقاليم
وما فتحوه من الممالك واستنقذوه من أيدي الأفرنج والأرمن والتتار وغيرهم
وما استقر في ملك هذه الدولة من الممالك إلى حين وضعنا لهذا التأليف فى سنة ...
وسبعمئة فى أيام مولانا السلطان السيد الأجل المالك (الملك الناصر)، ناصر الدنيا
والدين، محمد ابن السلطان الشهيد المالك، الملك المنصور سيف الدنيا والدين
(قلاوون) الصالحى، خلد الله تعالى ملكه على ممر الزمان، وسقى عهد والده صوب
الرحمة والرضوان .

هذا جملة ما أشتمل عليه هذا الفن من الأقسام والأبواب، والله تعالى المرشد
والهادى والموفق إلى الصواب، بمنه وكرمه، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

(١) موضع هذه النقط الثلاث بياض بالأصول؛ والظاهر أن هذا البياض من المؤلف نفسه؛ ولعل
سبب ذلك أن كتابه هذا لم يوضع فى سنة معينة فيحددها، بل وضع فى سنين . والمعروف أن المؤلف
توفى فى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمئة .

القسم الأول من الفن الخامس

في مبدأ خلق آدم وحواء — عليهما السلام — ودخولهما الجنة، وما كان بينهما وبين إبليس — لعنه الله — وهبوطهما إلى الأرض واجتماعهما بعد الفرقة، وخبر حرثه وزرعه، وحمل حواء ووضعها، وخبر ابني آدم هابيل وقابيل، ونبوة آدم — عليه السلام — ووفاته، وخبر شيث وأولاده، وقصة إدريس ونوح وهود وصالح — عليهم السلام — وخبر أصحاب البئر المعطلة والقصر المشيد، وخبر أصحاب الرس وفيه ثمانية أبواب

الباب الأول — من هذا القسم في مبدأ خلق آدم وحواء — عليهما السلام — وما كان من أخبارهما إلى حين وفاتهما .

ذكر خلق آدم عليه السلام

خلق الله تبارك وتعالى آدم — عليه السلام — من تراب، بدليل قوله عز وجل : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ وقوله تعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ وقوله تعالى إخباراً عن إبليس : ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ وهذا أمر بين واضح لا خلاف فيه، ولا يحتاج إلى زيادة في إقامة دليل وإيضاح .

وقيل : إنما سمي آدم لأن الله تعالى خلقه من أديم الأرض .

وعن وهب بن منبه أن راسه من الأرض الأولى، وعنقه من الثانية، وصدره من الثالثة، ويديه من الرابعة، وبطنه وظهره من الخامسة، ونفذه ومذاكيره وعجزه من السادسة، وساقيه وقدميه من السابعة .



وعن عبد الله بن عباس — رضى الله عنهما — أن الله تعالى خلقه من الأقاليم السبعة .

وقيل : إن عزرائيل أخذ من تراب الأرض كلها أبيضها وأحمرها وأسودها وعذبها وما لحها ، فهو مخلوق من ذلك التراب .

قال : ولما خلقه الله — عز وجل — وصوره على هذه الصورة الآدمية ، أمر الملائكة أن يحملوه ويضعوه على باب الجنة عند ممز الملائكة ، وكان جسدا لا روح فيه ، فكانت الملائكة يعجبون من خلقته وصورته ، لأنهم لم يكونوا رأوا مثله قط وكان إبليس يطيل النظر إليه ويقول : ما خلق الله تعالى هذا إلا لأمر . وربما دخل فيه ، فاذا خرج قال : إنه خلق ضعيف ، خلق من طين أجوف ، والأجوف لا بد له من مطعم ومشرب .

ويقال : إنه قال للملائكة : ما تعملون إذا فُضِّل هذا المخلوق عليكم ؟ فقالوا : نطيع أمر ربنا ولا نعصيه . فقال إبليس : إن فضله على لأعصيته ، وإن فضلى عليه لأهلكته .

ذكر دخول الروح فيه

قال : ولما أراد الله تعالى نفخ الروح فيه أمر بروحه فغمست في جميع الأنوار وليست كأرواح الملائكة ولا غيرها من المخلوقات .

قال الله تعالى ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ وَیَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ الآية .

قال : فأمرها الله تعالى أن تدخل في جسد آدم بالتأني دون الاستعجال فرأت مدخلا ضيقا حرجا ، فقالت : يارب ، كيف أدخل ؟ فنوديت « ادخلي كرها وأخرجي كرها » . فدخلت من يافوخه إلى عينيه ، ففتحها آدم ونظر إلى

نفسه طينا، ثم صارت إلى أذنيه، فسمع تسبيح الملائكة، وجعلت الروح تتمر في رأسه والملائكة ينظرون إليه، ثم صارت إلى الخياشيم، فعطس، فأنفتحت المجارى المسدودة، وصارت إلى اللسان، فقال آدم: « الحمد لله الذى لم يزل ولا يزول » وهى أول كلمة قالها. فناداه الرب: "يرحمك ربك يا آدم، لهذا خلقتك، وهذا لك ولذريتك". وسارت الروح فى جسده حتى بلغت الساقين، فصار آدم لحما ودما وعظما وعروقا، غير أن رجله من طين، فذهب ليقوم فلم يقدر وهو قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾.

فلما صارت إلى الساقين والقدمين استوى قائما على قدميه يوم الجمعة .
فقال: إن الروح استوت فى جسده فى خمسمائة عام عند نزول الشمس .

١٠ ذكر سجود الملائكة لآدم

قال: فلما استوى قائما أمر الله الملائكة بالسجود له، فسجدوا كلهم إلا إبليس، كما أخبر الله تعالى عنه، قال الله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا ابْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا ابْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾
الآيات .

قال: وكان السجود لآدم يوم الجمعة عند الزوال، فبقيت الملائكة فى سجودها إلى العصر .

قال وعلم الله تعالى آدم الأسماء كلها واللغات بأجمعها .

قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : علمه حتى لغة الحيتان والضفادع

٢٠ وجميع ما فى البر والبحر، ثم أمر الملائكة أن يحملوه على أكتافهم، ويطوفون به فى طرائق السموات، ففعلوا ذلك .

ثم أمر جبريل أن ينادى في صفوف الملائكة أن يجتمعوا، فاجتمعوا وأصطفوا
عشرين ألف صف، ووضع لآدم منبر الكرامة، وعليه ثياب السندس الأخضر
وله ضفيرتان مشقوتان بالمسك والعنبر بطوله، وعلى رأسه تاج من ذهب مرصع
بالدُر والجوهر، فانتصب على المنبر، وسلم على الملائكة، فأجابته برد السلام
وخطب فحمد الله، ثم ذكر علم السموات والأرضين وما فيهما، وذلك قوله
تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ
قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبِ
الْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ .

ونزل آدم عن منبره، بغىء يقطف من عنب أبيض فأكله، وهو أقول شيء
أكله من طعام الجنة، ثم أخذته سنة فنام .

ذكر خلق حواء عليها السلام

قال : ولما نام آدم خلق الله تعالى حواء من جنبه الأيسر، من ضلعه مما يلي
الشرسوف، وهو ضلع أعوج، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي
خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فكانت على طول آدم وحسنه
وجماله، إلا أنها أرق جلدا منه، وأحسن صوتا، ولها ضفائر مرصعة مشققة بالمسك
تسمع لذوائبها خشخشة، فجلست عند رأسه، فأنبته فرآها، فتمكن حبها من قلبه،
فقال : يارب، من هذه؟ قال : أمتي حواء . فقال : يارب لمن خلقتها؟ قال :
لمن أخذها بالأمانة، وأصدقها الشكر . قال : يارب، أنا أقبلها على هذا فزوجنيها .
فزوجها إياه قبل دخول الجنة على الطاعة والتقوى والعمل الصالح، ونثرت عليهما

الملائكة من نثار الجنة ، وأوحى الله إلى آدم ، أن أذكر نعمتي عليك ، فإنني خلقتك ببديع فطرتي ، وسويتك بشرا على مشيئتي ، ونفخت فيك من رُوحى ، وأسجدتُ لك ملائكتي ، وحملتُك على أكتافهم ، وجعلتُك خطيبهم ، وأطلقتُ على لسانك جميع اللغات ، وجعلت ذلك كله نفرا وشرفا لك ، وهذا إبليس قد أبلسته ولعنته حين أبى أن يسجد لك ، وقد ختمتُ كرامتي لك بأمتي حواء ، وقد بنيتُ لكما دار الحيوان من قبل أن أخلقكما بألفى عام ، على أن تدخلها بعهدى وأمانتى .

ذكر عرض الأمانة على آدم عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ .

قال : وهى أن يكافأوا على الإحسان ، ويعذبوا على الإساءة ؛ فأبوا ؛ فعرضتُ على آدم ، فقبل له : إن أطعتَ كافأتُك بالإحسان ، وخلدتُك فى الجنان ؛ وإن تركتَ عهدى أخرجتك من دارى ، وعذبتك بنارى . فقبل آدم الأمانة ، فعجب الملائكة من ذلك ؛ ثم مثل له ولحواء إبليس ، وقيل له : ﴿ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ .

ثم ناداهما الرب : إن من عهدى إليكما وأمانتى أن تدخلوا الجنة ﴿ فَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ . فقبلا هذه العهود كلها . ثم أمر الله تعالى بإدخالهما الجنة ، فحمل آدم على الفرس الميمون ، وحواء وراءه على الناقة ، والملائكة عن اليمين والشمال وأمامهما وخلفهما حتى بلغوا باب الجنة ودخلا واستقرا بجنة عدن فى وسط الجنة بعد أن طافا بالجنان ، فقدم إليهما من

٢٠ (١) أبلسه الله : أياسه من رحمته ؛ يستعمل متعديا كما هنا ولازما .

(٢) دار الحيوان ، أى دار الحياة الدائمة .

فواكه الجنة فأكلوا ، فكانا في الجنة خمسمائة عام من أعوام الدنيا في أتم السرور وأنعم الأحوال .

ذكر خبر إبليس والطاوس والحية

قال : ولما سمع إبليس أن الله تعالى أباح لآدم أن يأكل من ثمار الجنة إلا شجرة واحدة ، فرح بذلك ، وقال : لأخرجتهما من الجنة . ثم مرة مستخفيا في طرقات السموات حتى وقف على باب الجنة ، فإذا الطاوس قد خرج من الجنة وله جناحان إذا نشرهما غطى بهما سدرة المنتهى ، وله ذنب من الزمرد الأخضر على كل ريشة منه جوهرة بيضاء ، وعيناه من الياقوت الأحمر ، وهو أطيب طيور الجنة صوتا وتغريدا ، وكان يخرج ويمر في السموات يخطر في مشيته ويرجع إلى الجنة .

فلما رآه إبليس كلمه بكلام لين ، وقال : أيها الطائر العجيب الخلق الطيب الصوت ، من تكون من طيور الجنة ؟ فقال : أنا الطاوس ، فمالك أيها الشخص كأنتك مرعوب تخاف من طالب يطلبك ؟ قال إبليس : أنا من ملائكة الصفيح الأعلى من زمرة الكروبيين ، وقد أحببت أن أنظر إلى الجنة وإلى ما أعد الله فيها لأهلها فهل لك أن تدخلني الجنة وأنا أعلمك ثلاث كلمات من قالها لا يهرم ولا يسقم ولا يموت ؟ فقال له : وأهل الجنة يموتون ؟ قال : نعم ويسقمون ويهرمون إلا من

كانت عنده هذه الكلمات ، وحلف له على ذلك ، فوثق به الطاوس ولم يظن أحدا يحلف بالله كاذبا ، فقال : ما أحوجني إلى هذه الكلمات ، غير أنني أخاف أن يستخبرني (رضوان) عنك ، ولكنني أبعث إليك الحية فإنها سيّدة دواب الجنة .

(١) الصفيح : من أسماء السماء .

(٢) الملائكة الكروبيون بفتح الكاف ، هم سادة الملائكة ، وهم المقربون . قيل : إنهم سموا الكروبيين لأنهم هم المتصدون للدعاء بدفع الكرب عن الناس .

قال : وجاء الطاوس إلى الحية وهي يومئذ على صورة الجمل ، ولها زغب كالعقري^(١) ما بين أبيض وأحمر وأسود وأخضر ، ولها عُرف من اللؤلؤ ، وذوائب من الياقوت ورائحة كرائحة المسك والعنبر ، وكان مسكنها في جنة الماوى ، وكانت تسير آدم وحواء في الجنة ، وتخبّرهما بالأشجار .

- ٥ فلما أخبرها الطاوس بالخبر أسرع الحية نحو باب الجنة ، فتقدم إبليس إليها وقال لها كقوله للطاوس ، وحلف لها ، فقالت : حسبك ، ولكن كيف أدخلك ؟ فقال : إني أرى ما بين نابيك فُرجة ، وهي تسعني . ففتحت الحية فاهًا ، فوثب وقعد بين نابيها ، فصار نابها إلى آخر الدهر سماً ، وضمت الحية شفثيها ، ودخلت الجنة ولم يكلمها رضوان للقضاء السابق ، فلما توسّطت الجنة قالت : أخرج وعجل . قال : إن حاجتي من الجنة آدم وحواء ، فاني أريد أن أكلهما من فيك ، فإن لم تفعل ذلك فما أعلمك الكلمات ، بخاءت إلى حواء فقال إبليس من فيها : يا حواء ، ألسنت تعلمين أنني معك في الجنة ، وأحدثك بكل ما فيها ، وأنا صادقة في كلّ ما حدثتُكِ به ؟ قالت حواء : نعم ؛ قال إبليس : يا حواء ، أخبريني ما الذي أحلّ لكما ربكما من هذه الجنة وحرّم عليكما ؟ فأخبرته بما نهاهما عنه ؛ فقال إبليس : لماذا نهاكما عن شجرة الخلد ؟ فقالت حواء : لا أعلم بذلك ؛ قال : أنا أعلم ، إنما نهاكما لأنه أراد ألا يفعل بكما ما فعل بالعبد الذي مأواه تحت شجرة الخلد .

هذا وحواء تظن أن الخطاب لها من الحية ؛ فوثبت حواء عن سريرها لتنظر إلى العبد ، فخرج إبليس من فيها كالبرق ، فقعد تحت الشجرة ، فأقبلت

(١) العقري : الطنافس الثخان ، الواحدة عقريّة .

حواء فوقفت بالبعد منه ونادته : مَنْ أنت أيها الشخص ؟ قال : خَلَقْتُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ، خَلَقَنِي مِنْ نَارِ كَمَا تَرَيْنِي ، وَأَنَا فِي هَذِهِ الْجَنَّةِ مِنْذُ أَلْفَى عَامٍ ، خَلَقَنِي كَمَا خَلَقَ بَيْدَهُ ، وَنَفَخَ فِيَّ مِنْ رُوحِهِ ، وَأَسْجُدُ لِي مَلَائِكَتُهُ ، وَأَسْكُنُنِي جَنَّتُهُ ، وَنَهَانِي عَنْ أَكْلِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، فَكُنْتُ لَا أَكُلُ مِنْهَا ، حَتَّى نَصَحَنِي بَعْضُ الْمَلَائِكَةِ وَقَالَ لِي : كُلْ مِنْهَا ، فَإِنَّ مِنْ أَكْلِ مِنْهَا كَانَ مَخْلَدًا فِي الْجَنَّةِ أَبَدًا . فَأَكَلْتُ مِنْهَا ، فَأَنَا فِي الْجَنَّةِ إِلَى وَقْتِي هَذَا ، قَدْ أَمَنْتُ الْهَرَمَ وَالسَّقَمَ وَالْمَوْتَ وَالْخُرُوجَ مِنَ الْجَنَّةِ .

ثم قال : وَاللَّهِ (مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنْ الْخَالِدِينَ) ثم نادى : يَا حَوَاءُ اسْبِقِي وَكُلِي قَبْلَ زَوْجِكَ ، فَمِنْ سَبَقِ كَانَ لَهُ الْفَضْلُ عَلَى صَاحِبِهِ . فَأَقْبَلْتُ حَوَاءُ إِلَى آدَمَ وَهِيَ مُسْتَبْشِرَةٌ فَرِحَةً ، فَأَخْبَرْتَهُ بِخَبَرِ الْحَيَّةِ وَالشَّيْخِصْ ، وَأَنَّهُ قَدْ حَلَفَ لَهَا بِأَنَّهُ لَهَا مِنَ النَّاصِحِينَ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِمَنِ النَّاصِحِينَ ﴾ ، وَتَقَدَّمْتُ حَوَاءُ إِلَى الشَّجَرَةِ وَلَهَا أَغْصَانٌ لَا تَحْصَى ، وَعَلَى الْأَغْصَانِ سَنَابِلٌ ، كُلُّ حَبَّةٍ مِنْهَا مِثْلُ قِلَالٍ ^(١) هَجْرٍ ، وَلَهَا رَائِحَةٌ كَالْمِسْكِ ، أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ ، فَأَخَذْتُ مِنْهَا سَبْعَ سَنَابِلَ مِنْ سَبْعَةِ أَغْصَانٍ ، فَأَكَلْتُ وَادَّخَرْتُ وَاحِدَةً ، وَجَاءَتْ بِخَمْسٍ إِلَى آدَمَ .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : لم يكن لآدم في ذلك أمر ولا إرادة بل كان في سابق العلم ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ . فَتَنَاوَلَ آدَمُ السَّنَابِلَ مِنْ يَدِهَا ، وَقَدْ نَسِيَ الْعَهْدَ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِهَا ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ فَذَاقَ مِنَ الشَّجَرَةِ كَمَا ذَاقَتْ حَوَاءُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ﴾ .

(١) هجر : ناحية البحرين كلها ، وهي معروفة بالقلال التي كانت تجلب منها إلى المدينة .

- قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : والذى نفسى بيده ماساغ آدم من تلك السنابل سنبله واحدة حتى طار التاج عن رأسه، وعرى من لباسه، وانتزعت عنه خواتمه، وسقط كل ما كان على حواء من لباسها وجليها وزينتها، وناداهما كل ما طار عنهما : « يا آدم طال حزنك ، وعظمت رزيتك ، وعليك السلام إلى يوم اللقاء » . ولم يبق عليهما من لباسهما شيء ، ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلُّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ، ونظر كل منهما إلى سوء صاحبه ، وهرب إبليس فصار مستخفيا في طرائق السموات ، وصاح آدم صيحة عظيمة ، ولم يبق في الجنة شيء إلا لاهمه ، وأنقبضت عنه الأشجار ، فلما كثرت عليه الملامات مرّ هاربا على وجهه ، فالتفت عليه شجرة الطلح وأمسكته ونادته : إلى أين تهرب يا عاصي ، وأضطربت الملائكة لذلك ، والله الموفق للصواب .

ذكر خروج آدم وحواء من الجنة



- قال : وأمر الله جبريل بجاء إلى آدم وقبض على ناصيته ، وخلصه من الشجرة ؛ فلما صار به إلى باب الجنة وأخرج رجله اليمنى وبقيت اليسرى ، نودى : يا جبريل قف به على باب الجنة حتى يخرج معه أعداؤه الذين حملوه على أكل الشجرة لكي يراهم ويرى ما يفعل بهم . فوقفه هنالك ، فناداه الرب : يا آدم إنما خلقتك لتكون عبدا شكورا ، لا لتكون عبدا كفورا . قال : يا رب أسألك أن تعيدنى إلى تربتى التى خلقتنى منها لأكون ترابا كما كنت أول مرة . قال : يا آدم ، كيف أعيدك إلى تربتك وقد سبق علمى أن أملأ من ظهرك الجنة والنار .
- وأخرج آدم حواء وقد آسترت بورقة من ورق الجنة بإذن الله ؛ فلما رأت آدم صاحت وقالت : يا لها من حسرة ؟ فوقفت خارج الجنة ، ثم أتى بالطاوس وقد

طعنته الملائكة حتى قَطَعَتْ ريشه، وجبريل يحتره ويقول : اخرج من الجنة خروج الأبد، فإنك شؤم أبدا ما بقيت؛ ثم أتى بالحية وقد جذبتها الملائكة جذبا شديدا، وهي ممسوخة "مبطوحة" على بطنها لا قوائم لها، وصارت ممدودة مشوّهة، ومنعت النطق فصارت نحساء، مشقوقه اللسان، فقالت لها الملائكة : لا رحمك الله ولا رحم من يرحمك .

ثم حُجِبَتْ حواء عن آدم من هناك؛ ومرّ به جبريل في طرائق السموات، ونظرت إليه الملائكة عريانا ففزعت منه، وقالت : إلهنا، هذا آدم بديع فطرتك أقله عثرته . وآدم قد ترك يده اليمنى على رأسه، واليسرى على سوائته، ودموعه تجري على خديه، وكلّما مرّ على ملائكة الملائكة يوتخونه على نقض عهد ربّه وميثاقه، وأكثروا عليه في الملامة والتوبيخ؛ فقال لهم : يا ملائكة ربّي، ارحموني ولا توتخوني، فالذى جرى على بقضاء ربّي، حيث قال : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ﴾ الآية .

ذكر سؤال إبليس — لعنه الله تعالى —

قال : وقال إبليس : ياربّ أضللتني وأغويتني وأبستني، وكان ذلك في سابق علمك ﴿ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿ وهي النفخة الأولى، ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَا تَنبَهُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ . قال الله تعالى ﴿ اخْرِجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

قال إبليس : أنظرتني فأين يكون مسكني؟ قال : إذا هبطت إلى الأرض فمسكنك المزابل . قال : فما قراءتي؟ قال : الشعر والغناء . قال : فما مؤذني؟ قال : المزمار .

قال : فما طعامي ؟ قال : ما لم يُذكر اسمي عليه . قال : فما شرابي ؟ قال : الخمر .
 قال : فما بيتي ؟ قال : الحمامات ؛ قال : فما مجلسي ؟ قال : الأسواق . قال : فما
 شعاري ؟ قال : لعنتي . قال : فما دثاري ؟ قال : سُخْطِي . قال : فما مصايدى ؟
 قال : النساء . قال : فوعزتك لا أخرجتُ محبة النساء من قلوب بني آدم أبدا .
 قيل له : يا ملعون ، فإن ربك لا يزرع التوبة من ولد آدم حتى يتغرغر بالموت ،
 ﴿ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَلِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .

ذكر سؤال آدم — عليه السلام —

قال : فعند ذلك قال آدم : يارب هذا إبليس قد أعطيتَه النظرة ، وقد أقسم
 بعزتك أنه يُغوي أولادى ، فماذا أحترز من مكايده ؟ فنودى ، يا آدم ، إني قد
 مننتُ عليك بثلاث خصائل ، واحدة لى ، وهى أن تعبدنى لا تشرك بى شيئا ؛
 وواحدة لك ، وهى ما عملت من صغيرة أو كبيرة من الحسنات فلك بالحسنة عشر
 وإن عملت سيئة فواحدة بواحدة ، وإن استغفرتنى غفرتها لك وأنا الغفور الرحيم ؛
 وواحدة بينى وبينك ، وهى أن منك المسألة ومنى الإجابة ، فأبسط يدك وأدعنى
 فلانى قريب مجيب .

فصاح إبليس حسدا لآدم وقال : كيف أكيد ولد آدم الآن ؟ فنودى :
 يا ملعون (وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجِلِكَ
 وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) . قال
 إبليس : زدنى يا رب ؛ قال لا يولد لآدم ولد إلا يولد لك سبعة : قال : رب
 زدنى ؛ قال : زدتك أن تجرى منهم مجرى الدم فى عروقهم ، وتسكن فى صدورهم .
 فقال : يارب حسبي ؛ ثم قال علام أهبط إلى الأرض ؟ قال : علام الإياس من

قال : ثم نظر آدم إلى الحية وقال : ربّ هذه اللعينةُ هي التي أعانت عدوى عليّ ، فبماذا أتقوى عليها ؟ فقيل له : قد جعلتُ مسكنها الظلمات ، وطعامها التراب فإذا رأيتهَا فاشدّخ رأسها .

وقيل للطاوس : مسكنك أطرافُ الأنهار ، ورزقك ممّا تنبته الأرض من حبّها ، وألقِ عليك المحبة حتى لا تُقتل .

ذكر سؤال حوّاء — عليها السلام —

قال : ثم قالت حوّاء : إلهي خلقتني من ضلّع أعوج ، وجعلتني ناقصة العقل والدين والشهادة والميراث ، وضربتني بالنجاسة ، وحرمتني الجمعة والجماعات ، — وذكرتُ مشقة الحمل والولادة — فأسألك أن تعطيني مثل ما أعطيتهم .

فقيل لها : قد وهبتُ لك الحياء والأنس والرحمة ، وكتبتُ لك من ثواب الحبل والولادة ما لو رأيته لقرّت به عيناك ، فأى امرأة ماتت في ولادتها حشرتها في زمرة الشهداء . قالت : حسبي يارب .

قال : ثم أمر الله بعد ذلك أن يهبطوا إلى الأرض ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ . فهبط آدم من باب التوبة ، وحوّاء من باب الرحمة ، وإبليس من باب اللعنة ، والطاوس من باب الغضب ، والحية من باب السخط ، وكان ذلك وقت العصر .

قال السديّ : فمن هذه الأبواب تنزل التوبة والرحمة واللعنة والغضب والسخط .

قال وهب : خلق الله آدم يوم الجمعة ، وفيه دخل الجنة وأقام فيها نصف يوم مقدار خمسين سنة عام ، وأهبط بين الظهر والعصر من باب يقال له (المبرم) وهو حذاء البيت المعمور .

(١) كذا ورد هذا اللفظ في الأصول الثلاثة وكتاب الكسائي المنقول عنه هذا الكلام .

قال كعب : أهبط آدم إلى بلاد الهند على جبل من جبالها يقال له (بُوذ) وهو جبل محيط بأرض الهند ، وأهبطت حواء بجدة ، وإبليس بدستيسان^(١) ، والحية أصفهان ، والطاوس بالبحر ، ففرق الله بينهم فلم يربعضهم بعضا حينا ، ولم يكن على آدم يوم أهبط إلا ورقة من أوراق الجنة ، فذرته الرياح في بلاد الهند فصارت معدنا للطيب .

وأخذ آدم في البكاء مائة عام حتى نبت من دموعه العود والزنجبيل والصندل والكافور وأنواع الطيب ، وأمتلات الأودية بأطيب الأشجار ، وبكت حواء فنبت من دموعها القرنفل والأفأويه ، وكانت الريح تحمل كلامه إليها وكلامها إليه .
ثم أنبت الله — عز وجل — لآدم الشعر واللحية ، وكان قبل ذلك أمرد وجسده كالفضة ، فتألم لذلك ألما شديدا .

قال وهب : أقول من علم بهبوط آدم من حيوان الأرض النسر ، وكان قد ألف الحوت ، فجاء إليه وقال له : إني رأيت اليوم خلقا عظيما ينقبض وينبسط ، ويقوم ويقعد ، ويحى ويذهب . فقال الحوت : إن كان ما تقوله حقا فقد حان ألا يكون لي معه مقر في البحر ولا لك في البر ، وهذا الوداع بيني وبينك . فجاء النسر إلى آدم وألفه ، وجاءه الوحش والطير وألفوه وبكوا لبكائه دهرا طويلا ، فلمّا أضجرهم ذلك نفروا عنه ولم يبق عنده إلا النسر وحده وهو لا يفتر عن البكاء .

قال وهب : بكى آدم حتى بكت الملائكة لبكائه وقالوا : « إلهنا أقله عثرته » .

قال : وبقي من دموعه في الأرض — بعد أن كَفَّ عن البكاء — ما شربه
الوحش والطير والهوام مائة عام ، وكان لدموعه رائحة كالمسك ، ولذلك كثر الطيب
في الهند .

﴿١٠﴾

وقال كعب : بكى آدم ثلاثمائة عام لا يرفع رأسه إلى السماء وهو يقول : ” إلهي
بأي وجه أنظر إلى السماء “ . فألهم الله سائر الحيوانات أن تأتي لآدم وتعزيه
في مصيبتة ، فعزاه جميعها ونهته عن البكاء ، وأمرته بالتسبيح والتقديس .

ذكر توبة آدم عليه السلام

قال : فعند ذلك أمر الله تعالى جبريل أن يهبط على آدم ، وقال له : « إن آدم
بديع فطرتي قد أبكى أهل سمواتي وأرضي ، ولا يذكرك غيري ، ولم يخف سواي ، وهو
أول من حمدني ، وأول من دعاني بأسمائي الحسنى ، وأنا الرحمن الذي سبقت رحمتي
غضبي ، وهذه الكلمات قد خصصت بها آدم لتكون له توبة ، وتخرجه من الظلمات
إلى النور » . فهبط عليه جبريل بالكلمات ولها نور عظيم ، فقال : « السلام عليك
يا طويل البكاء والحزن » ؛ فلم يسمعه آدم لغلجان صدره ؛ فناداه بصوت رفيع :
السلام عليك يا آدم . وأمر جناحه على صدره ووجهه حتى هدا من بكائه ، وسمع
الصوت فقال : أبنداء السخط تنادي ، أم بنداء الإحسان والغفران ؟ قال : بل
بنداء الرحمة والغفران ، يا آدم : لقد أبكى ملائكة السموات والأرض ، فدونك
هذه الكلمات ، فإنها كلمات الرحمة والتوبة .

قال كعب : كانت الكلمات ما قالها يونس في ظلمات ثلاث : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا
أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص — رضى الله عنهما — كانت : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا
أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

٥

١٠

١٥

٢٠

وقال ابن عباس — رضى الله عنهما — : كانت « لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فُتُب عليّ يا خير التوابين » .

قال الله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ .
قال : فلما قالها آدم أنتشر صوته في الافاق ، فقالت الأرض والشجر والجبال :
« أقر الله عينك يا آدم ، وهناك الله بتوبتك » . وأمره الله أن يبعث بالكلمات
إلى حواء ، فحملتها الريح إليها ، فقالتها ، فتاب الله عليها .

قال : ولما فرغ آدم من الدعاء والسجود قال له جبريل : ارفع رأسك . فرفعه
وإذا قد رُفِعَ له حجاب النور ، وفتحت له السموات ، ونودى بالتوبة والرضوان
وقيل له : يا آدم ، إن الله قد قبل توبتك . فذهب ليقوم فلم يقدر لأنه كان
قد رَسَبَ في الأرض كعروق الشجر ، فأقتلعه جبريل ، فصاح صيحة شديدة للألم
الذى أصابه ، وقال : « ماذا تفعل الخطيئة » ؟

ثم ضرب جبريل بجناحه الأرض فأنفجرت عين ماءٍ معينٍ برائحة كالمسك
فأغتسل آدم منها ، ثم كساه الله حلّتين من سندس الجنة ، وبعث الله تعالى ميكائيل
إلى حواء ، فبشرها بالتوبة ، وكساها كذلك ، وسأل آدم جبريل عنها ، فأخبره أن الله
قد قبل توبتها ، وأنه يجمع بينهما في أشرف الأعياد وأكرم البقاع .

قال : وأمر الله عز وجل الملائكة والحيوانات أن يقربوا من آدم ليهنئوه
فأتوه وهنأوه كما كانوا عزّوه .

ثم أمر الله تعالى جبريل أن يضع يده على رأس آدم ليقصّر من طوله ، وكان
إذا قام وصل رأسه إلى السماء ، فيسمع تسبيح الملائكة ، فلما قصر آغتم لفقد
ذلك ، فقال له جبريل : لا يغمك ذلك فإن الله يفعل ما يريد .

وامره الله ببناء بيت يحاذى البيت المعمور ليطوف به هو وأولاده من بعده كما رأى الملائكة تفعل حول البيت المعمور؛ فبناه .

وقد ذكرنا صفة بنائه في الباب الثاني من القسم الخامس من الفن الأول من هذا الكتاب في خصائص البلاد ، وهو في السفر الأول ، فلا حاجة إلى إعادته هاهنا . فلنذكر غير ذلك .

قال : وسار آدم من موضعه إلى موضع البيت ؛ والله الهادي .

ذكر أخذ الميثاق على ذرية آدم — عليه السلام —

قال : وأوحى الله تعالى إلى آدم : أتى أريد أن آخذ على وديعتي التي في ظهرك الميثاق ، فأحاطت الملائكة بآدم في أحسن صورهم ، فوقعت الرعدة على آدم من الخوف ، فضمه جبريل إلى صدره ، وأضطرب الوادي وأرتج ، فقال جبريل :

اسكن فإنك أول شاهد على الميثاق الذي يأخذه الله على ذرية آدم . فسكن ، ومسح الله تعالى على ظهر آدم كما شاء ، وقال : « انظر يا آدم إلى من يخرج من ظهرك » فأول من بادر وكان أسرع خروجاً نبينا محمد — صلى الله عليه وسلم — فأجاب بالتلبية ونادى إلى ذات اليمين وهو يقول : أنا أول من يشهد لك بالتوحيد ، ويقتر لك بالعبودية ، وأشهد أتى عبدك ورسولك . فهو — صلى الله عليه وسلم — أول الأنبياء في الخلق ، وآخرهم في البعث ، وفي ذلك من الحكمة الإلهية والقدرة الربانية ما لم يخف على ذي لب وفهم ، وليس هذا موضع ذكر ذلك . ثم أجابت الطبقة الثانية من النبيين والمرسلين نبيا بعد نبي في نورهم وبهائمهم ، ثم خرجت زمرة من المؤمنين بيض الوجوه ، معلنين بالتوحيد ، فوقفوا دون النبيين .

ثم مسح الله مسحة أخرى فخرج (قابيل) بن آدم مبادرا وقد تبعه أهل الشمال فوقفوا ذات الشمال كلهم سود الوجوه . ثم قيل لآدم : « انظر إلى ولدك هؤلاء

لتعرفهم بأسمائهم وأزمانهم» فنظر إلى أهل اليمين فضحك منهم، وبارك عليهم؛ ونظر إلى أهل الشمال فلعنهم وصرف وجهه عنهم؛ ثم استنطقهم الله تعالى فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ وأقررنا.

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : أما أهل اليمين فأجابوا بالسرعة، وأما أهل الشمال فأجابوا بالتأفل . قال الله تعالى « يا ملائكتى أشهدوا على ذرية آدم بأنهم أقروا أنى ربهم لا يحدوني شيئا، وأن آدم قد بارك على أهل يمينه، ولعن أهل شماله، فأهل اليمين فى جنتى برحتى، وأهل الشمال فى النار بما جحدوا من حقى » . ثم ردهم الله إلى ظهره كما أخرجهم بقدرته .

قال وهب : إذا كان يوم القيامة وحُشر الخلق لفصل القضاء قيل : يا آدم، « ابعث بعث الجنة إلى الجنة، وبعث النار إليها » . فيعرفهم بصورهم وأسمائهم ؛ فيقول : « نعم يارب » ؛ ويراهم كما رآهم فى الذرية، ويُقبل عليهم بوجهه ويقول: أَنَسِيتُمْ عَهْدَ رَبِّكُمْ وشهادتكم له بأنه الله الواحد الأحد؟ فيقولون ما أخبرنا الله تعالى به عنهم : ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعنون قابيل بن آدم، لأنه أول من عصى ربه ؛ ثم يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَرْنَا اللَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ يعنون إبليس وقابيل ؛ فيقبض آدم بشماله من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار، وواحدا يمينه إلى الجنة؛ ثم يقول : يارب هل وفيت ؟ فيقال له : نعم ادخل الجنة برحتى .

ذكر اجتماع آدم بحواء

قال : وأقبل ملك إلى حواء وهى جالسة بجدة على ساحل البحر، فقال لها : «خذى لباسك وأنطلقى إلى الحرم» ؛ ثم رمى لها بقميص ونحو من الجنة، وتوارى

عنها حتى لبست القميص وتخرت بالبخار ، ومضت إلى مكة فدخلت الحرم من شرقه يوم الجمعة من شهر المحرم ، فأمرها الملك أن تقعد على جبل المروة ، وإنما سميت المروة لقعود المرأة عليها .

قال وهب : دخلت حواء الحرم قبل آدم بسبعة أيام ، ودخل آدم من غربي مكة وحواء من شرقيها ، فصار آدم إلى جبل الصفا ، فناداه : "مرحبا بك يا صفي" الله " ، فسمى الصفا لذلك ، وناداه الرب : يا آدم ، فقال : « لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » . فصار ذلك سنة في الحج والعمرة .

ثم أوحى الله إليه : « اليوم حرمت مكة وما حولها » . فهي حرام إلى يوم القيامة . فقال آدم : يارب ، إنك وعدتني أن تجمع بيني وبين حواء في هذا المقام . فنودي : إنها أمامك على المروة ، وأنت على الصفا ، فأ نظر إليها ولا تمسها حتى تقضى المناسك . فهبط آدم إليها ، والتقيا ، وفرح كل منهما بصاحبه ، وسعى هو من الصفا ، وسعت هي من المروة ، فكانا يجتمعان بالنهار ، فإذا أمسيا رجع إلى الصفا ، ورجعت إلى المروة ، فكانا كذلك حتى دخل ذو القعدة ، فأعاد آدم التلبية وعقد الإزار ، ولم يزل يلبي حتى دخل ذو الحجة ، فهبط جبريل وعلمه المناسك وكساه ثوبا أبيض لإحرامه ، وطاف به ، وعرفه المناسك ، وأمره أن يطوف بالبيت سبعا ، فلمّا فعل ذلك قال له جبريل : « حسبك يا آدم قد أحملت » ، فأنطلق آدم إلى حواء فاجتمع بها في ليلة الجمعة فحملت من ساعتها .

(١٢)

قال كعب : ما حملت حواء حتى رأت الحيض ففزعت وأخبرت آدم بذلك فمنعها من الصلاة أيام حيضها حتى ينقطع الدم ، ثم جاءها ملك فوقفها على زمزم

وقال لادم : اُرْكُضْ بِرِجْلِكَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ . فَرَكَضَهَا ، فَانْفَجَرَتْ الْأَرْضُ بِإِذْنِ اللَّهِ عَيْنَ مَاءٍ مَعِينٍ ؛ فَكَبَّرَ آدَمُ وَحَوَّاءُ ، وَهَمَّتْ أَنْ تَشْرَبَ فَمَنْعَهَا وَقَالَ : « حَتَّى يَأْذَنَ لِي رَبِّي » . فَأَغْتَسَلَتْ حَوَّاءُ ، وَكَانَ فِي ذَوَائِبِهَا بَقِيَّةٌ مِنْ مِسْكِ الْجَنَّةِ ، فَفَاحَتْ الدُّنْيَا .

ذكر إبناء آدم وزرعِهِ وحرثِهِ

قال : ثُمَّ أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى آدَمَ : « أَنْكَ إِنْ لَمْ تَعْمُرْ هَذِهِ الدُّنْيَا لَمْ يَعْمُرْهَا أَحَدٌ مِنْ أَوْلَادِكَ ، فَأَعْمُرْهَا » . فَبَنَى لَهُ مَسْكَنَا يَأْوِي إِلَيْهِ هُوَ وَحَوَّاءُ ؛ ثُمَّ أَخَذَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْحَرْثِ وَالزَّرْعِ وَحَفَرَ الْآبَارَ ؛ وَجَاءَهُ جَبْرِيلُ بِالْحَبَّةِ وَهِيَ عَلَى قَدَرِ بَيْضِ النَّعَامِ ، بَيْضَاءٌ فِي لَوْنِ الثَّلْجِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ ؛ وَجَاءَهُ بِثَوْرَيْنِ مِنْ ثِيَرَانِ الْفَرْدَوْسِ وَجَاءَهُ بِالْحَدِيدِ ؛ فَلَمَّا نَظَرَ آدَمُ إِلَى الْحَبِّ صَاحَ صَاحَةً عَظِيمَةً ، وَقَالَ : مَا لِي وَلِهَذَا الْحَبِّ الَّذِي أَخْرَجَنِي مِنَ الْجَنَّةِ .

قال : « عَمَّا رَزَقَكَ فِي الدُّنْيَا ، لِأَنَّكَ آخَرْتَهُ فِي الْجَنَّةِ ، فَهُوَ غَدَاءُ لَكَ وَلَذَرِيَّتِكَ » .

ثُمَّ قَالَ لَهُ جَبْرِيلُ : يَا آدَمَ ، قُمْ فَكُنْ حَرَّاثًا زَرَّاعًا ، وَأَتَاهُ بِالنَّارِ وَقَدْ غَمَسَهَا فِي سَبْعِينَ مَاءً حَتَّى أَعْتَدَلَتْ وَكَمَنْتُ فِي الْحَدِيدِ وَالْحَجَرِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يوقِدَ النَّارَ وَيُلِينِ الْحَدِيدَ ، وَيَتَّخِذَ مِنْهُ مِطْرَقَةً وَسَنْدَانًا ، فَفَعَلَ ؛ ثُمَّ اتَّخَذَ مُدِيَّةً يَذْبَحُ بِهَا ، وَفَاسًا يَحْفَرُ بِهَا وَيَكْسِرُ ، وَمَحْرَاثًا يَحْرُثُ بِهِ الْأَرْضَ ، وَنِيرًا ؛ كُلُّ ذَلِكَ وَجَبْرِيلُ يَعْلَمُهُ .

قال وهب : أَوَّلُ مَا اتَّخَذَ آدَمُ مِنَ الْحَدِيدِ سَنْدَانًا وَمِطْرَقَةً وَكَلْبَتَانِ ؛ ثُمَّ اتَّخَذَ بَعْدَ ذَلِكَ آلَةَ النِّجَارَةِ ، وَأَتَاهُ جَبْرِيلُ بِكَبْشٍ مِنَ الْجَنَّةِ ، فَنَحَرَهُ آدَمُ ، وَأَكَلَ كُلُّهُ وَحَوَّاءُ مِنْ لَحْمِهِ ، وَاتَّخَذَا مَقْرَاضًا بِخِزَا بِهِ الصُّوفُ مِنَ الْكَبْشِ ، وَغَزَلَاهُ ، وَاتَّخَذَا مِنْهُ

جبتين بغير كمين ، وكساءين ، فأكتسى كل واحد منهما جبّة وكساء ، فلما مسّت جلدهما خشونة الصوف بكيا شوقا إلى السندس والإستبرق ؛ فقليل لهما : « هذا لباس أهل الطاعة في الدنيا » . وجيء بالأشجار التي ذكرناها في الفن الرابع من هذا الكتاب ، وهو فنّ النباتات ؛ وقد قدّمنا ذكرها فيما سلف منه .

وعن كعب أن الذي جاء بالحَبّ ميكائيل ، لأنّه الموكل بالحَبّ والقطر والنبات . قال : فقام آدم فعقد النير على عنق الثورين ؛ ثم حث وبذر ، وكان يقف على الزرع ويقول : متى يدرك ؟ . فيسمع هاتفا يقول : ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ؛ وكان الزرع في طول النخل ، والسنبلة في طول مائة ذراع ، بيضاء كالفضّة .

قال كعب : فلما استحقّ الزرع كان آدم يحصد ، وحواء تجمع ؛ ثم علم آدم الدراسة والتذرية والطحن والعجن والخبز ؛ ثم أكلا وشربا فأصابتهما النفخة والقرقرة في بطونهما ؛ فتجشأ آدم جشأ متغيّرا ، وتغيّر عليه بدنه وثقل ؛ فلما ثقلت عليهما بطونهما أمرهما الملك أن يتبرّزا إلى الصحراء لقضاء الحاجة ؛ فلما رأيا ذلك من أنفسهما بكيا بكاء شديدا ، وقالوا : « هذا الذي أورثنا ذنبنا » .

ثم أمرهما الملك أن يمسحا بالمدر ، ثم يغتسلا بالماء ؛ ثم علمهما الوضوء فتوضأ وضوء الإسلام ؛ ثم أمرهما بالصلاة ، فكان أول صلاة صلاها آدم الظهر . وكان آدم ربّما اشتغل عن صلاته ولا يعرف الأوقات ، فأعطاه الله ديكاً ودجاجة ، فكان الديك أبيض^(١) أفرق أصفر الرجلين ، كالثور العظيم ، وكان يضرب بجناحه عند أوقات الصلاة ويقول : سبحان من يسبحه كل شيء سبحان الله وبحمده ، يا آدم : الصلاة يرحمك الله .

(١) الديك الأفرق : ذو العرفين ، أى إن عرفه مفروق .

قال : وأخذ آدم في الغرس حتى غرس كل ما على وجه الأرض من أنواع الثمار والأشجار، وأخذت الأرض زهرتها؛ وكان آدم يأكل من بقول الأرض ونباتها.

قال وهب : أول بقلة زرعها آدم الهندباء ، وأول ما زرع من الرياحين الحناء ، ثم الآس .

ذكر حمل حواء — عليها السلام — وولادتها .

قال : وواقع آدم حواء في ليلة الجمعة ، فحملت بذكر وأنثى ، وأسقطتهما في الشهر الثامن ، فكان أول سقط في الدنيا ؛ ثم حملت ثانيا كذلك ، فأصابهما مثل الأول ؛ ثم حملت ثالثة . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

قال : فجاء إبليس إلى حواء وقال : أتحبين أن يعيش في بطنك ؟ قالت : نعم . قال : سميه (عبد الحارث) .

وقال ابن حبيب عن ابن عباس : أنها لما وضعت جاء إبليس وقال : ألا تسميانه بأسمى ؟ قالت له حواء : ما أسمك ؟ فذهب ولم يتسم ، ثم عاد إليهما فقال : كيف تريدان أن تسمياه ؟ قالا : نسميه (عبد الله) . قال : أفظنأن أن الله يترك عبده عندكما إن سميتاه (عبد الله) ، لا والله لا يدعه عندكما حتى يقبضه ، ولكن سمياه (عبد شمس) فإنه يبقى ما بقيت الشمس . فأطاعاه وسمياه (عبد شمس) ؛ فمات صغيرا . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ .

قال وهب : أوحى الله إليهما « أنكما أطعما إبليس في هذه التسمية ، فهلا سميتاه عبد الله أو عبد الرحمن أو عبد الرحيم » فجزعا لذلك جزعا شديدا ، وقالا : « لا حاجة لنا في هذا المولد » . فأماته الله .

ثم حملت بذكر وأنثى، فلما وضعتهما سمّتهما (عبد الله) (وأمة الله)؛ ثم وضعت
بطنا آخر فسمّتهما (عبد الرحيم) (وأمة الرحيم)؛ ولم تزل كذلك حتى وضعت مائة
بطن؛ ثم وضعت بعد ذلك هابيل وأخته في بطن، ثم قابيل وأخته في بطن، حتى
وضعت عشرين ومائة بطن ذكر وأنثى، فتناسلوا وكثروا .

ذكر مبعث آدم — عليه السلام — إلى أولاده

قال : ثم بعث الله عزّ وجلّ آدم إلى ذريّته رسولا ، وذلك في أوّل ليلة من
شهر رمضان ، وخصّه بالوحى ، وأنزل عليه إحدى وعشرين صحيفة فيها سور مقطّعة
الحروف ، لا يتّصل حرف بحرف ، وهو أوّل كتاب أنزل ، وهو بألف لغة فيها
الفرائض والسنن والشرائع والوعد والوعيد وأخبار الدنيا ، وبين له فيها أهل كل
زمان وصورهم وسيرهم ، وما يحدث في الأرض حتى الماء كل والمشرب . ١٠

ثم أمره الله تعالى أن يكتبها بالقلم ، فأخذ جلود الضأن فدبغها حتى صارت
رقا ، وكتب فيها الحروف التسعة والعشرين ، وهى فى التوراة والإنجيل والزبور
والقرآن، أولها (١) : معناها ، أنا الله الواحد الأحد الذى لم يزل . (ب) : بديع
السموات والأرض . (ت) : توّحد فى ملكه ، وتواضع كلّ شيء لعظمته . (ث) :
ثابت لم يزل ولا يزال . (ج) : جميل الفعال ، جواد ، جليل المقال . (ح) : حليم على
من عصاه ، حميد عند من أنشاه . (خ) : خير ببواطن الأشياء وظواهرها ، خالق كلّ
شئ . (د) : ديان يوم الدين ، دان من خلقه . (ذ) : ذو الفضل العظيم ، والعرش
المجيد ، ذو الطّول القديم . (ر) : ربّ الخلائق رزاق رءوف رحمن رحيم . (ز) :
زرّاع زرع من غير بذّر ، زائد لمن شكر ، زين كلّ شئ برحمته . (س) : سريع
الحساب ، سميع الدعاء ، سريع الإجابة . (ش) : شديد العقاب والبطش ، شاهد ٢٠

- كَلَّ نَجْوَى . (ص): صمد صادق الوعد . (ض): ضياء السموات والأرض ، ضمن
 لأوليائه المغفرة . (ط): طاب من أخلص له من المطيعين ، طوبى لمن أطاعه .
 (ظ): ظهر أمره ، وظفر أهل محبته بالجنة . (ع): عليم عالم علام بالربوبية .
 (غ): غياث المستغيثين ، غنى لا يفتقر . (ف): (فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) ، فرد ليس له
 شريك . (ق): قيوم ، (قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) ، قدير قاهر . (ك) كريم
 كان قبل كل شيء ، كائن بعد كل شيء ، كافى كل بلية . (ل): (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
 وَمَا فِي الْأَرْضِ) ، وله الخلق والأمر . (م): مالك يوم الدين ، متكبر محسن محمود
 متين معبود منعم من قبل ومن بعد . (ن): نور السموات والأرض ناره مُعَدَّة
 لأهل عذابه . (و): ولي المؤمنين ، ويل لمن عصاه ، (وَيْلٌ لِلظَّافِقِينَ) . (ه):
 هادٍ هدى من الضلالة من قدر له ذلك برحمته ومشئته ، (لا) : لا إله إلا الله
 الواحد القهار ، الذى لا إله إلا هو العزيز الحكيم . (ي): يعلم ما فى السموات
 والأرض وما بينهما وما تحت الثرى وما تُخْفَى الصدور .

قال : فلما نزلت هذه الحروف علمها آدم لولده ، فتوارثها ولده ، إلى أن بعث
 الله تعالى إدريس ، وأنزل عليه خمسين صحيفة ، وأنزل عليه هذه الحروف .

ذكر قتل قابيل هابيل

١٥

(١٤)

- قال : ودعا آدم أبنيه (هابيل) (وقابيل) — وكان يحبهما من بين أولاده —
 فذكر لهما ما كان من أمره ودخوله الجنة ، وسبب خروجه ، وغير ذلك ، ثم أمرهما
 أن يقتربا قربانا ، وكان هابيل صاحب غنم ، وقابيل صاحب زرع ، فأخذ هابيل
 من غنمه كبشا سمينا لم يكن فى غنمه خير منه ، فجعله قربانا ، وأخذ قابيل من زرعه
 أدناه فقتر به ، فتزلت من السماء نار بيضاء لا حرّ ولا دخان فيها ، فأحرقَتْ قُرْبَانَ

٢٠

هابيل ، ولم تحرق قربان قابيل ، فداخله الحسد من ذلك ، وقال : إن أولاد هذا تفتخر على أولادى من بعدى ، فوالله لأقتلنه . قال الله تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال : ثم رجعا من منى — وهو موضع القربان — يريدان أباهما وهابيل أمام قابيل ، فعمد قابيل إلى حجر فضرب به رأس أخيه (هابيل) فقتله ، ثم مرّ على وجهه هاربا . قال الله تعالى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ؛ وإذا هو بغرايين قد آقتلا ، فقتل أحدهما الآخر ، وجعل يبحث في الأرض برجليه حتى حفر حفرة ودفن فيها المقتول ؛ فقال قابيل في نفسه ما أخبر الله تعالى به عنه : ﴿ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوَاءَ أَعْمَى فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ .

فلما أبطأ على آدم خرج في طلبهما ، فأصاب هابيل مقتولا ، فساء ذلك وأغمّ غمّا شديدا ، وكانت الأرض لما شربت دمه تغيرت الأشجار عن نضارتها ، فيقال : إن آدم قال :

تغيرت البلاد ومن عليها * فوجه الأرض مغبرّ قبيح
تغير كل ذى لون وطعم * وقلّ بشاشة الوجه المليح
قتل قابيل هابيل أخاه * فوا أسفنى على الوجه الصبيح^(١)

(١) تسكين اللام في قوله : « قتل » للضرورة ؛ وقد ورد هذا البيت في كثير من الكتب بروايات أخرى وزادات على هذه الأبيات .

ثم حمل آدم هابيل على عاتقه وهو باك ، ثم دفنه ، وبكى عليه هو وحواء أربعين يوما ، فأوحى الله تعالى إليه أن كُفَّ عن بكائك ، فإننى سأهب لك غلاما زكيا على صورة هابيل يكون أبا النبيين والمرسلين . فسرى عنه ، وجامع حواء فحملت شيث واسمه (هبة الله) فلما وضعته كان على صفة هابيل وصورته ؛ فلما ترعرع وبلغ بعث الله تعالى له قضييا من سدرة المنتهى فى صفاء الجوهر ، ورزق الله شيئا الأولاد فى حياة آدم ؛ والله أعلم .

ذكر وفاة آدم — عليه السلام —

قال : وكان آدم لما أخرج الله تعالى الذرية من ظهره رأى داود — عليه السلام — وحسن صورته ، فسأل عنه وعمّا رزقه الله تعالى من العمر ؛ ف قيل له : إنه نبي الله داود ، وإن عمره الذى كتب الله له أربعون سنة . فقال : يارب زد فى عمره . قال : ذلك الذى كتبت له . فقال : يارب فإننى قد وهبته من عمرى ستين سنة . فلما آنقضى من عمره تسعمائة سنة وأربعون سنة أتاه ملك الموت ، فقال له آدم : قد عجّلت علىّ ، لأن ربي كتب لى ألف سنة . قال : ألم تهب منها لولدك داود ستين سنة ؟ قال : لا . قال : فخذ آدم وجمدت ذريته من بعده ، ونسى فذسيت .

وقيل فى عمر داود : ستون سنة ، وإن آدم وهبه أربعين سنة ؛ والله أعلم .

فلما استكمل عدته أمر الله بقبض روحه ، فعهد إلى ابنه شيث وأوصاه ، وسلم إليه التابوت ، وكان فيه نمط من الجنة أبيض أهداه الله تعالى لآدم ، فيه صور الأنبياء والفراعنة من ذريته ؛ فنشر آدم النمط وأراه لابنه شيث ، فنظر إليه ، ثم أمر بطيه ووضعها فى التابوت ؛ وعمد آدم إلى طاقات من شعر لحيته فوضعها فى التابوت وقال له : يا بني ، إنك لا تزال مظفرا على أعدائك ما دامت هذه الشعرات سودا

فإذا أبيضّت فاعلم أنّك ميت ، فأوص إلى خير أولادك . وأوصاه بقتال أخيه قابيل .

ثم قبض الله تعالى نبيّه آدم في يوم الجمعة بعد أن استكمل ألف سنة ، وصلت عليه الملائكة صفوفاً ، وصلى عليه شيث ، ودُفن — عليه السلام — .

وقيل : كانت وفاته بالهند ، فلما كان زمن الطوفان حمل نوحٌ معه تابوت آدم في السفينة ، ثم دفنه بيت المقدس .

ذكر وفاة حوّاء

قال : ولمّا توفي آدم — عليه السلام — لم تعلم حوّاء بموته حتى سمعت بكاء الوحش والسباع والطير ، ورأت الشمس منكسفة ، فقامت من قبّتها فزّعة أن يكون حلّ بشيث ما حلّ بهابيل ، وصارت إلى قبة آدم فلم تره ، فصاحت صيحة عظيمة ، فأقبل إليها شيث وعزّاها وأمرها بالصبر ، فلم تصبر دون أن صرخت ولطمت وجهها ودقت صدرها ، فأورثت ذلك بناتها إلى يوم القيامة ، ثم لزمت قبره أربعين يوماً لا تطعم ، ثم مرضت مرضاً شديداً ودام بها حتى بكت الملائكة رحمة لها ، ثم قبضت — رحمة الله عليها — فغسلها بناتها ، وكفّنت من أكفان الجنة ودُفنت إلى جنب آدم — عليهما السلام — ورأسها إلى رأسه ، ورجلاها عند رجله .

وقيل : كانت وفاتها بعد مضيّ سنة من وفاة آدم .

الباب الثاني من القسم الأول من الفن الخامس

في خبر شيث ابن آدم — عليهما السلام — وأولاده

قال : ولمّا مات آدم — عليه السلام — أسند وصيّته إلى ابنه شيث ، وكان ممّا أوصاه به التمسك بالعروة الوثقى ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، والإيمانُ بمحمد رسول الله ،

وقال له : يا بني ، إني رأيت اسمه مكتوبا على سُرَاقِ العرش وأبوابِ الجنان وأطباق السموات وأوراقِ شجرة طوبى ، فهذه وصيتي إليك . ثم نزع خاتمته من اصبعه ودفعه إليه ، وتسلم منه التابوت ، ثم قال له : إن الله سيعطيك ثوب المجاهدة ، فخارب أخاك قابيل ، فإن الله تعالى ينصرك عليه . وكان شيث حين الوصية إليه ابنَ أربعمائة سنة ، فأطاعه أولاد أبيه ، وصار إليه الفرس الميمون ، وكان أغرَّ محجَّلا .
إذا صهل أجابته الدوابُّ كلُّها بالتسبيح .

ذكر قتال شيث قابيل

قال : ثم أمر الله تعالى شيث بن آدم بقتال قابيل ، وكان قابيل قد اعتزل في ناحية من الأرض ، فعمرها ، وخدع أختاه فأحبَّلهما ، ورزق منها أولادا كثيرة فسار إليه شيث بجميع أولاده ، وتقلَّد سيف أبيه ، وكان بين يديه عمود من الياقوت تحمله الملائكة يضيء بالليل والنهار ، وسار وقد أحدقت به الملائكة ، فتوجه إبليس إلى قابيل وأعلمه خبر أخيه ، فتأهب للقاءه وقد داخله الفزع ، ثم جاء شيث فقابله ، فأقتلا ، فأنكبَّ قابيل على وجهه ، فأخذه شيث أسيرا ، وأسرجماعة من أولاده .

ثم أقبلت الملائكة إلى قابيل فسلكوه في سلسلة من سلاسل جهنم ، وغلَّوا يده إلى عنقه ، وساقوه بين يدي شيث مُهاناً وهو يقول : يا شيث احفظ الرِّحْمَ بيني وبينك . فقال : لا رِجْمَ بيننا بعد أن قتلت أخاك ظلما .

ثم أمر شيث الملائكة فساقوه مغلولاً إلى عين الشمس بالمغرب ، فلم يزل مواجهها للشمس حتى مات كافرا ، وصارت ذريته عبيدا وإماءً لشيث وأولاده .
ثم أخذ شيث بعد ذلك في عمارة المدن حتى بنى نيفا على ألف مدينة في كل مدينة منارة ينادى عليها : (لا إله إلا الله ، آدم صفوة الله ، محمد رسول الله) .

وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر هو وأولاده ، حتى عمرت الدنيا ؛ وأنزل الله تعالى على شيث نحسين صحيفة ، فكانوا يقرأونها ويعملون بما فيها من غير عداوة ولا تباغض ولا تحاسد ولا فسق بينهم ؛ وكان إبليس يحسد شيثا وأولاده ، فأقبل إبليس إليه في صورة امرأة حسناء ، فقال لها : من أنت ؟ قالت : امرأة أرسلني الله إليك لتزوج بي ، ولست من بنات آدم . فقال : إن ربي لم يأمرني بذلك ولا أخبرني عنك ، وما أظنك إلا إبليس . فضحك وقال : إنما أنا امرأة من نساء الجنة ، ولا تعص ربك وتزوج بي ؛ وجعل إبليس يتزين له حتى كاد يفتنه ؛ فنادته الملائكة : يا نبي الله ، إنه عدوك إبليس . فقبض شيث عليه وهم بقتله ؛ فقال : خلّ عني فإني من المنظرين ، ولكن أعطيك الميثاق أني لا أتعرض إليك بعدها . فأطلقه ولم يعد إليه .

١٦

وولد لشيث (أنوش) على طوله وحسنه ؛ فجعله شيث مكانه والخليفة من بعده ، وسلم إليه التابوت ، وأوصاه بقتال أولاد قابيل .

ومات شيث وله سبعمائة سنة وعشرون سنة .

وقيل : بل عاش بعد آدم مائتي سنة ، وعهد إلى آبنه (أنوش) فقام على أولاده بالطاعة ثلاثمائة عام .

وعهد من بعده إلى آبنه (قينان) ، فعمر بعد أبيه مائتين وخمسين سنة .

وعهد إلى آبنه (مهلائيل) ، وكثر في زمانه بنو آدم ، وكان منزلهم الحرم فضاق بهم ، فقسّم الأرض بينهم خمسة أقسام ، وأرسل خمسة نفر من صلحاء قومه يقيمون لهم شرائع آدم — عليه السلام — ويتولّون الحكومة بينهم ، وهم ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وهؤلاء الذين لما فقدوا بلغ من وجد قومهم

٢٠

عليهم أن جعلوا لهم تمثاليل يتسلّون بها ؛ وترامى الأمر إلى أن عبدها القرن الذى تلاهم ، فكان ذلك هو السبب لعبادة الأوثان .

ثم قام بالأمر بعد (مهلائيل) ابنه (أخنوخ) ، وهو إدريس .

الباب الثالث من القسم الأول من الفن الخامس

في أخبار إدريس النبي — عليه السلام —

- ٥ وأسمه أخنوخ ، وإتّما سُمّي إدريس لكثرة دراسته الكتب ؛ وهو أول من بُعث من بنى آدم ؛ وهو أول من خطّ بالقلم بعد شيث ، وأول من كتب في الصحيفة ؛ وكان مشغلا بالعبادة ومجالسة الصالحين حتى بلغ فأنفرد للعبادة ، فجعله الله تعالى نبيا ، وأنزل عليه ثلاثين صحيفة ، وورثه صحف شيث وتابوت آدم .
- ١٠ وكان يعيش من كسب يده ؛ وكان خياطا ، وهو أول من خاط الثياب ولبسها وكانوا قبل ذلك يلبسون الجلود ، حتى أتت عليه أربعون سنة ، فبعثه الله تعالى إلى أولاد قابيل ، وكانوا جبابرة ، وقد آشتغلوا باللهو والغناء والمزامير والطناير وغير ذلك ، وعبدوا الأصنام ؛ وكان إدريس يدعوهم ثلاثة أيام ، ويعبد الله أربعة .
- وَحكى عن وهب أنه أول من آتخذ السلاح ، وجاهد في سبيل الله ، ولبس الثياب ، وأظهر الأوزان والأكيال ، وأنار علم النجوم .
- ١٥ وكان إدريس شديد الحرص على دخول الجنة ، وكان قد رأى في الكتب أنه لا يدخلها أحد دون الموت ، فبينما هو يسبح في عبادته إذ عَرَضَ له ملك الموت في صورة رجل في نهاية الجمال ؛ فقال له إدريس : من أنت ؟ قال : عبدٌ من عبيد الله أعبدته كعبادتك . وأصطحبا ، فكان إدريس يأكل من رزق الله ، وهو لا يطعم شيئا ؛ فسأله عن ذلك ؛ فأخبره أنه ملك الموت ؛ فقال له : جئت لقبض
- ٢٠

رُوحى؟ قال : لا ، ولو أمرنى الله بذلك ما أمهلْتُكَ ، وإمكنته أمرنى أن أصطحبك .
فسأله إدریس أن يقبض روحه ؛ فقال له : وما تريد بذلك وللموت كُربٌ عظیم ؟
قال : لعل الله تعالى يحينى فأكون أكثر فى عبادته . فأمره الله بقبض روحه
فقبضها ، وأحياه الله تعالى لوقته .

ثم قال إدریس له بعد حين : هل تستطيع أن تقفنى على جهنم ؟ قال :
ما حاجتك إلى ذلك ولها من الأهوال ما لا تطيق أن تنظر إليه ، وما لى سبيل إلى
ذلك ، ولكنى أقفك على طريق مالك خازنها ، والله أعلم بحاجتك . فاحتمله
ووقفه على طريق مالك ، فلما رآه كَشَرَ فى وجهه ، فكادت رُوحه تخرج ، فأوحى الله
— عز وجل — إلى مالك : وعزتى وجلالى لا رأى عبدى إدریس بعد كشرتك

سواء ، إرجع إليه وقفه على شفير جهنم ليرى ما فيها . فوقفه مالك على شفيرها
ونظر إلى ما فيها من الأهوال ، فلولا أن ثبته الله تعالى لصعق ؛ ثم أعاده إلى مكانه ،
فاحتمله ملك الموت إلى الأرض ، فعبد الله عز وجل حيناً ؛ ثم قال لملك الموت :
هل لك أن تدخلنى الجنة لأرى ما أعد الله تعالى لأهل طاعته من النعيم ؟ فقال :

حاجتك إلى الله تعالى ، وإمكنتى أحملك وأقف على طريق رضوان خازن الجنان
فسله حاجتك . ففعل ذلك ؛ فلما رآه رضوان قال : من هذا ؟ قال : إدریس نبى
الله يريد أن ينظر إلى نعيم الجنان . قال : « ذلك إلى ربى » . فأوحى الله تعالى إلى
رضوان : أتى قد علمت ما يريد عبدى إدریس ، وقد أمرتُ غصنا من أغصان
شجرة طوبى أن يتدلى إليه فيلتف به ويدخله الجنة ، فإذا دخل فأقعدْه فى أعلى
موضع ؛ فلما دخلها إدریس ورأى ما فيها من النعيم قال له رضوان : أخرج الآن .

قال له إدریس : أيدخل الجنة من يخرج منها ؟ لحاجته فى ذلك ، فأرسل الله تعالى
له ملك الموت ، فقال له إدریس : ما حاجتك ؟ إنك لن تُسلط على قبض روحى

مرتين، فاذهب . فرجع ملك الموت إلى ربه عز وجل وقال : إلهي قد علمت ما قال إدريس . قال الله تعالى : إنه حاجك بكلامي ، فذره في جنتي . فذلك قوله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ .

(١) هذا ما أورده الكسائي - رحمه الله - في كتاب المبتدأ .

- ٥ ونقل الشيخ أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي - رحمه الله - في كتابه المترجم (بيواقيت البيان في قصص القرآن) وفي تفسيره أيضا في سبب رفع إدريس عليه السلام، قال : وكان سبب رفعه على ما قال ابن عباس - رضي الله عنهما - وأكثر الناس : أنه سار ذات يوم فأصابه وهج الشمس ، فقال : يارب إني مشيت يوما فتأذيت منها ، فكيف من يحملها خمسمائة عام في يوم واحد؟ ! اللهم خفف عنه من ثقلها ، وأحمل عنه حرها . فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وخفة حرها ١٠ ما لا يعرف ، فقال : يارب ، خلقتني لحمل الشمس ، فما الذي قضيت في؟ فقال : أما إن عبدى إدريس سألني أن أخفف عنك ثقلها وحرها ، فأجبته . قال : يارب أجمع بيني وبينه ، وأجعل بيني وبينه خلة . فأذن الله تعالى له ، فأتى إدريس حتى إن إدريس ليسأله ، فكان مما سأله أن قال : أخبرتك أنك أكرم الملائكة عند ملك الموت وأمكنهم عنده ، فأشفع لي إليه أن يؤخر أجلى فأزداد شكرا وعبادة . فقال ١٥ الملك : لا يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها . قال إدريس : قد علمت ذلك ، ولكنه أطيب لنفسى . قال : نعم أنا مكلمة لك ، فما كان يستطيع أن يفعل لأحد من بنى آدم فهو فاعله لك . ثم حمّله ملك الشمس على جناحه ، فرفعه إلى السماء

(١) كتاب الكسائي الموجود بدار الكتب المصرية غير مكتوب عليه هذا العنوان المذكور، بل كتب

٢٠ على إحدى نسخته (كتاب العرائس قصص الأنبياء) وعلى نسخة أخرى (قصص الأنبياء) . وهو هذا الكتاب نفسه الذي ذكره المؤلف ، وهذا الاختلاف في التسمية إنما وقع من النساخ .

ووضعه عند مطلع الشمس؛ ثم أتى ملك الموت، فقال : لى إليك حاجة . قال :
أفعلُ كلَّ شىء أستطيعه . فقال له : صديق لى من بنى آدم يتشفّع بى إليك أن
تؤخر أجله . فقال : ليس ذلك لى ، ولكن إن أحببت أعلمه أجله مى يموت
فيتقدّم فى نفسه . قال : نعم . فنظر فى ديوانه ، فأخبره بأسمه ، فقال : إنك كلمتنى
فى إنسان ما أراه يموت أبدا . ثم قال : إنى لأجده يموت عند مطلع الشمس .
قال : فإننى أتيتك وتركته هناك . قال : فآنطلق فإنّه قد مات ، فوالله ما بقى من
أجل إدريس شىء . فرجع الملك فوجده ميتا .

قال : وقال وهب : كان يُرفع له فى كلّ يوم من العبادة مثل ما يرفع لأهل
الأرض فى زمانه . فعجبت منه الملائكة ، فأشتاق إليه ملك الموت ، فاستأذن الله
تعالى فى زيارته ، فأذن له ، فأناه فى صورة غلام ، وكان إدريس يصوم الدهر كلّ
فلما كان فى وقت إفطاره دعاه إلى الطعام ، فأبى أن يأكل معه ، وفعل ذلك ثلاث
ليال ، فقال له إدريس فى الليلة الثالثة : إنى أريد أن أعلم من أنت . قال :
أنا ملك الموت ، استأذنت ربّى أن أزورك وأن أصاحبك ، فأذن لى فى ذلك .
فقال له إدريس : فلى إليك حاجة . قال : وما هى ؟ قال : اقبض رُوحى ؛ فأوحى
الله تعالى إليه : « اقبض روحه » . ففعل ، ثم ردها الله تعالى إليه بعد ساعة ، فقال
له ملك الموت : فما الفائدة فى سؤالك قبض الروح ؟ قال : لأذوق كرب الموت
وغمه فأكون له أشد استعدادا .

ثم قال : لى إليك حاجة أخرى ، قال : وما هى ؟ قال : ترفعنى إلى السماء لأنظر
إليها وإلى الجنة والنار . فأذن الله تعالى له فى ذلك ، فلما قرب من النار قال :
لى إليك حاجة . قال له : وما تريد ؟ قال : تسأل مالكا حتى يفتح لى أبوابها
فأردها . ففعل ؛ ثم قال له إدريس : فكما أريتنى النار فأرنى الجنة . فذهب إلى

الجنة فاستفتح ، ففتحت له أبوابها ، فأدخله الجنة ؛ فقال له ملك الموت : اخرج منها لتعود إلى مقرّك . فتعلّق بشجرة وقال : لا أخرج منها . فبعث الله تعالى ملكا حكما بينهما ؛ فقال له الملك : مالك لا تخرج ؟ قال : لأنّ الله تعالى قال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ وقد ذقته . وقال : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ وقد وردتها . وقال تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ فلست أخرج . قال الله تعالى لملك الموت : دعه فإنه بإذني دخل الجنة ، وبأمرى يخرج . فهو هناك ، فتارة يعبد الله في السماء الرابعة ، وتارة يتنعم في الجنة .

الباب الرابع من القسم الأول من الفن الخامس

في قصة نوح — عليه السلام — وخبر الطوفان

(١٨)

- ١٠ قال الكسائي — رحمه الله تعالى — قال وهب بن منبه : لما رفع الله تعالى إدريس — عليه السلام — ترك إدريس في الأرض ولده متوشلح ، فتزوج بامرأة يقال لها : (ميشاخا) ؛ فولدت له ولدا سمّاه (ملك) ، وكان يرجع إلى قوة وبطش وكان يضرب بيده الشجرة العظيمة فيقتلعها من أصلها ، وكان على وجهه نور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فخرج في يوم إلى البرية فرأى امرأة في نهاية الجمال وبين يديها غنم ترعاها ، فأعجبته ، فسألها عن نفسها ، فقالت : أنا قينوش بنته براكيل بن محويل من أولاد قابيل بن آدم . فقال : ألك زوج ؟ قالت : لا . قال : فما سنك ؟ قالت : مائة وثمانون . قال : لو كنت بالغة لتزوجتك — وكان البلوغ يومئذ لاستيفاء مائتي سنة — فقالت : كان عندي أنك تريد أن تفضحني ، فأما إذا أردت الزواج فتمد أتي على مائتا سنة وعشر سنين . فخطبها من أبيها ، وأرغبه بالمال ؛ فزوجه بها فحملت منه بنوح — عليه السلام — فلما كان وقت الولادة ولدته في غار خوفا على
- ٢٠

نفسها وولدها من الملك لكونها تزوجت بمن ليس منهم ، فلما وضعته هناك وأرادت الانصراف قالت : وأنوحاه . وأنصرفت ، فبقى في الغار أربعين يوما ، ثم توفي أبوه لملك ، فأحتملته الملائكة ووضعته بين يدي أقمه مزيّنا مكحولا ، ففرحت به وربته حتى بلغ .

وكان ذا عقل وعلم ولسان وصوت حسن ، واسع الجبهة ، أسيل الخد ، وكان يرعى الغنم لقومه مدة ، وربما عالج التجارة ، ثم كره مجاورة قومه لعبادتهم الأصنام . وكان لهم ملك يقال له درمشيل ، وكان جبّارا عاتيا قويا ، وهو أقول من شرب الخمر وأتخذ القمار وقعد على الأسرة وأتخذ الثياب المنسوجة بالذهب وأمر بصنعة الحديد والنحاس والرصاص ، وكان هو وقومه يعبدون الأصنام الخمسة : ودّا وسوآعا ويغوث ويغوق ونسرا ، ثم آتخذ ألف صنم وسبعمئة صنم على صور شتى ، وأتخذ لها كراسي من الذهب والفضة ، وأقام لها الخدم يخدمونها ، فاعتزلهم نوح إلى البرارى ولم يخالطهم حتى بعثه الله تعالى نبيا ، والله أعلم بالصواب .

ذكر مبعث نوح عليه السلام

قال : فأمر الله تعالى جبريل — عليه السلام — أن يهبط إلى نوح ويبشره بالنبوة والرسالة ، فهبط جبريل عليه ، وجاءه بوحي الله أن يسير إلى درمشيل الملك وقومه ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى ، فأقبل نوح إلى قومه من يومه — وكان يوم عيدهم وقد نصبوا أصنامهم على أسرتها وكراسيها ، وهم يقرّبون القرابين لها ، وكانوا إذا فعلوا ذلك ينحرون لها سجدا ويشربون الخمر ، ويضربون بالصنّج ، ويأتون النساء كالبهائم من غير تستر — فجاءهم وهم يزيدون على تسعين زمرة ، كلّ زمرة لا يحصون كثرة ، فأخترق الصفوف حتى صار في وسط القوم ، وسأل الله تعالى أن ينصره

عليهم ، فلما أرادوا السجود للأصنام نادى : أيها القوم ، إني قد جئتكم بالنصيحة من عند ربكم أدعوكم إلى عبادته وطاعته ، وأنها كم عن عبادة هذه الأصنام (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا) . فخرقت دعوته الأسماع ، وهوت الأصنام عن كراسيها ، وسقط الملك عن سريره مغشياً عليه ، فلما أفاق قال : يا أولاد قابيل ، ما هذا الصوت الذى لم أسمع مثله ؟ قالوا : أيها الملك ، هذا صوت رجل منا اسمه نوح بن لَمَك ه كان بجانبنا قبل ذلك بجنونه ، والآن قد اشتد عليه فقال ما قال . فغضب الملك وأستدعاه ، فأتوه به بعد أن ضربوه الضرب الشديد ، فقال له : من أنت ، فقد ذكرت آلهتنا بسوء ؟ قال : أنا نوح بن لَمَك رسول رب العالمين ، جئتكم بالنصيحة من عند ربكم لتؤمنوا به وبرسوله ، وتهجروا هذه الأصنام والقبائح . فقال درمشيل : إنك قد جئتنا بما لا نعرفه ، ولا نعتقد أنك عاقل ، فإن كان بك جنة فنداويك أو فقر فنواسيك . قال : يا قوم ، ما بى جنون ولا حاجة إلى ما فى أيديكم ، ولكنى أريد أن تقولوا : لا إله إلا الله وإنى نوح رسول الله . فغضب درمشيل وقال : لولا أنه يوم عيد لقتلناك .

فأول من آمن به امرأة من قومه يقال لها : (عَمْرَة) فتزوجها فأولدها (ساما) (وحاما) (ويافث) وثلاث بنات ، ثم آمنت به امرأة أخرى من قومه يقال لها : (والعة) فتزوجها فأولدها كنعان ، ثم نافقت وعادت إلى دينها . (١٩)

وكان نوح يخرج فى كل يوم فى أنديّة لقومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى فيضربونه حتى يُغشى عليه ، ويحترقون برجله فيلقونه على المزابل ، فاذا أفاق عاد إليهم بمثل ذلك ، ويعاملونه بمثله ، حتى أتى عليه ثلاثمائة سنة وهو على هذه الحال ، ثم مات ملكهم درمشيل ، وملك بعده ابنه بولين ، وكان أعنى وأطغى من أبيه — وكان نوح يدعوهم فى القرن الرابع على عادته ، فيضربونه ويشتمونه ، وربما سفّوا

عليه التراب ويقولون : إليك عنا يا ساحر يا كذاب . ويضعون أصابعهم في آذانهم ؛ فينصرف عنهم ويعود إليهم ، وإذا خلا بالرجل منهم دعاه ، وهم لا يزدادون إلا عتوا وتمردا وأستكبارا ، وذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ الآيات .

ثم دعاهم حتى استكمل ستة قرون ؛ فلما دخل القرن السابع مات ملكهم (بولين) وأستخلف عليهم أبنه (طفردوس) — وكان على عتو أبيه — وكان نوح يأتي أصنامهم بالليل وينادي بأعلى صوته : يا قوم ، قولوا (لا إله إلا الله ، وإني نوح رسول الله) . فتنگس الأصنام ؛ وكانوا يضربون نوحا ضربا شديدا ، ويدوسون بطنه حتى يخرج الدم من أنفه وأذنيه ؛

وكان الرجل منهم عند وفاته يوصي أولاده ويأخذ عليهم العهد ألا يؤمنوا به ؛ ويأتي الرجل بآبنه إلى نوح ويقول : يا بني أنظر إلى هذا فإن أبي حملني إليه وحذرني منه ، فأحذره أن يريك عمّا أنت عليه فإنه ساحر كذاب . وهو بعد ذلك يدعوهم ؛ فضجّت الأرض إلى ربّها وقالت : ما حملك على هؤلاء ؟ وضجّ كلّ شيء إلى ربّه من عتوهم ، ونوح يدعوهم ويذكّرهم بآيات الله ؛ فلما كان في بعض الأيام إذا هو برجل من كبار قومه قد أقبل بولده يحذّره منه ؛ فضرب الغلام بيده إلى كفّ تراب وضرب به وجه نوح ، فعند ذلك قال نوح ربّ لا تدّر على الأرض من الكافرين ديارا إِنَّكَ إِن تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا . فأمنت الملائكة على دعوته ، فمنع الله عنهم القطر والنبات ؛ فعلم نوح أن الله مهلك قومه ؛ فأحبّ أن يؤمن بعضهم إن لم يؤمنوا كلّهم ؛ فأوحى الله تعالى

إليه : ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَاصْنَعْ
الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تَحْطِئْ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ .

ذكر عمل السفينة

- قال : وأوحى الله تعالى إليه أن يتخذها في ديار قومه ، وأن يجعلها ألف ذراع
طولا وخمسمائة عرضا وثلاثمائة ارتفاعا ، فأعد آلات النجارة ، وشرع في عملها .
وأعانه أولاده ومن آمن من قومه ، والناس يسخرون منه ويقولون : بعد النبوة
صرت نجارا ، ونحن نشكو القحط ، وأنت تبني للغرق . قال الله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ
الْفُلَّكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ
كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ، وكانوا يأتون السفينة بالليل فيشعلون فيها النار
ولا تحترق ، فيقولون : هذا من سحر يا نوح .

- وجعل نوح رأس السفينة كرأس الطاوس ، وعنقها كعنق النسر ، وجؤجؤها
بكؤجؤ الحمامة ، وكؤثلها كذئب الديك ، ومنقارها كمنقار البازي ، وأجنحتها كأجنحة
العقاب ، ثم غشاها بالزفت ، وجعلها سبع طبقات لكل طبقة باب ، فلما فرغ
من بنائها نطقت بإذن الله وقالت : لا إله إلا الله إله الأولين والآخرين ، أنا
السفينة ، من ركبني نجا ، ومن تخلف عني غرق ، ولا يدخلني إلا أهل الإخلاص .
فقال نوح لقومه : أتؤمنون ؟ قالوا : هذا قليل من سحر . ثم استأذن ربه
في الحج ، فأذن له ، فلما خرج هم القوم بإحراقها ، فأمر الله الملائكة فأحتملوا إلى
الهواء ، فكانت معلقة حتى عاد من حجّه . ولمّا قضى مناسكه رأى تابوت^(١)
آدم عن يمين الكعبة ، فسأل ربه في ذلك التابوت فأمر الملائكة فحملوه إلى دار

(١) كذا في كتاب الكسائي المنقول عنه هذا الكلام . والذي في الأصول : « تنورا من آدم » ؛ وهو
تحريف ، إذ لا يعقل أن يتخذ التنور من آدم وهو الجلد .

نوح — وكانت يومئذ في مسجد الكوفة — فلما رجع من حجّه نزلت السفينة من الهواء، ثم أوحى الله إليه : أن قد دنا هلاك قومك ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ . ثم أمره الله تعالى أن ينادى في الوحش والسباع والطيور والهوام والأنعام ؛ فوقف على سطح منزله ، ونادى : ” هلمّوا إلى السفينة المنجية “ . فمّرت دعوته إلى الشرق والغرب والبعد والقرب ، فأقبلت إليه أفواجا .

فقال : إنما أمرت أن أحمل من كلّ زوجين اثنين ؛ فأقرع بينهم ، فأصاب القرعة من أذن الله في حمله ، وكان معه من بنى آدم ثمانون إنسانا بين رجل وامرأة ؛ فلما كان في مستهل شهر رجب نودي من التنّور وقت الظهر : قم يا نوح فأحمل في سفينتك من كلّ زوجين اثنين من الذكور زوجا ومن الأنثى زوجا ، فحملهم . وكان معه جسد آدم وحواء ؛ وتباطأ عليهم الحمار في صعوده ، لأن إبليس تعلق بذنبه ؛ فقال نوح بالنبطيّة : على سيطان ، يعنى أدخل يا شيطان ؛ فدخل ومعه إبليس فرآه نوح فقال : يا ملعون ، من أدخلك ؟ قال : أنت حيث قلت : على سيطان : فعاهده ألا يغوى أهل السفينة ما داموا فيها ؛

ثم أوحى الله إلى جبريل أن يأمر خزنة الماء أن يرسلوه بغير كيل ولا مقدار وأن تضرب المياه بجناح الغضب . ففعل ذلك ، ونبتت العيون ، وهطلت السماء (فَأَتَتْهُ الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ) وكان ماء السماء أخضر ، وماء الأرض أصفر ؛ وأمر الله الملائكة أن يحملوا البيت الى سماء الدنيا ؛ وكان الحجر يومئذ أشدّ بياضا من الثلج ؛ فيقال إنه أسودّ من خوف الطوفان ؛ وقال نوح عند ركوبه السفينة ما أخبرنا الله عنه في كتابه العزيز : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِأَسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرسَاها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان

فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ أَرَكِبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿١٠﴾

قال : كان آبنه هذا كنعان .

- قال : وكانوا لا يعرفون الليل من النهار إلا بخززة تأت مرگبة في صدر السفينة بيضاء ، فاذا نقص ضوءها علموا أنه النهار ، واذا زاد علموا أنه الليل ؛ وكان الديك يصيح عند أوقات الصلاة ؛ وعلا الماء على الجبال أربعين ذراعا ؛ وسارت السفينة حتى بلغت موضع الكعبة ، فطافت سبعا ، ونطقت بالتلبية ؛ وكانت لا تقف في موقف إلا وتناديه : يا نوح هذه بقعة كذا ، وهذا جبل كذا ؛ حتى طافت به الشرق والغرب ورجعت الى ديار قومه ، فقالت : يا نبي الله ، ألا تسمع صلصلة السلاسل في أعناق قومك ؟ قال الله تعالى : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا ﴾ ؛ ولم تزل السفينة كذلك ستة أشهر آخرها ذوالحجة .

- وقيل : كان ركوب نوح ومن معه السفينة لعشر خلون من شهر رجب وذلك لتمة ألفى سنة ومائتى سنة وخمسين سنة من لدن أهبط الله تعالى آدم عليه السلام — وخرجوا منها في العاشر من المحرم بعد مضي ستة أشهر ؛ ثم استقرت على جبل الجودي ، قال الله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ .

- قال : ثم فتح نوح باب السفينة ، فنظر الى الأرض بيضاء من عظام قومه ؛ وبعث الغراب لينظر ما بقى على وجه الأرض من الماء ؛ فأبطأ ، فبعث الحمامة

فَانْطَلَقَتْ شَرْقًا وَغَرْبًا وَعَادَتْ مُسْرِعَةً، فَقَالَتْ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ، هَلَكْتَ الْأَرْضُ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَأَمَّا الْمَاءُ فَإِنِّي لَا أَرَاهُ إِلَّا بِبِلَادِ الْهِنْدِ، وَلَمْ تَبْقَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ شَجَرَةٌ إِلَّا الزَّيْتُونُ، فَإِنَّهَا عَلَى حَالِهَا . فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى نُوحٍ : ﴿ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ﴾ نَخْرَجُ مِنَ السَّفِينَةِ وَأَخْرَجَ مِنْ فِيهَا، وَأَعَادَ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ وَالْأَشْجَارَ وَالنَّبَاتَ كَمَا كَانَتْ، وَتَفَرَّقَ الْوَحْشُ وَالسَّبَاعُ وَالطُّيُورُ وَغَيْرُهَا فِي الْأَرْضِ؛ وَأَمَرَ نُوحٌ فَبُنِيَتْ قَرْيَةٌ فِي أَسْفَلِ جَبَلِ الْجُودَى وَسُمِّيَتْ (قَرْيَةً ثَمَانِينَ) عَلَى عَدَدِهِمْ .

قِيلَ : هِيَ الْجَزِيرَةُ ؛ وَهِيَ أَوَّلُ قَرْيَةٍ بُنِيَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ بَعْدَ الطُّوفَانِ ثُمَّ قَسَمَ نُوحٌ الْأَرْضَ بَيْنَ أَوْلَادِهِ الثَّلَاثَةِ : سَامٌ وَحَامٌ وَيَافِثٌ، فَأُعْطِيَ سَامٌ الْحِجَازَ وَالْيَمَنَ وَالشَّامَ، فَهُوَ أَبُو الْعَرَبِ ، وَأُعْطِيَ حَامٌ بِلَادَ الْمَغْرِبِ فَهُوَ أَبُو السُّودَانِ وَأُعْطِيَ يَافِثٌ بِلَادَ الْمَشْرِقِ، فَهُوَ أَبُو التُّرْكِ .

ثُمَّ أَوْحَى اللَّهُ — عَزَّ وَجَلَّ — إِلَى نُوحٍ أَنْ يَرِدَ التَّابُوتَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أَخَذَ مِنْهُ، فَرَدَّهُ .



ذَكَرَ خَبْرَ دَعْوَةِ نُوحٍ عَلَى ابْنِهِ حَامٍ وَدَعْوَتِهِ لِابْنِهِ سَامٍ

قَالَ : وَلَمَّا اسْتَقَرَّ الْأَمْرُ قَالَ نُوحٌ لِبْنِهِ : إِنِّي أَحَبُّ أَنْ أُنَامَ، فَإِنِّي لَمْ أَتَّهِنًا بِالنُّومِ مِنْذُ رَكِبْتُ الْفُلَّكَ . فَوَضَعَ رَأْسَهُ فِي حِجْرِ ابْنِهِ حَامٍ، فَهَبَّتِ الرِّيحُ فَكَشَفَتْ عَنْ سُوءَتِهِ، فَضَحِكَ حَامٌ، وَغَطَّاهُ سَامٌ؛ فَانْتَبَهَ فَقَالَ : مَا هَذَا الضَّحْكُ ؟ فَأَخْبَرَهُ سَامٌ ، فَغَضِبَ وَقَالَ لِحَامٍ : أَتَضْحَكُ مِنْ سُوءَةِ أَبِيكَ ؟ غَيْرَ اللَّهِ خَلَقْتَكَ ، وَسَوَدَ وَجْهَكَ . فَأَسْوَدَ وَجْهَهُ لَوَقْتِهِ . وَقَالَ لِسَامٍ : سَتَرْتَ عَوْرَةَ أَبِيكَ ، سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَغَفَرَ لَكَ فِي الْآخِرَةِ، وَجَعَلَ مِنْ نَسْلِكَ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَشْرَافَ، وَجَعَلَ مِنْ نَسْلِ حَامٍ الْإِمَاءَ وَالْعَبِيدَ، وَجَعَلَ مِنْ نَسْلِ يَافِثٍ الْجَبَابِرَةَ وَالْأَكَاسِرَةَ وَالْمُلُوكَ الْعَاتِيَةَ .

ذكر وصية نوح ووفاته

قال كعب : بعث الله - عز وجل - نوحا إلى قومه وله مائتان وخمسون سنة ولبت فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، وعاش بعد الطوفان مائتي سنة؛ فلما حضرته الوفاة دعا بآبنه سام وقال له : أوصيك يا بُني بآثنين، وأنهاك عن آثنين : أوصيك «بشهادة أن لا إله إلا الله»، فإنها تحرق السموات السبع، لا يحجبها شيء، والثانية أن تكثير من قولك : « سبحان الله وبحمده »، فإنها جامعة الثواب؛ وأنهاك عن الشَّرك بالله، والأتكال على غير الله . فلما فرغ من ذلك أتاه ملك الموت، فسلم عليه فقال : من أنت ؟ فقد ارتاع قلبي من سلامك . قال : أنا ملك الموت، جئتُ لقبض رُوحك . فتغير وجهه وجزع، فقال له : ما هذا الجزع، ألم تشبع من الدنيا في طول عمرك ؟ قال : ما شبهتُ ما مضى من عمري في الدنيا إلا بدار لها بابان دخلتُ من أحدهما وخرجتُ من الآخر . فناولوه ملك الموت كأسا فيها شراب وقال : اشرب هذا حتى يسكن روعك . فلما شربه نحر ميتا - عليه السلام - والله الموفق .

ذكر خبر أولاد نوح - عليه السلام - من بعده

فأما حام فإنه واقع زوجته فولدت غلاما وجارية سودا^(١)، فأنكرهما حام؛ فقالت امرأته : « لحقتك دعوة أبيك » . فلم يقربها حيناً؛ ثم واقعها فولدت مثلهما فتركها حام وهرب على وجهه؛ فلما كبر الولدان الأقولان خرجا في طلب أبيهما حتى بلغا قرية على شاطئ البحر، فنزلاها، وواقع الغلام أخته فحملت منه وولدت غلاما وجارية؛ وأقاما في ذلك الموضع لا مأكل لهما إلا السمك؛ فرجع

(١) أراد بالجمع هنا ما فوق الواحد فقال : « سودا » .

حامٌ في طلب ولديه فلم يجدهما ، فأغتم لذلك ؛ ثم ماتت امرأته ، فخرج الولدان الآخران في طلب أخويهما حتى صارا الى قرية أخرى على الساحل خربة ، فتزلاها فسمع بهما الأخوان اللذان في البطن الأول ، فليحقا بهما ؛ ونزلوا هناك ، ووطئ كل منهما أخته ؛ فرزقوا أولادا ، وكثر منهم النسل ، وانتشروا في أعلى الأرض على ساحل البحر ؛ فمنهم النوبة والزنج والبربر والهند والسند وجميع طوائف السودان .

وأما يافث بن نوح ، فإنه صار إلى المشرق ، فولد له هناك خمسة أولاد^(١) : جومر وتيرس وأشار وسفويل ومياشخ ؛ فمن جومر جميع الصقالبة والروم وأجناسهم ؛ ومن تيرس جميع الترك والخزر وأجناسهم ؛ ومن مياشخ جميع أصناف العجم ؛ ومن أشار ياجوج وماجوج ؛ ومن سفويل جميع الأرمن :

وأما سام بن نوح فولد خمسة أولاد : أرخشذ ، وهو أب العرب ؛ ولاوذ وهو أبو العمالقة ؛ وأشور ، وهو أبو النسناس ؛ وعيلم ، وهو أبو العادية [الأولى] ، وإرم ، وهو أبو عاد وشمود ؛ ورزق غيرهم ممن لم يُعقب .

الباب الخامس من القسم الأول من الفن الخامس

٢٢

في قصة هود — عليه السلام — مع عاد وهلاكهم بالريح العقيم

قال وهب : كان ملك عاد أكبر اسمه الخلجان بن عاد بن العوص بن إرم ابن سام ؛ وكان قومه يرجعون إلى فصاحة وشعر ، وكان له ثلاثة أصنام : صدًا وهبا ، وصمو ؛ وكان ملكهم قد حلّى هذه الأصنام بأنواع الحلّى ، وطيبها ، وجعل لها عدّة من الخدم بعدد أيام السنة ؛ فعتوا في المعاصي ، وأنهمكوا على عبادة

(١) يلاحظ أن كتب التاريخ مختلفة تمام الاختلاف في رواية كثير من هذه الأسماء العشرة أولاد

يافث وسام حتى إنه لاصلة بين رواية وأخرى . ومن المتعذر الوصول الى تحقيق كثير من هذه الأسماء .

- الأصنام؛ وكان فيهم رجل من أشرافهم اسمه الخلود بن معيد بن عاد، وكان له بسطة في الخلق وقوة في الجسم، مع الحسن والفصاحة؛ وكان إذا قيل له : لم لا تتزوج وقد بلغت سن أبيك ؟ يقول : رأيت في المنام كأن سلسلة بيضاء قد خرجت من ظهري، ولها نور كالشمس، وقيل لي : إذا رأيت هذه السلسلة قد خرجت من ظهرك ثانية فتزوج بالتي تؤمر بتزوجها؛ ولم أرها بعد، وقد عزمتُ على التزوج .
- وقام ليعبر بيت الأصنام يدعو بالتوفيق في التزوج، فلما هم بالدخول لم يقدر، وسمع هاتفا يقول : يا خلود، ما لمن في ظهرك والأصنام؟ فلم يعد إليها . ثم رأى بعد ذلك في منامه السلسلة وقد خرجت من ظهره وقائلا يقول : « قم يا خلود فتزوج بأبنة عمك » فأنتبه وخطبها وتزوجها، وواقعها فحملت بهود؛ وأصبح القوم وهم يسمعون من جميع النواحي : هذا هود قد حملت به أمه، ويلكم، إن لم تطيعوه هلكتم .
- ووضعت أمه في ليلة الجمعة، فوقعت الرعدة على قبائل عاد، ولم يعلموا ما حالهم؛ فعلموا أنه قد ولد لخلود ولد، فقال بعضهم لبعض : ليكون لهذا الولد شأن فأحذروه . فخرج أحسن الناس وجها، وأكملهم عقلا، وسمته أمه عابر، فرأته أمه ذات يوم يصلي، فقالت : لمن هذه العبادة يا بني؟ قال : لله الذي خلقني وخلق الخلق . قالت : أليس هي لأصنامنا؟ قال : إن أصنامكم لا تنفع ولا تنفع وإنما الشيطان قد زين لكم عبادتها . قالت : أعبد إلهك يا بني، فقد رأيت منك حين كنت حملا وطفلا عجائب كثيرة .

ذكر مبعث هود عليه السلام

- قال : ولم يزل هود في ديار قومه يجادلهم في أصنامهم، حتى أتت عليه أربعون سنة؛ فبعثه الله — عز وجل — إلى قومه رسولا، وأتاه الوحي، فأنطلق إليهم وهم

متفرقون في الأحقاف، وهي الرمال والتلال — وكانت مساكنهم ما بين عُمان إلى حضرموت إلى الأحقاف إلى عابجة — فأتاهم في يوم عيد لهم وقد اجتمع الملوك على الأسرّة والكراسي، ومليّكهم الخلجان على سرير من ذهب وهو متوج وقد أحدثت به قبائل عاد، وهم في اللهو والطرب؛ فلم يشعروا إلا وهود ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ وهذه الأصنام التي تعبّدونها هي التي أغرقت قوم نوح، ولستم أكرم على ربكم منهم؛ فاستغفروا ربكم من عبادة هذه الأصنام. والأصنام ترتج؛ فقال له مليّكهم: ويحك يا هود، أقبل إلى. فتقدم إليه، فلما صار بين يدي الملك صاح صيحة أجابه الوحش والسباع: أبلغ ولا تخف. فامتلات قلوب الناس خوفا، فقام إليه رجل منهم وقال: يا هود، صِف لنا إلهك. فوصف عظمة الله، وأنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ — وكان الذي سأله عمرو بن الحلي — فلما فرغ من كلامه قال له الملك: يا هود، أظن أن إلهك يقدر علينا وهذه كثرة جموعنا وشدة قوتنا؟ قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾.

فأول من آمن بهود رجل من قومه يقال له جُنادة بن الأصم وأربعون من بني عمّه؛ ثم أنصرف إلى منزله.

فلما كان من الغد أقبل جُنادة وبنو عمّه حتى وقفوا على جماعة من سادات قومه، فقال: يا قوم لا تمنعكم مرارة الحق أن تقبلوه، ولا حلاوة الباطل أن تتركوه؛ وهذا ابن عمكم هود قد عرفتم صدقه، وقد أتاكم من عند الله رسولا وواعظا فاتقوا الله وأطيعوه. وحذّروهم، فخصبوه وشتّموه، فرجع إلى هود.

(١) في (ج): « أقبل ».

فلما كان من الغد خرج هود فوقف عليهم وقال : يا قوم لا تبدلوا نعمة الله كفرا . وأخذ يعظهم ؛ فكذبوه وواجهوه بالقباح ؛ فبقى على ذلك دهرًا طويلا يلاطفهم وهم على كفرهم وعتوهم ؛ فأعظم الله أرحام نسائهم ، فلم تحمل امرأة منهم ؛ فشكوا ذلك إلى الملك ، فأمرهم أن يخرجوا أصنامهم ويقتربوا القرابين إليها ؛ ففعلوا ذلك ؛ فاتاهم هود وقال : يا قوم ألا تفزعون إلى الله الذي خلقكم وأعطاكم هذه النعمة والقوة ، فإنه مجيبكم إذا سألتوه ، ويزيدكم ملكا إلى ملككم وقوة إلى قوتكم وهو أن تقولوا معي : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له وإني هود عبده ورسوله » وإن لم تفعلوا ذلك ضربكم الله بالذل والنقمة ، وهبت عليكم الريح العقيم حتى تذرکم في دياركم هشيا . فلما سمعوا ذلك منه ضربوه حتى سال الدم على وجهه وهو يقول : « إلهي قد أبلغت وأندرت » .

وأقبل إلى هود بعد أنصرافه رجل من قومه يُعرف بمرثد بن عاد ، وقال : يا هود ، إني قد جئت في أمر ، فإن أخبرني به فأنت رسول الله . قال له هود : يا مرثد ، كنت البارحة نائما مع زوجتك فواقعتهما ، فقالت لك : أتظن أني قد حملت ؟ فقلت لها : إني صائر غدا إلى هود ، فإن أخبرني بهذا الكلام آمنت به . فقال مرثد : أشهد أنك رسول الله حقا ؛ ولكن أخبرني هل حملت ؟ قال : نعم حملت بولدين ذكرين يكونان من أمتي ، سيخرجان من بطنها سليمين مؤمنين ؛ وستلد لك عشرة أبطن في كل بطن ذكران ، ويكونان من أمتي . فوثب مرثد وقبل رأس هود وكان من خيار أصحابه ، وجعل مرثد يقول :

من كان يصدق يوما في مقالته * فإن هودا رسول صادق القيل
نبي صدق أتى بالحق من حكم * وقد أتانا ببرهان وتنزيل
فالحمد لله حمدا دائما أبدا * مضاعفا شكره في كل تفصيل^(١)

(١) مضاعفا بالنصب : حال آمن الله .

ثم أنصرف مرثد إلى امرأته وأخبرها ، فأمنت ، وكان مرثد يكتُم إيمانه
ويجالس قومه ، فإذا سمعهم يذكرُون هودا بسوء يقول : مهلا يا بني عم فإنه
كأحدكم وابنُ عمكم .

قال : ثم اجتمعوا في منزله لم وملاكهم ونصبوا أصنامهم ، فأقبل هود
عليهم وقال : يا قوم أعبدوا الله فإن هذه الأصنام لا تضر ولا تنفع ولا تبصر
ولا تسمع . فقال الرؤساء من قومه : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ
قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَبْلُغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي
وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ
وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾ .

فنادوه من كل ناحية : يا هود ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ
آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ
وَغَضَبٌ ﴾ .

وكان القوم يشتمونه ويضربونه ويدوسونه تحت أرجلهم حتى يظنوا أنه قد
مات ، ثم يولون عنه ضاحكين ، فيقوم غير مكترث بفعالهم ، فلما أكثر عليهم
﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ
إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا
تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ
مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴾ فآمن به في ذلك اليوم رجل يقال له نهيل .

قال : ولم يزل هود فيهم يحذرهم وينذرهم العذاب سبعين عاما ؛ فلما رأى أنهم لا يؤمنون دعا الله تعالى أن يتليهم بالقحط ، فإن آمنوا وإلا يهلكهم بعذاب لم يهلك به أحدا قبلهم ولا بعدهم ؛ فاستجاب الله تعالى دعوته ، وأمره باعترالهم بمن معه من المؤمنين ، فآعترلهم فأمسك الله عنهم المطر ، وأجدبت الأرض ولم تثبت ومات عامة المواشي ؛ فصبروا على ذلك أربع سنين حتى يئسوا من أنفسهم ، وهموا أن يؤمنوا ؛ فنهاهم الملك عن ذلك وصبرهم ؛ فاجمعوا رأيهم أن يبعثوا رجالا منهم إلى الحرم يستسقون لهم ؛ والله الفعال .

ذكر خبر وفد عاد إلى الحرم يستسقون لهم

قال وهب : فجمعوا الهدايا ، وأختاروا سبعين رجلا من أشrafهم ، وجعلوا لكل عشرة منهم رئيسا ، من جملتهم مرثد المؤمن ؛ فسار وهو يدعو عليهم ؛ فلما أشرفوا على الحرم إذا بهاتف يقول :

قبح الله قوم عاد وذلوا * إن عادا أشرا أهل الجحيم
سيروا الوفد كي يسقوا غياثا * فسيُسقون من شراب الحميم

فدخلوا الحرم والملك يومئذ معاوية بن بكر ، وكانوا أخواله ، فسألهم عما جاء بهم فأخبروه بنجر هود وبما حلّ بعاد ، وأنهم قد لجأوا إلى الحرم للاستسقاء ؛ فأنزلهم معاوية في منزل الضيافة ، وأطعمهم وسقاهم شهرا ؛ فشغلهم اللهو عن الاستسقاء ؛ فبلغ الملك (الخلجان) ذلك ، فبعث إلى معاوية يسأله أن يأمرهم بالاستسقاء ، فكره مواجهتهم بذلك فيقولون : « قد تبرم بضيافتنا » فدعا بالجرادتين — وهما قيتان لمعاوية — فقال لهما : إذا شرب القوم ودبّ فيهم الشراب فغنيّا هم بهذه الأبيات ، وهي :

بأبي من خلق آلحد * قى بنى ساء وحام
سادة سادوا جميع ال * يخلق في الخلق التمام

نَصَبَ الدهر عليهم * حَرَبَهُ دُونَ الأَنَامِ
فَسَقَى الله بَنِي عَا * دَ مِنَ الصَّوْبِ الغَامِ
فَأَجَابَهُمَا رَجُلٌ مِنَ الْوَفْدِ يَقَالُ لَهُ الْجَعْدُ بْنُ الْقَيْلِ :
عَلَّيْنَا — زَانِكَ اللّٰه * هُ — بِأَكْوَابِ الْمُدَامِ
وَبِمَاءٍ فَاْمُرْجِيهَا * تَسْتَرِيحِي مِنْ مَلَامِ .

فلما لم يكثرثوا بالصوت الأول قالت :

أَلَا يَا قَيْلُ وَيَحَاكَ قُمْ فَهَيْمٌ * لَعَلَّ الله يَمْنَحُكُمْ غَمَامَا
غَمَامَا صَوْبُهَا هَاطِلٌ مَغِيثٌ * يُرَوِّى السَّهْلَ طُزَا وَإِلَّا كَامَا
مِنَ الْعَطَشِ الشَّدِيدِ فَلَيْسَ نَرْجُو * بِهَا الشَّيْخَ الْكَبِيرَ وَلَا الْغَلَامَا
وَقَدْ كَانَتْ نِسَاؤُهُمْ بِخَيْرٍ * فَقَدْ أَمْسَتْ نِسَاؤُهُمْ عِيَامَا ^(٢)
وَأَنَّ الْوَحْشَ تَأْتِيهِمْ جَهَارَا * وَلَا تَنْحَشِي لِعَادَى سَهَامَا
وَأَنْتُمْ هَاهُنَا فِيمَا أَشْتَهَيْتُمْ * نِهَارَكُمْ وَلَيْلَكُمْ التَّمَامَا
فَقُبِّحَ وَفْدُكُمْ مِنْ وَفْدِ قَوْمٍ * وَلَا لَقَّوْا التَّحِيَّةَ وَالسَّلَامَا
أَفِيقُوا أَيُّهَا الْوَفْدُ السُّكَارَى * لِقَوْمِكُمْ فَقَدْ أَضْحَوْا هِيَامَا
فَقَدْ طَالَ الْمُقَامُ عَلَى سُرُورٍ * أَلَا يَا قَيْلُ وَيَكْ ذَرِ الْمُدَامَا

قال : فَأَنْتَبِهَ النَّاسَ وَقَامُوا فَأَغْتَسَلُوا وَلَبَسُوا ثِيَابًا جَدُّدًا ، وَكَسَوْا الْبَيْتَ
بِالْكِسْوَةِ الَّتِي حَمَلُوهَا لَهُ ، بِفَعْلٍ يَنْفُضُهَا ، فَقَالَ مَرْتَدٌ : يَا قَوْمُ ، إِنَّ رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ
لَا يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ إِلَّا مِنْ مُؤْمِنٍ ، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ تَوْمِنُوا بِهَوْدٍ ؟ فَقَالُوا : يَا مَرْتَدُ :
إِنَّ كَلَامَكَ يَدُلُّ عَلَى إِيمَانِكَ بِهِ ، وَنَحْنُ لَا نَتَوَمَّنُ بِهِ أَبَدًا .

فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

(١) هَيْمٌ ، أَيْ أَدْعَى اللهُ . (٢) عِيَامَا ، أَيْ شِدِيدَاتِ الشَّهْوَةِ إِلَى اللَّبَنِ .

أَرَى عَادًا تَمَادَى فِي ضَلَالٍ * وَقَدْ عَدَلُوا عَنِ الْأَمْرِ الرَّشِيدِ
بِمَا كَفَرَتْ بِرَبِّهِمْ جَهَنَّا * وَحَادُوا رَغْبَةً عَنِ دِينِ هُودَ
فَاجْتَمَعُوا يَسْتَسْقُونَ، فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ :

يَا رَبِّ عَادٍ آسَقِينَ عَادًا * إِنَّكَ حَقًّا تَرْحِمُ الْعِبَادَا
فَاسِقِ الْبَسَاتِينَ وَذِي الْبِلَادَا * أَجْوَادٌ غِيثٌ تَتَّبِعُ الْعِهَادَا
وَجَعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَتَكَلَّمُ بِمَا حَضَرَهُ مِنْ ذَلِكَ . ثُمَّ تَكَلَّمَ مَرْثَدُ بْنُ سَعْدٍ —
وَهُوَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَكْتُمُ إِيْمَانَهُ — وَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّا لَمْ نَأْتِكَ إِلَى حَرَمِكَ إِلَّا لِأَرْضِ
تَسْقِيهَا، أَوْ أُمَّةٍ تَحْيِيهَا .

فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مَلِكِ السَّحَابِ أَنْ يَنْشُرْ لَهُمْ ثَلَاثَ غَمَامَاتٍ : بَيْضَاءَ وَحُمْرَاءَ
وَسُودَاءَ ، وَجَعَلَ السُّودَاءَ مَشُوبَةً بِغَضَبِهِ ، فَأَرْتَفَعَتِ الْبَيْضَاءُ ، وَتَبَعَتْهَا الْحُمْرَاءُ
خَلْفَهُمَا السُّودَاءُ ، فَأَرْتَفَعَتْ حَتَّى رَأَى الْوَفْدَ بِجَمِيعِ الْغَمَامَاتِ ، فَفَرَحُوا وَاسْتَبَشَرُوا
ثُمَّ نُودُوا : يَا قَيْلُ ، اخْتَرِ لِقَوْمِكَ مِنْ هَذِهِ السَّحَابِ . فَنَظَرَ فَقَالَ : أَمَّا الْبَيْضَاءُ فَإِنَّهَا
جَهَامٌ لَا مَاءَ فِيهَا ، وَأَمَّا الْحُمْرَاءُ فَإِنَّهَا إِعْصَارُ رِيحٍ . فَأَخْتَارَ السُّودَاءَ . فَنُودِيَ :
يَا قَيْلُ ، اخْتَرْتَ رَمَادًا أَرْمَدًا، لَا يَبْقَى مِنْ قَوْمٍ عَادٍ أَحَدًا، إِلَّا تَرَاهُمْ فِي الدِّيَارِ هُمْدًا .

١٥ ذكر إرسال العذاب على قوم هود

قال : وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى (مَالِكٍ) خَازِنِ جَهَنَّمَ أَنْ يَقْبِضَ عَلَى سَلْسَلِ السُّودَاءِ
وَلِيَكُنْ عَلَيْهَا أَلْفٌ مِنَ الزَّبَانِيَةِ .

قال كعب : إِنَّ هَذِهِ السَّلْسَلَةَ غُمِسَتْ فِي سَبْعِينَ وَاثِنًا مِنْ أَوْدِيَةِ الزَّمْهَرِيرِ
وَلَوْلَا ذَلِكَ لَذَابَتِ الْجِبَالُ مِنْ حَرِّهَا .

فمَدَّت الزبانية السلاسل ، وجَعَلَت السحابة ترمى بشرر كالجبال ، وخرجت عليهم من واد يقال له : (وادى الغيث) فنظروا إليها فقال بعضهم لبعض : ﴿ هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ قال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ .

وأخرج القوم أصنامهم ونصبوها على أسرتها ، فأمر الله تعالى خازن الريح العقيم أن يفتح بعض أطباقها ، فَأَنْطَلَقَتْ نَاشِرَةً أَجْنَحَتَهَا بَعْدَ قِبَائِلِ عَادَ ، فلَمَّا عَايَنُوا الملائكة يطوفون حول السحاب تيقنوا العذاب ، فأدخلوا النساء والولدان فى الحصون وخرجوا ونشروا أعلامهم وأوتروا قسيهم ، وأفرغوا السهام بين أيديهم ، والرياح ساكنة تنتظر أمر ربها ، وهود قائم ينذرهم العذاب ، وهم يقولون : ستعلم يا هود من أشد منا قوة وبطشا . حتى إذا كانت صبيحة الأربعاء ، خرجت الريح عليهم فى يوم نحس مستمر ، فكانت فى اليوم الأول شهباء ، فلم تترك على وجه الأرض شيئا إلا نسفته نسفا ، وفى اليوم الثانى صفراء ، فأقتلعت الأشجار ، وفى اليوم الثالث حمراء ، فدمرت كل شىء مرت عليه ، فلم يزل يجرى فى كل يوم لون والنساء ينظرن إلى فعلها بقومهن ، فجعلن يقان شعرا :

ألا قد ذهب الدهر * ربعمرو ذى العليات

وبالحارث والقمقا * م طالع الذيات

ومن سد مهب الريد * يح فى وقت البليات

وَأَسْتَمَرَّتِ الرِّيحُ ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ ، أى دائمة ، فلما كان فى اليوم الثامن أصطفت القوم صفوفا ، كل واحد إلى جنب أخيه ، وهم عشرة صفوف ، فجعل ملكهم الخليجان يشجعهم ويقول :

(١) ما بال عاد اليوم خائفينا ؟ * أم من مهبّ الريح يجزعونا ؟

لقد خشيت أن يكونوا دوننا * إن البنين تُعقب البنينا

هذا والريح تمزقهم ، فكانت تدخل في ثوب الرجل فتحمله في الهواء ، ثم ترميه على رأسه ميتا . قال الله تعالى : ﴿ كَانَهُمْ أَعْجَازُ نَحْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ .

- ٥ فلم يبق منهم إلا الملك أخره الله تعالى ليرى مصارع قومه ، وهو يردّ الريح بصدّره ، بجاءت الريح فدخلت من فيه وخرجت من دبره ، فمات ، ثم مرت الريح نحو الوفد ، فحملتهم من الأرض إلى الهواء ، فألقتهم على وجوههم ، فماتوا عن آخرهم .
- قال : وهوود في حظيرة بمن معه من المؤمنين لا يصيبهم منها إلا ما تلين له الجلود .
- قال الله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَايِظٍ ﴾ .
- ١٠

قال : وأرتحل هود ومن معه من أرض عاد إلى الشحر من بلاد اليمن ، فترلوا هناك حولين ، ثم مات .

ويقال : إنه دفن بأرض (حضرموت) ؛ والله أعلم .

ذكر خبر مرثد ولقمان

- ١٥ قال : وخرج من وفد عاد مرثد ، ولقمان بن عاد ، فدخل مكة منفردين ، فدعوا الله تعالى لأتسمهما ؛ فقبل لهما : قد أعطيتما منّا كما ، فأختارا لأنفسكما ، إلا أنه لا سبيل إلى الخلود . فقال مرثد : اللهم أعطني براً وصدقا . فأعطى ذلك . وقال لقمان : « يا رب عمرا » . فقبل له : اختر لنفسك بقاء سبع بقرات صفر عفر

(١) كذا ورد هذا الشطر في إحدى نسخ (قصص الأنبياء للكسائي) المنقول عنه هذا الكلام . والذي

في الأصول : * يا آل عاد أبكم جنونا * وقوله : « أبكم جنونا » غير مستقيم الإعراب كما هو ظاهر .

في جبل وعمر، لا يمسن دُعر؛ وإن شئت بقاء سبع نوايات من تمر، مستودعات
 في صخر، لا يمسن ندَى ولا قطرب؛ وإن شئت بقاء سبعة أنسر كلما هلك نسر أعقب
 من بعده نسر . فأختار الأنسر، فكان يأخذ الفرخ منها حين يخرج من بيضته ، فإذا
 مات أخذ غيره ، فكان كل نسر يعيش ثمانين سنة ، حتى آتتهى إلى السابع ، فكان
 آخرها بُد ؛ فلما مات لبد مات معه لقمان ، وهو لقمان النصور . ٥

ولنصل هذا الباب بخبر ﴿إِرمَ ذاتِ العِمَادِ﴾ ، وقصة شديدة وشداد .

ذكر خبر ﴿إِرمَ ذاتِ العِمَادِ﴾ وقصة شديدة وشداد بنى عاد

قد ذكرنا خبر ﴿إِرمَ ذاتِ العِمَادِ﴾ فيما تقدّم من كتابنا هذا على سبيل الاختصار
 وذلك في (الباب الثالث من القسم الخامس من الفن الأول في المباني القديمة)
 وهو في السفر الأول من هذه النسخة ؛ ورأينا إيرادَه في هذا الباب بما هو أبسط
 من ذلك لتعلقه به . ١٠

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرمَ ذاتِ العِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ
 مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ .

روى أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي في كتابه المترجم (بيواقيت
 البيان في قصص القرآن) عن منصور عن سفيان عن أبي وائل أن رجلا
 يقال له : (عبد الله بن قلابة) خرج في طلب إبل له قد شردت ، فبينما هو
 في بعض صحارى عدن في تلك الفلوات ، إذ وقف على مدينة عليها حصن ، حول ذلك
 الحصن قصور كثيرة وأعلام طوال ؛ فلمّا دنا منها ظن أن فيها من يسأله عن إبله
 فلم يردا خلا فيها ولا خارجا منها ، فترل عن ناقته وعقلها ، وسل سيفه ، ودخل من
 باب الحصن ، فاذا هو ببابين عظيمين لم يُر في الدنيا أعظمُ منهما ولا أطيبُ رائحة ٢٠

- وإذا خشبهما من أطيب عُود ، وعليهما نجوم من ياقوت أصفر وياقوت أحمر ضوءهما قد ملأ المكان ؛ فلما رأى ذلك عجب ، ففتح أحد البابين ، فإذا هو بمدينة لم ير الرءون مثلاً قط ، وإذا هو بقصور تتعلّق ، تحتها أعمدة من زبرجد وياقوت وفوق كلّ قصر منها عُرف مبنية بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، وعلى كلّ باب من أبواب تلك القصور مصراع كـ مصراع باب المدينة من عُود طيّب ، قد نُصِّدَتْ عليه اليواقيت ؛ وقد فُرِشَتْ تلك القصور باللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران ولم ير هناك أحداً ، فأفزعته ذلك ، ثم نظر إلى الأزقة فإذا في كلّ زقاق منها أشجار قد أثمرت ، تحتها أنهار تجري ؛ فقال : هذه الجنة التي وصفها الله تعالى لعباده في الدنيا الحمد لله الذي أدخلني الجنة . فحمل من لؤلؤها وبنادق المسك والزعفران ولم يستطع أن يقلع من زبرجدها ولا ياقوتها لأنها كانت مشتبكة في أبوابها وجدرانها وكان اللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران منشورة بمنزلة الرمل في تلك القصور والغرف ؛ فأخذ منها ما أراد ، وخرج ؛ ثم سار يقفو أثر ناقته حتى رجع إلى اليمن ، فأظهر ما كان معه ، وأعلم الناس بخبره ، وباع ذلك اللؤلؤ ؛ وكان قد آصفرت وتغير من طول الزمان الذي مرّ عليه ، ففشا خبره وبلغ معاوية ، فأرسل رسولا إلى صاحب (صنعاء) ، وكتب بإشخاصه ، فسار حتى قدم على معاوية ، فخلا به وسأله عما عاين ؛ فقص عليه أمر المدينة وما رأى فيها ؛ فاستعظم ذلك ، وأنكر ما حدث به ، وقال : ما أظنّ ما يقول حقاً . ثم قال : يا أمير المؤمنين ، معي من متاعها الذي هو مفروش في قصورها وغرفها وبيوتها . قال له : ما هو ؟ قال : اللؤلؤ والبنادق . فشتم البنادق فلم يجد لها ريحاً ؛ فأمر ببنديقة منها فدُقّت ، فسطع ريحها مسكا وزعفراناً ؛ فصدّقه عند ذلك ؛ ثم قال معاوية : كيف أصنع حتى أسمع بأسم هذه المدينة ولئن هي ومن بناها ؟ والله ما أعطى أحد مثلاً أعطى سليمان بن داود

وما أظنّ أنه كان له مثل هذه المدينة . فقال بعض جلسائه : ما تجد خبر هذه المدينة إلّا عند (كعب الأحبار) فإن رأى أمير المؤمنين أن يبعث إليه ويأمر بإشخاصه ويغيّب عنه هذا الرجل في موضع ويسمع كلامه منه وحديثه ووصف المدينة حتى يتبين أمر هذه المدينة فعّل ، فإن كعبا سيخبر أمير المؤمنين بخبرها وأمر هذا الرجل إن كان دخلها ، لأن مثل هذه المدينة على هذه الصفة لا يستطيع هذا الرجل دخولها ، إلّا أن يكون سبق في الكتاب دخوله إياها فيعرف ذلك .

فأرسل معاوية إلى (كعب الأحبار) وأحضره ثم قال له : يا أبا إسحاق إنني دعوتك لأمر رجوت أن يكون علمه عندك . فقال له : يا أمير المؤمنين "على الخبر سقطت" فسلني عما بدا لك . فقال له : أخبرنا يا أبا إسحاق ، هل بلغك أن في الدنيا مدينة مبنية بالذهب والفضة ، عمدها زبرجد وياقوت ، وحضا قصورها وغرفها اللؤلؤ ، وأنهارها في الأزقة تحت الأشجار؟ قال : والذي نفس كعب بيده لقد ظننت أن سأتوسد^(١) يميني قبل أن يسألني أحد عن تلك المدينة وما فيها ولكن أخبرك بها يا أمير المؤمنين ولمن هي ، ومن بناها .

أما المدينة فهي حق على ما بلغ أمير المؤمنين وعلى ما وُصفت له .

وأما صاحبها الذي بناها فشداد بن عاد .

وأما المدينة فهي إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد .

فقال له معاوية : يا أبا إسحاق ، حدثنا بحديثها — يرحمك الله — . فقال كعب :

نعم يا أمير المؤمنين ، إن عادا كان له آبنان يسمى أحدهما « شديدا » والآخر « شدادا » ، فهلك عاد ، فبقيا ومدكا وتجرآ ، فقهرآ أهل البلاد ، وأخذها عنوة

(١) كنى بتوسد يمينه عن دفنه بعد الموت . وفي الأصل : « شينا توسد » .

- وَقَسْرًا ، حتى دان لهما جميع الناس ، فلم يبق أحد من الناس في زمانهما إلا دخل في طاعتهما ، لا في شرق الأرض ولا في غربها ؛ وإنهما لما صفا لهما ذلك وقتر قرارهما مات شديد بن عاد ، وبقى شَدَاد ، فملك وحده ، ولم ينازعه أحد ودانت له الدنيا كلها ؛ فكان مولعًا بقراءة الكتب القديمة ، وكان كلما مرّ فيها بذكر الجنة دعتَه نفسه لتعجيل تلك الصفة لنفسه الدنيّة عتّوا على الله وكفرا ؛ فلما ٥ وَقَرَّ ذلك في نفسه أمر بصنعة تلك المدينة التي هي إرم ذات العماد ، وأمر على صنعها مائة قَهْرَمَان ، مع كلّ واحد ألف من الأعوان . ثم قال : انطلقوا إلى أطيب فلاة من الأرض وأوسعها ، وأعملوا فيها مدينة من ذهب وفضّة وياقوت وزبرجد ولؤلؤ ، تحت تلك المدينة أعمدة من زبرجد ، وعلى المدينة قصور ، من فوق القصور ١٠ غرف ، ومن فوق الغرف غرف ، وأغرسوا تحت القصور غروسا فيها أصناف الثمار كلّها ، وأجروا فيها الأنهار حتى تكون تحت تلك الأشجار جارية ، فإنّي أسمع في الكتب صفة الجنة ، وإنّي أحبّ أن أتخذ مثلها في الدنيا ، أتعجل سكناها . فقال له قَهْرَمَتُهُ : كيف لنا بالقدرة على ما وصفت لنا من الزبرجد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة نبنى منها مدينة كما وصفت لنا ؟ فقال لهم شَدَاد : أستم تعلمون أن ملك الدنيا ١٥ كلّها بيدي ؟ فقالوا : بلى . قال : انطلقوا إلى كلّ موضع فيه معدن من معادن الزبرجد والياقوت والذهب والفضة ، وكلّفوا من كلّ قوم رجلا يُخرج لكم ما في كلّ معدن من تلك الأرض ؛ ثم أنظروا إلى ما في أيدي الناس من ذلك نخدوه ، سوى ما يأتاكم به أصحاب المعادن ، فإنّ معادن الدنيا فيها كثير من ذلك ، وما فيها ممّا لا تعلمون أكثر وأعظم ممّا كلّفْتكم من صنعة هذه المدينة .
- ٢٠ قال : فخرجوا من عنده ، وكتب معهم إلى كلّ ملك من ملوك الدنيا يأمره أن يجمع لهم ما في بلده من الجواهر ، ويحفر معادنها ؛ فأطلق القهارمة ، وبعث الكتب

إلى الملوك بأخذ كل ما يجدونه في أيدي الناس عشر سنين من الزبرجد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة، ويبيعون بذلك إلى فعلة إرم ذات العماد . وخرج الفعلة يطلبون موضعاً كما وصفه لهم شداد .

فقال معاوية : يا أبا إسحاق ، كم كان عدد أولئك الملوك الذين كانوا تحت يد شداد؟ قال : كانوا مائتين وستين ملكاً .

قال : نخرج عند ذلك الفعلة والقهارمة ، فتفرقوا في الصحارى ليجدوا ما يوافق غرضه ، فوقعوا في صحراء عظيمة نقيّة من الجبال والتلال . وإذا هم بعيون مطردة ، فقالوا : هذه صفة الأرض التي أمرنا بها ، فأخذوا منها بقدر ما أمرهم به من العرض والطول ، ثم عمدوا إلى مواضع الأزقة فأجروا فيها قنوات الأنهار ، ثم وضعوا الأساس من صخور الجيزع اليماني ، وعجنوا طين ذلك الأساس من دهن البان والمحلب ، فلما فرغوا من وضع الأساس بعث بالعمد والذهب والفضة من جهة الملوك ، فتسلمها الوزراء والقهارمة ، وأقاموا حتى فرغوا من بنائها على ما أراد شداد .

فقال معاوية : يا أبا إسحاق ، إني لأحسبهم أقاموا في بنائها زمناً من الدهر . قال : نعم يا أمير المؤمنين . إني لأجد في التوراة مكتوباً أنهم أقاموا في بنائها ثلاثمائة سنة . فقال معاوية : كم كان عمر شداد ؟ فقال : سبعمائة سنة . فقال

معاوية : لقد أخبرتنا عجبا ، فحدثنا . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما سماها الله تعالى إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ، للعمد التي تحتها من الزبرجد والياقوت وليس في الدنيا مدينة من الزبرجد والياقوت غيرها ، فلذلك قال الله تعالى : ﴿ لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ .

وقال كعب : إنهم لما أتوه فأخبروه بفراغهم منها قال : انطلقوا وأجعلوا عليها حصناً ، وأجعلوا حول الحصن ألف قصر ، عند كل قصر ألف علم ، ويكون في كل

قصور وزير من وزرائي، ويكون كل علم عليه ناطور . فرجعوا فعملوا تلك القصور والأعلام والحصن ؛ ثم أتوه فأخبروه بالفراغ مما أمرهم به .

قال : فأمر شداد ألف وزير من خاصته أن يهيئوا أسبابهم ، ويعولوا على النقلة إلى إرم ذات العماد، وأمر رجالا أن يسكنوا تلك الأعلام ويقيموا فيها ليلهم ونهارهم، وأمر لهم بالعطاء والأرزاق، وأمر من أراد من نسائه وخدمه بالجهاز إلى إرم ذات العماد؛ فأقاموا في جهازهم عشر سنين؛ ثم سار الملك شداد بن عاد بمن أراد، وتخلف من قومه في عدن من أمره بالمقام بها .

قال : فلما استقل وسار إليها ليسكن فيها، وبلغ منها موضعاً بقي بينه وبين دخوله إليها مسيرة يوم وليلة، بعث الله تعالى عليه وعلى من كان معه صيحة من السماء، فأهلكتهم جميعاً، ولم يبق منهم أحد، ولم يدخل شداد ولا من كان معه إرم ذات العماد، ولم يقدر أحد منهم على الدخول فيها حتى الساعة .

فهذه صفة إرم ذات العماد، وأنه سيدخلها رجل من المسلمين في زمانك ويرى ما فيها، فيحدث بما عاين، ولا يُسمع منه ولا يصدق . فقال معاوية : يا أبا إسحاق، فهل تصفه لنا؟ قال : نعم، هو رجل أحمر أشقر قصير، على حاجبه خال، وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبل له نذت في تلك الصحارى فيقع على إرم ذات العماد، فيدخلها ويحمل ممّا فيها . والرجل جالس عند معاوية . فالتفت كعب فرأى الرجل، فقال : هو هذا يا أمير المؤمنين قد دخلها، فأسأله عما حدثتك به . فقال معاوية : يا أبا إسحاق، إن هذا من خدمي، ولم يفارقني . قال كعب : قد دخلها وإلا سوف يدخلها، وسيدخلها أهل هذا الدين في آخر الزمان . قال معاوية : يا أبا إسحاق، لقد فضلك الله على غيرك من العلماء .

ولقد أُعْطِيَ من علم الأولين والآخرين ما لم يُعْطَ أحد . فقال : والذي نفس كعب بيده ، ما خلق الله تعالى في الأرض شيئاً إلا وقد فسّره في التوراة لعبده موسى تفسيرا ، وإن هذا القرآن أشدّ وعيدا (وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا) والله الهادي للصواب .
 قال أبو إسحاق الثعلبيّ — رحمه الله تعالى — وقال الشعبيّ : أخبرنا دَعْفَلُ الشيبانيُّ عن رجل من أهل (حضرموت) يقال له : بِسْطام ، أنه وقع على حفيرة شَداد بن عاد في جبل من جبال حضرموت مَطْلًا على البحر .

قال : وكنت أسمع من صسبى إلى أن أكتهتُ بمغارة في جبل من جبالنا بحضرموت وهيبة الناس لدخولها ، فلم أحتفل بما كنت أسمع من ذلك ؛ فبينما أنا في نادى قومى إذ تناشدوا حديثَ تلك المغارة وأطنبوا في ذكرها ووصفوا موضعها ؛ فقلت لقومى : إني غير متته حتى أدخلها ، فهل فيكم من يساعدنى ؟ فقال قى منهم حدث السنّ : أنا أصاحبك . فقلت : يا ابن أخى ، أوتجسر على ذلك ؟ قال : عندى ما عند أشدّ رجل من رباطة الجأش وشدة القلب . فهيأنا شمعة وحملنا معنا إداوة عظيمة مملوءة ماء وطعاما مقدارا ما قدرنا على حمله ؛ ثم مضينا نحو ذلك الجبل الذى فيه المغارة — وكان مشرفا على المكان الذى يركب أهل حضرموت منه البحر — فلما آتينا إلى باب المغارة حزمنا علينا ثيابنا ؛ وأشعلنا الشمعة ؛ ثم ذكرنا الله تعالى ، ودخلنا ومعنا تلك الإداوة وذلك الطعام ، فإذا بمغارة عظيمة عرضها عشرون ذراعا ، وطولها علوا نحو خمسين ذراعا ؛ فمشينا فيها هونا في طريق أملس مستو ، ثم أفضينا إلى درجات عالية عرضُ الدرجة عشرون ذراعا في سَمَك عشر أذرع ، فحملنا أنفسنا على نزول تلك الدرجات فقلت لصاحبي : هلم ، إلى يديك . فكنت آخذ بيده حتى ينزل ، فإذا نزل وقام في الدرجة تعلّقتُ بطرف الدرجة وتسيّبتُ حتى تنال رجلاى منكبيه ؛ فلم نزل

(٢٩)

كذلك وذلك دأبنا عامة يومنا ، حتى نزلنا ذلك الدَّرَج وكانت مقدار مائة درجة ؛
 فأفضينا إلى أَرْجٍ عظيم محفورٍ في الجبل ، في طول مائة ذراع ، في عرض أربعين
 ذراعا ، وسمَّكهُ في السماء نحو مائة ذراع ، وفي صدره سرير من ذهب مفصَّص
 بأصناف الجواهر ، وفوقه رجل عظيم الجسم ، قد أخذ طول هذا الأَرْج وعرضه
 وهو مضطجع على ظهره كهيئة النائم ، وعليه سبعون حلة بمقدار طولهِ وعرضه
 منسوجة تلك الحلل بقضبان الذهب والفضة ، وإذا في ذلك الأَرْج نَقَب عرضه
 ذراعان ، وارتفاعه ثلاث أذرع ، خارج إلى فضاء لم ندر ما هو ، وإذا على رأس
 السرير لوح من ذهب ، فيه كتاب بالمُسند — وهو كتاب عادي كانت تكتبه
 في زمانها — محفور ذلك الكتاب في اللوح حفرا ، فقلعناه ودنونا من الرجل فمسينا
 تلك الحلل فصارت رميا ، وبقيت قضبان الذهب قائمة ، بجمعناها وكانت مقدار
 مائة رطل ، فحملناها في أُرْنا ، وأردنا قلع شيء من تلك الجواهر المفصَّص
 بها السرير ، فلم نقدر عليه لوثاقته ، فتركناه ، وهجم علينا الليل ، ونحن في ذلك الأَرْج
 وعرفنا ذلك بذهاب ذلك الضوء الذي كان يدخل من ذلك النَّقَب ، فبتنا ليلتنا
 في ذلك الأَرْج ، وطَفِئَت الشمعة التي كانت معنا ؛ فلما أصبحنا قلت لصاحبي :
 ماترى ؟ قال : أما الرجوع من حيث جئنا فلا سبيل إليه ، لارتفاع الدَّرَج ، وأنا
 لا نستطيع صعودها ، لا سبيّا والشمعة قد طَفِئَت ، ولكن هلمّ لنزِم هذا الضوء
 الذي نراه في هذا النَّقَب ، فإنني أرجو أن يخرج بنا إلى الفضاء إن شاء الله تعالى .
 فقلت له : لعمرى إن هذا هو الرأى .

قال : فأَطلقنا بما معنا من تلك القضبان من الذهب ، وحملناها مع ذلك
 اللوح الذهب الذي كان عند رأس السرير ، ومشينا في ذلك النَّقَب نتبع ذلك
 الضوء ، فلم نزل نمشي فيه في طريق ضيق مقدار مائة ذراع حتى خرجنا منه إلى

كهف في ذلك الجبل كهية الحائط ، وقد حفّ بذلك الكهف البحر ، فجلسنا على باب ذلك النّقب ثلاثة أيام نتمون بقيّة ما كان معنا من الماء والطعام ، فلما كان في اليوم الرابع نظرنا إلى مركب قد أقبل في البحر فلوّحنا إلى من فيه ، فأرسلوا إلينا القارب ، فنزلنا من باب ذلك النّقب نزولا شاقّا حتى وثبنا إلى القارب بما معنا ، ثم خرجنا من البحر فقسّمنا ذلك الذهب بيننا ، وصار ذلك اللّوح إلى بقسطي . ٥

قال : ثم إنّ أنفسنا دعّتنا إلى العودة إلى ذلك السّرب ممّا يلي النّقب من جهة البحر ، فركبنا قارباً وسرنا في البحر نحو المكان الذي كنّا فيه ، فنزلنا منه ، نخفي علينا فعلمنا أنّنا لم نرزق من ذلك المكان إلّا ما أخذناه ، فرجعنا .

قال : ومكث ذلك اللّوح عندي حولا وأنا لا أجد من يقرؤه ، حتى أتانا رجل حميريّ من أهل صنعاء كان يُحسن قراءة تلك الكتابة ، فأخرجتُ إليه اللّوح فقرأه ، فإذا فيه مكتوب هذه الأبيات :

اعتبرْ بي أيّها المغد * برورُ بالعمر المديد
أنا شداد بن عادٍ * صاحبُ الحصن العتيد
وأخو القوّة والبأ * ساء والمُلك الشديد
وبفضل المُلك والعُدَّة * فيه والعديد
دان أهل الأرض طرّاً * لي من خوف وعيدي
وملكتُ الشرق والغر * ب بسلطانٍ شديد
فأتى هودٌ وكنا * في ضلال قبل هود
فدعانا - لو قبلنا * ه - إلى الأمر الرشيد
فعصينا ونادى * بنا ألا هل من محيد
فأنتنا صيحة ته * يوى من الأفق البعيد

١٥

٢٠

فَتَوَافِينَا كَزَرْجٍ * وَسَطَ بِيْدَاءَ حَصِيدٍ

وقد ساق أبو إسحاق الثعلبيُّ أيضاً هذه الأبيات بهذا السند دون القصّة في تفسيره (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) وفيها في البيت الرابع بدل قوله :
..... طرّاً * لى من خوف وعيدى

٥ دان أهل الأرض لى من * خوفٍ وعدى ووعدى

قال أبو إسحاق — رحمه الله — قال دَغَفَلُ الشَّيْبَانِيّ : سألت علماء حمير عن شَدَاد بن عاد، فقلت : إنه أصيب وكان قد دنا من إرم ذات العماد، فكيف وُجِدَ شَلُوهُ في تلك المغارة وهي بحضرموت ؟ فقالوا : إنه لما هلك هو ومن معه بالصيحة، ملك بعده مَرْتَد بن شَدَاد، وقد كان أبوه خائفه على مُلكه بحضرموت فأمر بحمل أبيه إلى حضرموت، فحُمِلَ مطلياً بالصبر والكافور، فأمر أن تُحْفَر له تلك المغارة، وأستودعه فيها على ذلك السرير الذهب، والله تعالى أعلم .

هذا ما أورده — رحمه الله — من خبر إرم ذات العماد وخبر شديد وشَدَاد بن عاد .

وقد ذُكر في هذه الأبيات هود النبيّ — عليه السلام — في قوله :

فَأَتَى هُودٌ وَكُنَّا * فِي ضَلَالٍ قَبْلَ هُودٍ

(٣٠)

١٥ الأبيات الخمسة .

وقد تقدّم في خبر هود وهلاك عاد بالريح العقيم ، أن ملكهم القائم بأمرهم في زمن هود كان اسمه الخَلَجَان بن الوهم بن عاد، وأنه هلك بالريح العقيم إثر هلاك قومه، ولم يرد أنه آمن بالله تعالى ؛ وهذه الأبيات تدلّ على ندم قائلها ؛ ومقتضى هذا السياق فيه دلالة على أن شَدَاد بن عاد هذا المذكور آنفاً، وأبْنَه مَرْتَد بن شَدَاد وخبر إرم ذات العماد، كان قبل مبعث هود — عليه السلام — والله تعالى أعلم .

٢٠

الباب السادس من القسم الأول من الفن الخامس

في قصة صالح — عليه السلام — مع ثمود وعقرهم الناقة وهلاكهم قال الكسائي : قال كعب : لما أهلك الله — عز وجل — عادا، جاءت ثمود وعمّرت الأرض، وكانوا بضع عشرة قبيلة، في كلّ قبيلة زيادة عن سبعين ألفا سوى النساء والذرية، وكثروا حتى صاروا في عدد عاد وأكثر، وكانوا ذوى بطش وقوة وتجبر وكفر وفساد، وكانت منازلهم ما بين الحجاز إلى الشام، وهى ديار الحجر من وادى القرى، وكان ملكهم جندع بن عمرو بن عاد بن ثمود بن إرم بن سام ابن نوح .

وقيل فى نسبه : إنه جندع بن عمرو بن عمرو بن الدّميل بن عاد بن ثمود ابن عائذ بن إرم بن سام، وكانت طائفة ممن آمنّت بهود يذكرون له كيف أهلك الله قوم عاد بالريح العقيم، وكيف كانت سيرة هود فيهم؟ فيقول : إنما هلكت عاد لأنها لم تكن تشيّد بنيانها : ولا تنصح آلهتها، وكان بنيانهم على الأحقاف التى هى الرمال، ونحن أشد قوة وبناء وبلاداً، ونحن نتخذ الجبال بيوتا فننحتها فى الصخر لئلا يكون للريح عليها سبيل، ونحن نعبد آلهتنا حق العبادة .

قال كعب : كانت قوة الرجل منهم أن ينحت فى الجبل بيتا طوله مائة ذراع فى عرض مثل ذلك، ويضربه بصفائح الحديد، ويغلق بابا من حديد مصمت لا يفتحه إلا القوي منهم، وكانت منازلهم أولا بأرض كوش فى بلاد عالج^(١)، فانتقلوا إلى هذه البلاد لكثرة جبالها .

(١) فى ياقوت أن «عالج» رمال بين «فيد» «والقرىات»، وهى متصلة «بالثعلبية» على طريق مكة؛

فعل هذا الموضع هو المراد هنا .

- قال : ثم اجتمع كبرائهم إلى ملكهم جندع ، وقالوا : نريد أن نتخذ لأنفسنا إلهًا نعبد ، لم يكن مثله لقوم عاد ولا قوم نوح . فأذن في ذلك ، فنيحتوا صنًا من جبل يقال له : (الكثيب) وجعلوا وجهه كوجه الإنسان ، وعنقه وصدره كالبقرة ويديه ورجليه كالخيل ، وضربوه بصفائح الذهب والفضة ، وعقدوا على رأسه تاجًا ، ورصعوه بالدر والجوهر ، فلما كمل نحرّوا له سجدًا ، وقربوا قربانًا ، وأقبلوا إلى الملك فقالوا له : أخرج إلى هذا الإله الذي اتعينا أنفسنا في اتّخاذه . فخرج الملك إليه في زينته وأصحابه ، فلما رأوه نحرّوا له سجدًا ، ثم أمر الملك أن يتخذ له بيتًا ، وأن يسقف بصفائح الذهب والفضة ، ويرصع بالجوهر ، وتفرش أرضه بالديباج ، وأمر أن تتخذ لسائر الأصنام بيوت ، وأن يتخذ سرير من العاج والابنوس على عرض البيت ، قوائمه من الفضة ، وأن تعلق قناديل الفضة بسلاسل الذهب وأمر أن يجعل للبيت مصراعان في كلّ مصراع مائة حلقة من الذهب والفضة ويعلق عليهما ستران ، وسماهما ستور العزّ ، ووضع الصنم على ذلك السرير ، وسائر الأصنام الصغار على كراسي العاج والابنوس ، وأمر أن يُندب لخدمة الأصنام رجل من أشرف قومه وأحسنهم وأنسبهم ، فقالوا : ليس في ثمود أشرف نسبا وأجمل وجهًا من كانوا^(١) . فأستدعاه وقربه وتوجه وسوّده ، وجعله على خدمة الأصنام ، فقبل ذلك ، وتفترغ لخدمتها وعبادتها ، وقوم ثمود يعبدون ذلك الصنم ، وقد ازدادوا عتوًّا وتجبرًا وكفرًا وفسادًا ، والله تعالى يزيدهم سعة وخصبًا ، وهم يرون أن ذلك كله من بركات أصنامهم .

معين^{جزوب} التاريخ لأهل التاريخ

- (١) كذا ورد هذا الاسم في (تاريخ العيني) في نسخة منقولة عن نسخة المؤلف مأخوذة بالتصوير الشمسي محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ . والذي في الأصل : « كانول » في جميع مواضعه .

ذكر ميلاد صالح - عليه السلام -

- (١١) قال : فبينما كانوه في بيت الأصنام إذ تحركت نطفة صالح في ظهره ، وصار لها نور على عينيه ، وسمع هاتفا يقول : (جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) ألا بعدا وسحقا لثمود لكفرهم ، وهذا صالح بن كانوه يصلح الله به الفساد .
- ففرع من ذلك ، وذهب ليتقدم إلى الصنم الأكبر ، فنطق بإذن الله وقال : مالى ومالك يا كانوه ، مثلك يخدمنى وقد استنارت الأرض بنور وجهك للنور الذى فى ظهرك ؟ ! ثم تنكس الصنم عن سريره ، فأعاده كانوه وأعوانه إلى السرير ، وبلغ الملك ذلك ، فأغتم له ، فقال له أصحابه : إن هذا لسوء خدمة كانوه فإنه لا يوفى الآلهة حقها فى الخدمة . وهموا بقتله ، فأخفاه الله تعالى عن عيونهم ، فلما كان الليل هبط عليه ملك من السماء ، فأحتمله وهو نائم ، وألقاه فى وادٍ على أميال من ديار قومه وهو لا يدري فى أى موضع هو ، فنظر غارا فى جبل هناك ، فدخله ليكنه من حر الشمس ونام ، فضرب الله على أذنه مائة سنة ، وفقده قومه ، ونصبوا لخدمة أصنامهم رجلا منهم يقال له : داود بن عمرو ، فبينما هم كذلك وقد خرجوا فى يوم عيد لهم إذ نطقت الأشجار بإذن الله وقالت : يا آل ثمود ، ألا تعتبرون ، إن الله يُخرج لكم فى السنة من الثمار مرتين ، ثم تكفرون بنعمة ربكم وتعبدون سواه . ونطقت المواشى كذلك فعمدوا إلى الأشجار فقطعوها ، وعقروا المواشى ، فنطقت السباع ونادت من رؤوس الجبال : ويلكم يا آل ثمود ، لا تقطعوا هذه الأشجار وتذبخوا هذه المواشى وقد نطقت بالحق . فخرجوا إلى السباع بالأساحة وهى تهرب من بين أيديهم

(١) كذا ورد هذا الاسم فى (تاريخ العيني) فى نسخة منقولة عن نسخة المؤلف مأخوذة بالتصوير

الشمسى محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ . والذى فى الأصل : (كانول) فى جميع

وتستغيث بالله وتقول : اللهم طهر أرضك بنبيك صالح ، وأرفع به الفساد . والقوم يسمعون ذلك ويقولون : قد كفر هؤلاء بألهتنا .

- قال : وكان لكانوه في ديار قومه امرأة يقال لها : (رعوم) وهي كثيرة البكاء عليه منذ فقدته ؛ فبينما هي ذات ليلة وإذا بغراب نعق ، فقامت لتنظر إليه ، فرأته على مثال الغراب ، ورأسه أبيض ، وظهره أخضر ، وبطنه أسود . وهو أحمر الرجلين والمنقار ، وأخضر الجناحين ؛ فقالت : أيها الطائر ، ما أحسنتك ! فقال : أنا الغراب الذي بُعثتُ إلى قابيل فأريته كيف يوارى سوء أخيه ، وأنا من طيور الجنة ، وإني أراك باكية حزينة . فقالت : إني فقدتُ زوجي منذ مائة عام . فقال : اتبعيني فإني أرشدك إليه . فتبعته ، وطويت لها الطريق حتى وقفها على باب الغار ، ونادى الطائر : قم يا كانوه ، قم بقدره الله . فقام ودخلت إليه زوجته ، فواقعها ، فحمت — بإذن الله تعالى — بصالح . وقبض الله كانوه لوقته ؛ وعادت رعوم والغراب يدرهما على منزلها ؛ فلما آنقضت مدة حملها ، وضعت في ليلة الجمعة من شهر المحرم ، ف وقعت هزة شديدة في بلاد ثمود لمولده ، ونحرت الوحوش والسباع ساجدة لله تعالى ، وأصبحت الأصنام وقد تنكست ؛ فأقبل داود وأخبر الملك بخبرها ؛ فخاء بأشراف ورفعوها على مراتبها وأسرتها ، وتقدم الملك إلى الصنم الأكبر وقال : ما دهالك ؟ فناداهم إبليس منه : قد ولد فيكم غلام يدعوكم إلى دين هود ليس عليكم منه بأس .

نخرج الملك ومن معه مستبشرين ؛

- ونشأ صالح ، حتى إذا بلغ سبع سنين أقبل على قومه وهو يقول : يا آل ثمود ، تنكرون حسبي ونسبي ، أنا فلان بن فلان . فيقولون : إنك من أحسبنا وأنسبنا ؟ حتى إذا بلغ عشر سنين إند أقبل عليهم ملك من أولاد سام ، كان يغزوهم

في كل سبع سنين مرة فيسأب أموالهم؛ فوثب صالح إلى سيف أبيه وسلاحه وخرج يعدو، وإذا هو بالملك جندع وسادات قومه قد اجتمعوا، وقد انتزع الملك منهم أموالهم، وهم لا يستطيعون دفعه عنها لكثرة جموعه؛ فصاح بهم صالح صيحة أزعجتهم، وألقى الله الرعب في قلوبهم، واستنقذ منهم جميع ما أخذوه من قومه .

فعجب جندع وأصحابه منه، وأقبلوا يقبلون صالحا ويكرمونه؛ نخشى الملك على ملكه أن يعزلوه ويولوا صالح بن كانوه، فهم أن يقتله، ودس إليه جماعة من خواصه فدخلوا منزله، فأيدس الله أيديهم عنه، وأحرس ألسنتهم؛ فعلم الملك أنه معصوم، فبعث يسأله فيهم؛ فدعاهم، فأطلق الله أيديهم وألسنتهم، وبقي صالح مكرما معظما في قومه .

ذكر مبعثه — عليه السلام —

قال : ولما أتى عليه أربعون سنة بعثه الله — عز وجل — رسولا إلى قومه؛ بجاءه جبريل بالوحي عن الله، وأمره أن يدعوهم إلى قول ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ والإقرار بأن صالحا عبده ورسوله، وترك عبادة الأصنام، وأعلمه بما سيظهر على يديه من العجائب .

قال : فأقبل صالح إلى قومه في يوم عيد لهم وقد نصبوا أصنامهم واجتمعوا على يمينها وشمالها، والملك جندع مشرف عليهم ينظر إليهم وإلى قربانهم؛ فتقدم حتى وقف على الملك وقال : قد علمت نصحي لك أبدا، وقد جئتكم رسولا أدعوك إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني صالح رسول الله . فقال الملك له : إن قبائل ثمود لا ترضى أن يكون مثلك رسولا إليهم، غير أني أنظر فيما تقول، فعد إلى غدا .

ثم أصبح الملك ودعا بأشراف قومه ، وأخبرهم بنحبر صالح ، فقالوا : أحضره حتى نسمع ما يقول . فأحضره فقال : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ فقال له نفر منهم : ﴿ يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ فقال له الملك : كيف خصك ربك بالرسالة من بيننا ، ورفعك علينا وفي قبائل ثمود من هو أعز منك ؟ فقال : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ثم قال : يا قوم اتقوا الله وأطيعون ، ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ ، أى أين ﴿ وَتَنَحَّيُونَ مِنَ الْجَبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ أى حاذقين ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

قال : فأقبل الملك عليهم وقال : قد عرفتم صالحا في حسبه ونسبه ، وأنا رجل منكم ، فما تقولون ؟ وما عندكم من الرأى فى أمره ؟ قالوا : أيها الملك ﴿ أَلَأَنْتَ الَّذِي كُرِّعَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرٌّ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشَرِّ ﴾ .

قال : فأمن به منهم جماعة ، وخرج صالح من عند الملك ، فأمره الله تعالى أن يبنى مسجدا لنفسه ولمن معه من المؤمنين ، فأعانتته الملائكة على بنائه ، فلما كمل جاءه جبريل بشجرة فغرسها على باب المسجد ، وأنبع الله له عينا من الماء العذب .

وكان صالح يخرج في كل يوم إلى قبيلة من قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى ويعظهم بأيام عاد وما حلّ بهم فيقول ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ فكان المستضعفون يقولون : ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ والمتكبرون يقولون : ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ .

ولم يزل صالح يدعوهم حتى استكمل سبعين عاما ، ثم أعقم الله نساءهم وجفت أشجارهم فلم تثمر ، ولم تضع لهم بقرة ولا شاة .

ثم لم يزل يدعوهم حتى استكمل مائة سنة وهم لا يزدادون إلا كفرًا ، فلما آيس منهم خرج يريد أن يدعو عليهم بالهلاك ، وقال لقومه : لا تبرحوا حتى أعود إليكم . وقصد جبلا فطاف به حتى أمسى ، فنظر إلى عين ماء ، فتقدم وتوضأ وقام ليصلي ويدعو على قومه ، فرأى في الجبل كهفا ، فدخله فرأى فيه سريرا من الذهب ، عليه فرش الحرير ، وفي وسط الكهف قنديل ، فعجب من ذلك ، وصعد على السرير ، فضرب الله على أذنه فنام أربعين سنة ، وأخذ قومه في العبادة ، فكان يموت منهم الواحد بعد الواحد ، فيدفن إلى جانب المسجد ، ويكتب على قبره : « هذا فلان بن فلان » .

قال : ثم بعث الله - عز وجل - صالحا من نومه ، فخرج من الكهف وتوضأ وصلى ركعتين ، وأراد أن يدعو على قومه ، فقيّل له : لا تعجل عليهم ، فإن عجلتك غيبتك عن قومك أربعين سنة .

فعاد إلى قومه ، وإذا برسوم وآثار لا يعرفها ، وأشرف على مسجده وهو خراب ليس فيه إلا الملائكة يحفظونه من فساق أهل ثمود ، فقال : إلهي ما فعل

أهل هذا المسجد ؟ فنادته الملائكة : مات بعضهم ورجع الباقون إلى دينهم الأول لما أيسوا منك .

ثم أمره الله تعالى أن يأتي قومه ويدعوهم إلى عبادة الله والكف عن عبادة الأصنام ؛ فأقبل وهم مجتمعون في يوم عيدهم ومعهم ملكهم ، فناداهم : قولوا (لا إله إلا الله و إني صالح رسول الله) يا قوم إني أرسلت إليكم مرة وهذه أخرى .

فتحيروا وتساقطت أصنامهم ، ونطقت الدواب : جاء الحق من ربنا . قال له الملك : من أنت ؟ قال : أنا صالح . قال : أليس قد بقي صالح فينا طويلا وغاب عنا منذ مدة طويلة ؟ ما أنت إلا ساحر جئتنا بعده . وهم بقتله .

١٠ وكان للملك ابن عم يقال له : هذيل ، فقال : يا صالح ، لا نحتاج إلى نصحك فانصرف عنا . فقال : يا هذا أما إنك ميت في يومك هذا أنت وأهلك وولدك في وقت كذا وكذا ، وفي غد يموت أبوك وأهلك ، فبادر إلى الإيمان ، فإن آمنت أحياك الله وجعلك حجة على قبائل ثمود .

١٥ فأنصرف الرجل وهم ينظرون إلى الوقت الذي ذكره صالح ؛ فلما جاء الوقت مات الرجل وأهله وولده ، وانتشر الخبر في قبائل ثمود ، ومات أبوه وأمه من الغد ؛ فعجب الناس وجزعوا ، وخاف الملك .

وأقبل صالح فقال : يا آل ثمود ، كيف كان هذا الميت عندكم ؟ قالوا : خير رجل حتى مات . قال : فإن أحياء الله بدعائي ، أتؤمنون بي وبإلهي وتبرأون من أصنامكم ؟ قالوا : نعم . فجاء صالح إلى الميت فدعا ربه ، ثم ناداه باسمه فقال : لييك يا نبي الله ، وقام وهو يقول : (لا إله إلا الله صالح عبد الله ورسوله) .

فلما عاين قومه ذلك ازدادوا كفرا ، ودخلوا على صنمهم وشكوا ما يلقونه من صالح ؛ فنطق إبليس من جوفه وقال : انصرفوا إلى ما أنتم عليه ؛ وإذا رأيتم صالحا فقولوا : اثنتا برهان كما أتى به هود ونوح .

نخرجوا مسرورين حتى أتوا صالحا ، فقال لهم : قد رأيتم وسمعتم كلام الوحش والطير وإحياء الموتي وغير ذلك من الآيات ما فيه كفاية ، فأى آية تريدون ؟ قالوا : نخرج نحن وأنت إلى هذا الوادى ، وندعو وتدعو ، وننظر أى الدعوتين تستجاب ؛ وتواعدوا إلى يوم عيدهم .

فلما كان فى ذلك اليوم اجتمعوا وخرجوا بأصنامهم وزينتهم ؛ وأقبل صالح يخرق صفوفهم ؛ حتى وقف أمام ملكهم ، ودعاهم إلى الإيمان بالله . قالوا : أرنا آية . قال : ما تريدون ؟ قالوا : أخرج لنا ناقة من هذه الصخرة وتؤمن بك ونعلم أنك صادق . قال : إن ذلك هين على ربى ، ولكن صفوفها لى .

فأقبل القوم يصف كل منهم صفة حتى أكثروا . فقال الملك : إن هؤلاء قد أكثروا وأنا أصفها بما فى قلبى : تكون ناقة ذات فرث ودم ولحم وعظم وعصب وعروق وجلد وشعر يخالطه وبر ، وتكون شكلاء^(١) شقراء هيفاء ، ولها خرع كأكبر ما يكون من القلال ، يدر من غير أن يستدر ، يشخب لبنا غزيرا صافيا ، ويكون لها فصيل يتبعها على مثلها ، فإذا رغت أجابها بمثل رُغائها ، ويكون حنينها الإخلاص لربك بالتوحيد ، والإقرار لك بالنبوة ، فإن أخرجتها على هذه الصفة آمنا .

فأوحى الله إليه : أن أعطهم ما سألوا . فقال لقومه : إن الله قد شفعنى فى حاجتكم ، فإن أخرجتها تؤمنون ؟ قالوا : نعم ، على شرط أن يكون لبنها ألد

(١) شكلاء ، أى فى لونها بياض مختلط بحمرة .

من الخمر وأحلى من العسل . قال : إن أخرجها ربّي تؤمنون ؟ قالوا : نعم
على شرط أن يكون لبنها في الصيف باردا ، وفي الشتاء حارّا ، لا يشربه مريض
إلا برئ ، ولا فقير إلا آستغنى . قال : إن أخرجها ربّي أتؤمنون ؟ قالوا : نعم ، على
شرط ألا ترعى من مراعيها ، بل في رؤوس الجبال وبطون الأودية ، وتذر ما على
الأرض لمواشيها . قال : إن أخرجها ربّي أتؤمنون ؟ قالوا : نعم ، على شرط أن
يكون الماء لنا يوما ولها يوما ، ولا يفوتنا اللبن ، وتدخل علينا بالعشيات في بيوتنا
وتسمّى كلّ واحد منا بأسمه ، وتنادى : « ألا من أراد اللبن » ؟ فيخرج ويضع
ما يريد تحت ضرعها ، فيحتلّ لبنا من غير احتلاب . قال أتؤمنون حقيقة ؟ قالوا :
نعم . قال صالح : قد شرطتم شرائط كثيرة ، وأنا أشرط عليكم : لا يركبها أحد
منكم ، ولا يرميها بحجر ولا سهم ، ولا يمنعها من شربها ولا فصيلها .

قالوا : هذا لك يا صالح . فأخذ عليهم المواثيق .

ذكر خروج الناقة

قال : فلمّا انتهت شروطهم وشروطه ، وأخذ عليهم المواثيق ، قام وصلى
ركعتين ، ودعا ، فأضطربت الصخرة وتمخّضت ، وتفجّر من أصولها الماء ، والقوم
ينظرون ، وسمعوا دويّا كدوى الرعد ، فرفعوا رؤوسهم ، فإذا بقبة تنقّض من الهواء
فأنحدرت على الصخرة وحولها الملائكة ، ثم تقدّم صالح إلى الصخرة فضربها بقضيب
كان بيده ، فأضطربت وتشاخحت صُعُدا ، ثم تطامنت إلى موضعها ، ثم خرج رأس
ووثبت من جوفها على الصفة كأنها قطعة جبل ، فوقف بين يدي الملك وقومه
وهي أحسن ممّا وصفوا ، وهي تنادى : (لا إله إلا الله ، صالح رسول الله) .

ثم مر جبريل على بطنها بحربة ، فخرج فصيلها على لونها .

(٣٤)

ثم نادى : « أنا ناقة ربّي ، فسبحان من خلقني وجعلني آية من آياته الكبرى » .
 فلما رأى الملك ذلك قام عن سريره وقبل رأس صالح ، وقال : يا معشر قبائل
 ثمود ، لا عمى بعد الهدى ، أنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن صالحا رسول الله .
 وآمن معه في ذلك اليوم خلق كثير من أهل مملكته وغيرهم ؛ فلما رأى داود
 خادماً الأصنام ذلك نادى بصوت رفيع : يا آل ثمود ، ما أسرع ما صبوتم إلى هذا
 الساحر ، إن كانت الناقة قد أعجبتكم فهلموا إلى آلهتكم فسلوها حتى تُخرج لكم
 أحسن منها .

فوقفوا عن الإيمان ، وعمدوا إلى شهاب أخ الملك ، فلكوه عليهم ؛ ودخل
 جندع المدينة فكسر الصنم الذي كان يعبد ، وفترق أمواله على المؤمنين ، ولبس
 الصوف ، وعبد الله حقّ عبادته ، وكانت الناقة تتبع صالحا كاتّباع الفصيل لأمه ؛
 فلما كان بعد ذلك أقبلت ثمود على صالح ، وقالوا : إن لم نمسّ الناقة بسوء يصرف
 ربك عنا عذابه ؟ قال : نعم ، إلى منتهى آجالكم . وكانت الناقة تخرج وفصيلها
 خلفها ، فتصعد إلى رؤوس الجبال ، ولا تمر بشجرة إلا ألقت عليها أغصانها
 فتأكل أطيب أوراقها ؛ ثم تهبط إلى الأودية فترعى هناك ، فإذا أمست تدخل المدينة
 وتطوف على دور أهلها ، وتنادى بلسان فصيح : ألا من أراد منكم اللبن فليخرج .
 فيخرجون بأنيتهم ، فيضعونها تحت ضرعها ، واللبن يشخب حتى تمتلئ الآنية ؛
 فإذا اكتفوا عادت إلى المسجد ، وتسبح الله حتى تصبح ؛ ثم تخرج إلى المرعى
 وهذا دأبها .

قال : وكان للقوم بئريشربون منها ليس لهم سواها ، فإذا كان يوم الناقة تأتي
 وتدلّي رأسها فتشربه وتقول : « الحمد لله الذي سقاني من فضل مائه ، وجعلني حجة

وكانت تُمَجُّج من فيها إلى فم الفصيل حتى يروى ؛ فإذا كان يوم القوم أتوا البئر ونزحوا ما فيها ؛ وكانت الناقة تقول إذا أصبحت : إلهى كل من شرب من لبنى وآمن بك وبرسولك فزده إيمانا و يقينا ، ومن لم يؤمن بك وبرسولك فأجعل ما يشرب من لبنى فى بطنه داء لا دواء إنك على كل شىء قدير .

ذكر خبر عقر الناقة وهلاك ثمود

- قال : فلما كانت تدعو بذلك صار القوم إذا شربوا لبنها أعترتهم الحكة فى أبدانهم ، فأجتمعوا وقالوا : ليس لنا فى هذه من خير ؛ وأجمعوا على عقرها ؛ وكانت فيهم امرأة يقال لها : عُنَيْزَة بنت غُثَم بن مجلز ، وتكنى أم غُثَم ، وهى من بنات عبيد بن المهمل ، وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو ، وهى عجوز مسنة ، ولها أموال ومواش ، ولها أربع بنات من أجمل النساء ، ويجوارها امرأة يقال لها : صَدُوف بنت المحيّا بن فهر ، ولها أيضا مواش كثيرة ؛ فدعّتا قومهما إلى عقر الناقة ، فلم يجيبوهما إلى ذلك ؛ فبينما صَدُوف كذلك إذ مرّ بها رجل يقال له الجباب — وكان مولعا بالنساء — فعرضت نفسها عليه على أن يعقر الناقة ؛ فأمتنع ، فقالت له : لقد جبن قلبك ، وقصرت يدك . وتركته ؛ وأقبلت على ابن عم لها يقال له : مُصَدِّع فكشفت عن وجهها ، وعرضت نفسها عليه على أن يُصَدِّقها عقر الناقة ؛ فأجاب . وأقبلت صَدُوف إلى عُنَيْزَة فأخبرتها بذلك ، ففرحت به . قالت : إلا أنه منفرد ، ولكن قومى إلى عزيز ثمود قُدَّار ، فإنه شاب لم يتزوج ، فأعرضى عليه بناتك

- (١) كذا ورد هذا الاسم فى تفسير الطبرى ج ٨ ص ١٦٠ . والذى فى الأصول : « مخلد » .
 (٢) كذا ورد هذا الاسم فى تفسير الطبرى . والذى فى الأصول : « العند » .
 (٣) كذا ورد هذا الاسم فى تاريخ العيني فى النسخة المنقولة عن نسخة المؤلف .
 (٤) كذا ورد هذا الاسم فى تفسير الطبرى . والذى فى الأصول : « الجباب » .
 (٥) كذا ضبط هذا الاسم بالقلم فى تاريخ العيني فى النسخة المنقولة عن نسخة المؤلف .

لعله يفعل ؛ ففعلت عُنيزة ذلك ، وزينت بناتها ، وأقبلت بهنَّ إلى قُدار ، وكان أقبح رجل في ثمود ، وكان في عينيهِ زُرقة ، وكأنتهما عدستان ، وأنفه أفتس ولحيته بطوله ، غير أنه كان يمرُّ بالشجرة العظيمة فينطحها برأسه فيكسرها ؛ فلما رآته عُنيزة رجعت بناتها إلى صَدوف ، وقالت : من تطيب نفسه أن يزوج مثل هؤلاء من هذا؟ فلم تزل بها حتى رجعت بهنَّ إليه ، وعرضتهنَّ عليه ؛ فأختار منهنَّ (الرباب) ، وأجاب إلى عقر الناقة ، وأجتمع إليه ^(١) مصدع وأخوه ورعين وداود ^(٢) خادم الأصنام وريان وليد والمصدر وهزَّيل ومفترج ^(٣) فهؤلاء التسعة الذين ذكرهم الله في كتابه ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ .

فطافوا بأجمعهم على قبائل ثمود وأعلموهم بما أجمعوا عليه من عقر الناقة ؛ فرضى بذلك كبيرهم وصغيرهم ، وأجتمع هؤلاء التسعةُ بسيوفهم وقسيهم ، وذلك في يوم الأربعاء ، وقعدوا ينتظرون الناقة ، فأقبلت حتى قربت من البئر ؛ فنادت عُنيزة : يا قدار ، اليومَ يومُك ، فأنت السيد في قومك . قال الله : ﴿ فَنادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ .

قال : فشَدَّ قُدار قوسه ورماها بسهم فأصاب لَبَّتَهَا ، وهو أول من رماها ، ثم مِصدَع ، وأقبلوا عليها بالسيوف فقطعوها ، وأذرت فصيلها ، فهرب إلى رأس جبل ، ودعا باللعنة على ثمود ، فأتبعه القوم وعقروه ، وتقاسموا لحمه .

(١) في كتاب الكسائي « وآخر اسمه حراب » . (٢) كذا ورد هذا الاسم مضبوطا بالقلم

في تاريخ العيني في النسخة المنقولة عن نسخة المؤلف . وفي الأصول : « دعبل » . (٣) كذا

ورد هذا الاسم بالزاي في الأصول وتاريخ العيني مضبوطا بالقلم في الأخير . (٤) يلاحظ أن هذه

الأسماء الثمانية قد اختلفت فيها الروايات والمصادر اختلافاً بينا لم يجعل بينها تقارباً في رسم الحروف .

وحكى الثعلبيّ في كتابه المترجم (بيواقيت البيان في قصص القرآن) : أن الفصيل لما عُقرت الناقة أتى جبلا منيعا يقال له : صور^(١) . وقيل : اسمه فارِه ؛ وأن صالحا لما بلغه عقر الناقة أقبل إلى قومه ، نخرجوا يتلقّونه ويعتذرون إليه ويقولون : إنّما عقرها فلان وفلان ، ولا ذنب لنا .

- فقال لهم صالح : أنظروا ، هل تدركون فصيلها ؟ فعسى أن تدركوه فيرفع عنكم العذاب . نخرجوا يطلبونه ، فلما رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه ، فأوحى الله تعالى إلى الجبل أن يتناول ؛ فتناول في السماء حتى ما يناله الطير ؛ وجاء صالح ، فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ؛ ثم دعا ثلاثا فانفجرت الصخرة حتى دخلها ؛ فقال صالح : بكلّ دعوة أجل يوم فتمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعدٌ غير مكذوب .
- نرجع إلى رواية الكسائي ، قال : وصاح قُدار بأصحابه : هلمّوا . فقدموا فأمرهم أن يقطعوا لحم الناقة ؛ فقطعوا وطبخوا وقعدوا للأكل والشرب ، وصالح لا يعلم بذلك ، فنادته الوحوش : يا صالح ، هتكت ثمود حرمة ربّها ، وتعدّوا أمره . فأقبل بالمؤمنين من قومه ؛ فلما رآها بكى وقال : إلهي أسألك أن تنزل على ثمود عذابا من عندك .

- فأوحى الله إليه : أن أنذر قومك بالعذاب . فبشّرهم بعذاب الله . فقالوا له : افعَل ما بدا لك ، فقد عقرناها ، وقد أنذرت بالعذاب منذ بعيد وما نرى له أثرا . فقال لهم : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ . وبات القوم ليلتهم ، فلما أصبحوا تفجّرت آثار وطاء الناقة بعيون الدم ، وظهرت الصفرة في ألوانهم ؛ فقالوا : يا صالح ، ما هذا التغير في ألواننا وبلادنا ؟ قال :

غَضِبَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ . فَأَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِهِ ، وَقَالُوا : إِذَا قَتَلْنَاهُ أَمْتَنَعَ عَنَّا سَحَرَهُ
وَلَا تُمَكِّنُهُ الْإِسَاءَةُ إِلَيْنَا . فَتَقَدَّمَ التَّسْعَةُ لِقَتْلِهِ عِنْدَ مَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ ، فَوَقَفَ لَهُمْ جَبْرِيلُ
وَرَمَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِحِجَرٍ فَقَتَلَهُ .

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ نَظَرَتْ ثُمُودٌ إِلَيْهِمْ وَقَدْ قُتِلُوا ، فَقَالُوا : هَذَا مِنْ فِعْلِ صَالِحٍ .
فَعَزَمُوا عَلَى الْمَهْجُومِ عَلَيْهِ وَقَتْلِهِ ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْخُرُوجِ مِنَ الْمَسْجِدِ ، بِخَاءٍ وَلِيَقْتُلُوهُ
فَمَا رَأَوْهُ ، وَأَصْبَحُوا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَقَدْ أَحْمَرَّتْ وَجُوهُهُمْ ، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ
أَسْوَدَّتْ ، فَأَيَقَنُوا بِعَذَابِ اللَّهِ ، وَحَفَرُوا لَأَنْفُسِهِمْ حَفَائِرَ ، وَلِأَهْلِيهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ
وَلَبَسُوا الْأَنْطَاعَ ، وَجَلَسُوا فِي الْحَفَائِرِ يَنْتَظِرُونَ الْعَذَابَ ، وَصَالِحٌ يَخُوفُهُمْ وَيَنْذَرُهُمْ
عَذَابَ اللَّهِ وَهُمْ لَا يَبَالُونَ بِهِ .

فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ — وَهُوَ صَبِيحَةُ الْأَحَدِ — أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى جَبْرِيلَ فَنَشَرَ
جَنَاحَ غَضَبِهِ ، وَأَتَاهُمْ بِشَرَارَةٍ مِنْ نَارٍ لَظَى ، وَجَعَلَ يَرْمِيهِمْ مِنْهَا بِحِجَرٍ مُتَوَهِّجٍ كَأَمْثَالِ
الْجِبَالِ ، وَثُمُودَ بَارَكَةَ فِي حَفَائِرِهَا .

وَأَخَذَ جَبْرِيلُ بِتُخُومِ الْأَرْضِ ، فَزَلَزَتْ بَيْوتَهُمْ وَقُصُورَهُمْ ، ثُمَّ نَشَرَ جَنَاحَ غَضَبِهِ
عَلَى دِيَارِ ثُمُودَ ، وَصَاحَ صَبِيحَةً ، فَكَانُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ .

ثُمَّ أَقْبَلَتْ سَحَابَةٌ سَوْدَاءَ عَلَى دِيَارِهِمْ ، فَرَمَتْهُمْ بِوَهْجِ الْحَرِيقِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ حَتَّى
صَارُوا رَمَادًا .

فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ أَنْجَلَتْ السَّحَابَةُ وَطَلَعَتِ الشَّمْسُ ، وَجَاءَ صَالِحٌ
بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَطَافَ بِدِيَارِهِمْ ، وَأَحْتَمَلُوا مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ
وَأَرْتَحَلَ بِقَوْمِهِ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ ، فَتَزَلَّ بِأَرْضِ فَلَسْطِينَ ، وَأَقَامَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ —

الباب السابع من القسم الأول من الفن الخامس

في أخبار أصحاب البئر المعطلة والقصر المشيد

وما كان من أمرهم وهلاكهم

قال الكسائي : قال كعب : لما قبض الله تعالى نبيه صالحا عليه السلام بأرض

- فلسطين ، نخرج أصحابه إلى بلاد اليمن فتفرقوا فرقتين : فتزلت إحداهما بأرض
عَدَن ، وهم أصحاب البئر المعطلة ، والثانية صارت إلى (حضرموت) (والقصر
المشيد) وهو قبل البئر ، والذي بناه رجل يقال له : جند بن عاد ، وذلك لأنه رأى
ما نزل بقوم هود من الريح ، فعزم على بناء قصر مشيد ، فبالغ في تشييده ، وانتقل
إليه ، وكان له قوة عظيمة ، فكان يقطع الشجرة ، ويمر بيده في الجبل فيخرقه
وكان مولعا بالنساء ، فتزوج زيادة عن سبعمائة امرأة ، ورزق من كل امرأة ذكرا
وأُنثى ، فلما كثر ولده وقومه طغى في الأرض وتجبر ، وكان يقعد في أعلى قصره مع
نسائه فلا يمر به أحد إلا أمر بقتله ؛ فلما كثر فساد أهله الله بصيحة جبريل
جاءته من قبل السماء فأهلكته هو وأولاده وقومه .

قال الكسائي : ولا يجسر أحد أن يدخل إلى القصر مما نزل بسكانه .

- قال : ويقال : إن فيه حية عظيمة ، وإنه يُسمع من داخله أنين كأنين المريض .
وأما البئر المعطلة — فهي بأرض عَدَن ، وكان أهلها على دين صالح ، وكان
المطر ينقطع عنهم في بعض الأوقات حتى يبلغ بهم الجهد ، فيحملون الماء من بلد
بعيد ، فأعطاهم الله تعالى هذه البئر على ألا يُشركوا به شيئا ، ويعبدوه حق عبادته
وكانوا معجبين بها ، قد بنوها بألوان الصخور ، وبنوا حولها حياضا بعدد قبائلهم ؛
وكان لهم ملك يسوسهم ، فلما مات حزِنوا عليه حزنا عظيما ، فأقبل عليهم إبليس وقال :

ما بالكم بهذا الحزن ؟ قالوا : كيف لا نكون كذلك وقد فقدنا مَلِكَنَا مع إحسانه إلينا . قال : إنه لم يمت ، ولكنه احتجب عنكم لغضبه عليكم ، ولكونكم لم تعبدوه . وأنطلق إبليس فآخذ لهم صنما على صورة الملك ، ونصبه على سريره ، وقال : هلموا إلى الملك فاسمعوا كلامه .

فأقبلوا حتى وقفوا من وراء السّتر ، ووقف إبليس في جوف الصنم شيطانا يكلمهم بلغة لا ينكرون أنها لغة الملك ؛ ثم قال إبليس : اسمعوا . فكلمهم الشيطان من الصنم وقال : يا آل ثمود ، ما لي أراكم تبكون ؟ قالوا : لفقدك . قال : قد كذبتكم ، لو كنتم تحبوني كما تقولون كنتم عبدتموني ، وقد كنت فيكم أربعمئة سنة ما فيكم من سجد لي سجدة واحدة ، والآن فقد ألبسني ربّي ثوب الألوهية ، فصيرني فيكم لا آكل ولا أشرب ولا أنام ، وأخبركم بالغيوب ، فأعبدوني وسموني ربّا ، فإني أقربكم إلى ربّي زُلْفَى .

قالوا : يا أيها الملك ، فلورأينا وجهك . فرفع إبليس الحجاب حتى رأوه فلم ينكروا من صفاته شيئا ، نخروا له سجّدا ، وآخذوه ربّا ، وكان فيهم رجل من خيار قوم صالح اسمه حنظلة بن صفوان ، ففارقهم ولحق بالحرم ، وعبد الله حينما فرأى في منامه قائلا يقول له : قد أمرك ربك أن تصير إلى قومك وتحذّرهم عذابه إن لم يرجعوا عن عبادة الأصنام ، وتذكّرهم العهود في البئر ، وإن لم يؤمنوا غار ماء البئر حتى يموتوا عطشا .

فانتبه وخرج من ساعته حتى أتى قومه ، فأنذرهم ووعظهم ، فهمموا بقتله فعطل الله تعالى برهم حتى لم يجدوا فيها قطرة ، فأتوا إلى صنمهم فلم يكلمهم ، وأنتهم صيحة من السماء ، فهلكوا عن آخرهم .

ويقال : إنّ سليمان صَفَّدَ شياطين وحبسهم بهذه البئر ، والله أعلم .

الباب الثامن من القسم الأول من الفن الخامس

في خبر أصحاب الرس وما كان من أمرهم

قال الكسائي : قال كعب : إن أصحاب الرس كانوا بحضرموت ، وكانوا كثيرا ، فبنوا هناك مدينة كانت أربعين ميلا في مثل ذلك ، فأحتفروا لها القنوات من تحت الأرض ، وسموها رسا ، وكان ذلك أيضا اسم ملكيهم ؛ فأقاموا في بلدهم دهرا طويلا يعبدون الله تعالى حق عبادته ؛ ثم تغيروا عن ذلك وعبدوا الأصنام وكان مما أحدثوه إتيان النساء في أدبارهن والمبادلة بهن ، فكان كل منهن يبعث بامرأته إلى الآخر ، فشق ذلك على النساء ، فأتاهن إبليس في صورة امرأة وعلمهن السحاق ففعلنه ، وهم أول من أتى النساء في أدبارهن وساحق ؛ فأشتهرت هذه القبائح فيهم .

فبعث الله إليهم رسولا اسمه حنظلة . وقيل : خالد بن سنان . وقيل : ابن صفوان . فدعاهم إلى طاعة الله ، ونهاهم عن عبادة الأصنام وفعل القبائح وحذرهم وذكرهم ما حل بمن قبلهم من الأمم ؛ فكذبوه ؛ فوعظهم دهرا طويلا وهم لا يرجعون ، فضر بهم الله بالقحط ، فقتلوا نبيهم وأحرقوه بالنار ؛ فصاح بهم جبريل صيحة فصاروا حجارة سودا ، وخسفت مدينتهم .

وقيل : إن هذه المدينة لم يرها إلا ذو القرنين ، وإنه رآهم حجارة ، ورأى النساء ملتصقات ببعضهن ببعض ، ورأى الملوك على الأسرّة وبين أيديهم الجنود قائمة ، بأيديهم الأعمدة والأسلحة ، وقد صاروا كلهم حجارة سودا . هذا ما حكاه الكسائي .

وقال أبو إسحاق الثعلبي — رحمه الله تعالى — قال سعيد بن جبير والكلبي



.....

أصحاب الرس : أنهم بقية ثمود وقوم صالح ، وهم أصحاب البئر التي ذكرها الله تعالى في كتابه ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ .

قال : وكانوا بفالج اليمامة نزولا على تلك البئر .

وكل ركية لم تطو بالحجارة والآجر فهي رس ؛ وكان لهم نبي يقال له : (حنظلة ابن صفوان) . وكان بأرضهم جبل يقال له : (فلج) مُصْعِد في السماء ميلا وكانت العنقاء تأتيه ، وهي أعظم ما يكون من الطير ، وفيها من كل لون ، وسموها العنقاء لطول عنقها ، وكانت تكون في ذلك الجبل وتنقض على الطير فتأكلها فجاءت ذات يوم وأعوّزها الطير ، فأنقضت على صبي فذهبت به ، فسميت عنقاء مغرب ، لأنها تغرب بما تأخذه وتذهب به ، ثم أنقضت على جارية حين ترعرعت فأخذتها فضمتها إلى جناحين لها صغيرين سوى الجناحين الكبيرين ، فشكوا ذلك إلى نبيهم ؛ فقال : اللهم خذها وأقطع نسلها ، وسلط عليها آفة تذهب بها . فأصابتها صاعقة فأحترقت ، فلم ير لها أثر بعد ذلك .

قال : ثم إن أصحاب الرس قتلوا نبيهم ، فأهلكهم الله تعالى .

قال الثعلبي : وقال بعض العلماء : بلغني أنه كان رسّان : أما أحدهما فكان أهله أهل بذر وعمود ، وأصحاب غنم ومواش ، فبعث الله إليهم نبيا فقتلوه ، ثم بعث الله رسولا آخر وعضده بولي ، فقتلوا الرسول ، وجاهدتهم الولي حتى أخمهم ؛ وكانوا يقولون : إلهنا في البحر . وكانوا على سفير البحر ؛ وكان يخرج إليهم من البحر شيطان في كل شهر خرقة فيذبحون عنده ، ويتخذون ذلك اليوم عيداً ؛ فقال لهم الولي : أرأيتم إن خرج إلهكم الذي تدعون وتعبّدونه إلى وأطاعني أتجيّبوني إلى ما دعوتكم إليه ؟ قالوا : بلى . وأعطوه على ذلك اليهود والمواثيق ، فانتظر حتى خرج ذلك الشيطان على صورة حوت راكبا على أربعة أحوات ، وله عنق

منقلب ، وعلى رأسه مثل التاج ؛ فلما نظروا إليه خرّوا سجّداً ، وخرج الوليّ إليه وقال : ائتني طوعاً أو كرها باسم الله الكريم .

فنزل عند ذلك عن أحواته ؛ فقال له الوليّ : ائتني راكباً لئلا يكون القوم في شك . فأتى الحوت وأتت به الحيتان حتى أفضوا إلى البرّ يجزونهم ويحترهم ؛ ثم كذبوه بعد ما رأوا ذلك ، ونقضوا العهود ؛ فأرسل الله تعالى عليهم ريحا تقذفهم في البحر ومواشيهم وما كانوا يملكون من ذهب وفضّة وآنية ؛ فأتى الوليّ الصالح إلى البحر حتى أخذ التبر والفضّة والأواني ، فقسمها على أصحابه بالسوية على الصغير والكبير ، وانقطع ذلك النسل .

وأما الرّسّ الآخر — فهم قوم كان لهم نهر يدعى الرّسّ ، وذلك النهر بمنقَطع أَذَرِيجان ، بينهما رَسٌّ أرمينية ، فإذا قطعت مدبراً دخلت في حدّ أرمينية وإذا قطعتة مقبلاً دخلت في حدّ أَذَرِيجان ، وكان من حولهم من أهل أرمينية يعبدون الأوثان ، ومن قدامهم من أهل أَذَرِيجان يعبدون النيران ، وكانوا هم يعبدون الجوارى العذارى ، فإذا تمت لإحداهن ثلاثون سنة قتلوها وأستبدلوا غيرها ، وكان عرض نهرهم ثلاثة فراسخ ، وكان يرتفع في كلّ يوم وليلة حتى يبلغ أنصاف الجبال التي حوله ، ولا ينصبّ في برّ ولا بحر ، وإذا خرج من حدّهم يقف ويدور ثم يرجع إليهم ، فبعث الله إليهم ثلاثين نبياً في شهر واحد ، فقتلوه جميعاً فبعث الله إليهم نبياً وأيده بنصره ، وبعث معه ولياً ، فجاهدهم في الله حقّ جهاده .

ثم بعث الله تعالى ميكائيل حين نابذوه — وكان ذلك في أوان وقوع الحبّ في الزرع ، وكانوا إذ ذاك من أحوج ما يكون إلى الماء — فبحر^(١) نهرهم في البحر

فانصب ما في أسفله ، وأما عيونه من فوق فسدها ، ثم بعث الله تعالى خمسمائة ألف ملك من الملائكة أعوانا له ، ففترغوا ما بقي في نهرهم .

ثم أمر الله تعالى جبريل فنزل فلم يدع في أرضهم عينا ولا نهرا إلا أيبسه بإذن الله تعالى .

وأمر ملك الموت فأنطلق إلى المواشي فأماتها في ربضة واحدة .

وأمر الرياح الأربع : الجنوب والشمال والدبور والصبأ فضمت ما كان لهم من متاع ، وألقى الله تعالى عليهم السُّبَّات .

ثم خفقت الرياح الأربع بذلك المتاع أجمع فشئتته في رؤوس الجبال وبطون الأودية .

وأمر الله الأرض فأبتلعت ما كان لهم من حلى وتبر وآنية ، فأصبحوا لا ماشية

(٣٨)

عندهم ولا بقر ولا مال يرجعون إليه ولا ماء يشربون ولا طعام يأكلون ، فأمن بالله تعالى عند ذلك قليل منهم ، وهداهم الله تعالى إلى غار في الجبل له طريق إلى خلفه ، فنجوا ، وكانوا أحدا وعشرين رجلا وأربع نسوة وصبيين ، وكان عدة الباقين من الرجال والنساء والذراري ستمائة ألف ، فماتوا عطشا وجوعا ، ولم تبق منهم باقية .

ثم عاد القوم إلى منازلهم فوجدوها قد صار أعلاها أسفلها ، فدعا القوم عند ذلك مخلصين أن يحييهم الله تعالى بماء وزرع وماشية ، وأن يجعل ذلك قليلا لئلا يطغوا . فأجابهم الله تعالى إلى ذلك ، وأطلق لهم نهرهم ، وزادهم على ما سألوه .

فأقام أولئك القوم على طاعة الله تعالى باطنا وظاهرا حتى مضوا وأنقرضوا ، فحدث من بعدهم من نسلهم قوم أطاعوا الله تعالى في الظاهر ، ونافقوا في الباطن ،

وأمر الله تعالى لهم ، ثم بعث الله عليهم عدوهم ممن قاربهم وخالفهم ، فأسرع فيهم القتل ، وبقيت منهم شردمة ، فسلط الله عليها الطاعون ، فلم يبق منهم باقية وبقى نهرهم ومنازلهم مائتي عام لا يسكنها أحد .

- ثم أتى الله بعد ذلك بقرن فزلوها وكانوا صالحين سنين ، ثم أحدثوا فاحشة وجعل الرجل منهم يدعو أخته وأخته وزوجته فيلقى بهن جاره وأخاه وصديقه .
 يلتبس بذلك البر والصلة ، ثم ارتفعوا عن ذلك إلى نوع آخر ، ترك الرجال النساء حتى شبقن ، وأشتغلن عن الرجال ، فجاءت النساء شيطانة في صورة امرأة — وهي الولهانة بنت إبليس — فشبهت للنساء ركوب بعضهن بعضا ، وعلمتهن كيف يصنعن ، فأصل ركوب النساء النساء منها ، فسلط الله تعالى على ذلك القرن صاعقة من أول ليلتهم ، وخسفا في آخر الليل ، وصيحة مع الشمس ، فلم تبق منهم باقية .
 وبادت مساكنهم .

قال الثعلبي : ولا أحسب مساكنهم اليوم مسكونة .

- وقال أبو إسحاق الثعلبي أيضا : وروى علي بن الحسين زين العابدين عن أبيه الحسين بن علي بن أبي طالب — رضى الله عنهم — أن رجلا من أشرف بني تميم يقال له : عمرو ، أتاه فقال : يا أمير المؤمنين ، أخبرني عن أصحاب الرس وأى عصر كانوا فيه ؟ وأين كانت منازلهم ؟ ومن كان ملكهم ؟ وهل بعث الله تعالى إليهم رسولا أولا ؟ وبماذا هلكوا ؟ فإني أجد في كتاب الله تعالى ذكرهم ولا أجد خبرهم .

فقال له : لقد سألتني عن حديث ما سألتني عنه أحد قبلك ، ولا يحدثك

كان من قصّتهم يا أخا تميم أنهم كانوا يعبدون شجرة صنوبر يقال لها :
 ساب درحب^(١) ، كان يافث بن نوح غرسها على شفير عين يقال لها : دوسات^(١)
 كانت أنبّطت لنوح بعد الطوفان ، وكان لهم اثنتا عشرة قرية على شاطئ نهر يقال له
 الرس من بلاد المشرق ، ولم يكن يومئذ في الأرض نهر أغزر ولا أعذب منه ولا قرى
 أكثر سكّانا وعمرانا منها ، وذلك قبل سليمان بن داود ، وكان من أعظم مدائنهم
 اسفيدبا^(١) ، وهي التي كان ينزلها ملكهم^(١) ، وكان يسمّى بركون بن عابور بن بلوش بن
 سارب بن الثمروذ بن كنعان ، وفيها العين والصنوبر ، وقد غرسوا في كلّ عين
 حبة من تلك الصنوبر ، فنبئت الحبّة وصارت شجرة عظيمة ، وحرّموا ماء تلك
 العيون والأنهار ، لا يشربون منها ولا أنعامهم ، ومن فعل ذلك منهم قتلوه
 ويقولون : هي مياه آلهتنا ، ولا ينبغي لأحد أن ينقص من حياتها ، ويشربون هم
 وأنعامهم من نهر الرس الذي عليه قراهم ، وقد جعلوا في كلّ شهر من السنة في كلّ
 قرية عيداً يجتمع أهلها ويضربون على تلك الشجرة مظلة من الحرير ، فيها من
 أصناف الصّور ؛ ثم يأتون بشياه وبقرف فيذبّحونها قربانا للشجرة ، ويشعلون فيها
 النيران ، فإذا سطع دخان تلك الذبائح وقُتارها وبخارها في الهواء ، وحال بينهم وبين
 النظر إلى السماء ، نحرّوا سجّداً ، ويتلون ويتضرّعون إليها أن ترضى عنهم .

وكان الشيطان يحىء فيحرك أغصانها ويصيح من ساقها صياح الصبي : عبادي
 قد رضيت عنكم ، فطيبوا نفوساً ، وقترّوا عينا . فيرفعون عند ذلك رؤوسهم ، ويشربون
 الخمر ، ويضربون بالمعازف ؛ فيكونون على ذلك يومهم وليلتهم ، ثم ينصرفون ؛ حتى
 إذا كان عيد قريتهم العظمى ، اجتمع إليه صغيروهم وكبريهم ، فضربوا عند الصنوبر

٢٠ (١) كذا وردت هذه الأسماء التي تحت هذا الرقم في جميع الأصول . ولم نقف فيما راجعناه من
 الكتب على ما نظمنا إليه في تصحيحها وضبطها ، على أن الكتب مختلفة في هذه الأسماء القديمة اختلافاً بيناً .

والعين سرادقا من ديباج ، عليه من أنواع الصُّور ، له اثنا عشر بابا ، كل باب لأهل قرية منهم ، ويسجدون للصنوبرة خارجا من السرادق ، ويقربون لها الذبائح أضعاف ما يقربون للأشجار التي في قراهم ، فيجىء إبليس عند ذلك فيحرك الشجرة تحريكا شديدا ، ويتكلم من جوفها كلاما جهورا ، ويعدهم ويمنيهم بأكثر مما وعدهم به الشياطين كلهم ، فيرفعون رؤوسهم من السجود وبهم من الفرح والنشاط ما لا يفيقون ولا يتكلمون [معه] ، فيداومون الشرب والعزف ، فيكونون على ذلك اثني عشر يوما بلياليها بعدد أعيادهم في السنة ، ثم ينصرفون ، فلما طال كفرهم بالله تعالى وعبادتهم غيره ، بعث الله إليهم نبيا من بني إسرائيل من ولد يهوذا بن يعقوب ، فلبث فيهم زمنا طويلا يدعوهم إلى الله تعالى ، ويعترفهم ربوبيته ، فلا يتبعونه ولا يسمعون مقالته ، فلما رأى شدة تماديهم في البغي والضلالة وتركهم قبول ما دعاهم إليه من الرشد والصلاح ، وحضر عيد قريتهم العظمى قال : يارب إن عبادك أبوا تصديقي ودعوتي لهم ، فما زادوا إلا تكذيي والكفر بك ، وغدوا يعبدون شجرة لا تنفع ولا تضر ، فأبى شجرهم أجمع ، وأرهم قدرتك وسلطانك .

فأصبح القوم وقد يبس شجرهم كله ، فهاهم ذلك وتضعضعوا ، فصاروا فرقتين : فرقة قالت : سحر هذا الرجل الذي زعم أنه رسول رب السماء ، ألهاكم ليصرف وجوهكم عنها إلى إلهه ، وفرقة قالت : بل غضبت آلهتكم حين رأت هذا الرجل يعيبها ويقع فيها ، ويدعوكم إلى عبادة غيرها ، فحجبت حسناتها وبهائها لكي تغضبوا لها ، فتنتصروا منه .

فأجمعوا رأيهم على قتله ، فآخذوا مثال بئر ، وآخذوا أنابيب طوالا من رصاص واسعة الأفواه ، ثم أرسلوها إلى قرار العين واحدة فوق الأخرى مثل البرانج ، ونزحوا

ماء العين ، ثم حفروا في قرارها بئرا ضيقة المدخل عميقة ، وأرسلوا فيها نبيهم ، وألقوا عليه فيها صخرة عظيمة ؛ ثم أخرجوا الأنايب من الماء وقالوا : الآن نرجو رضا آلهتنا عنا إذا رأيت أننا قد قتلنا من كان يقع فيها ، ويصد عن عبادتها .

فبقوا عاقبة يومهم يسمعون أنين نبيهم ، وهو يقول : سيدي ، ترى ضيق مكاني وشدة كربى ، فأرحم ضعف ركني وقلة حيلتي ، وتجمل قبض روحى ولا تؤخر إجابة دعوتى . حتى مات عليه السلام .

فقال الله تعالى لجبريل : انظر عبادى هؤلاء الذين غرهم حلمى ، وأمنوا مكربى ، وعبدوا غيرى ، وقتلوا رسولى ؛ وأنا المنتقم ممن عصانى ولم يخش عذابى وإنى حلفت بعزتى لأجعلنهم عبرة ونكالا للعالمين .

فبينما هم فى عيدهم إذ غشيتهم ريح عاصف حمراء ، فتجирوا وذعروا منها وأنضم بعضهم إلى بعض ، ثم صارت الأرض من تحتهم حجر كبريت يتوقد ، وأظلمت سحابة سوداء ، فألقت عليهم كالقبة حجرا يلهب نارا ، فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص فى النار ؛ نعوذ بالله من غضبه ودرك نقمته^(١) .

(١) « ودرك نقمته » ، أى لحاقها بنا .

القسم الثاني من الفن الخامس

في قصة إبراهيم الخليل — عليه الصلاة والسلام — وخبره مع نمروذ، وقصة لوط، وخبر إسحاق ويعقوب، وقصة يوسف وأيوب وذى الكفل وشعيب وفيه سبعة أبواب

- الباب الأول منه في قصة إبراهيم الخليل — عليه الصلاة والسلام — وخبر نمروذ بن كنعان .
- ولنبداً من هذه القصة بخبر نمروذ ، ثم نذكر قصة إبراهيم — عليه السلام — لتعلق قصته به ، لأن إبراهيم ولد في زمانه ، وآيته الكبرى معه .

ذكر خبر نمروذ بن كنعان

- ١٠ هو نمروذ بن كنعان بن كوش ، وهو أحد ملوك الدنيا الأربعة الذين ملكوا شرقها وغربها .

وقد ورد أنهم مؤمنان وكافران : فالمؤمنان سليمان بن داود والإسكندر ذو القرنين المذكور في سورة الكهف ، والكافران : شداد بن عاد ونمروذ ابن كنعان .

- ١٥ وقد قيل : بدل شداد بـنَحْتَصَّر .

قال الكسائي : قال وهب : لما أهلك الله تعالى أهل الرّسّ بالمسخ ومن تقدّمهم بما ذكرناه ، أنشأ قرونا آخرين ، فكان ممن أنشأ من ولد حام بن نوح كوش ابن قرظ بن حام ، وكان جباراً شديداً القوة عظيم الخلق ، له مخاليل كالسباع وهو الذي أنشأ كوثرانياً من أرض العراق ، وولد له بها ولد سماه كنعان ، وكان له

ولد أخريقال له : الهاص ؛ فلما مات كوش أستقل الهاص بالملك دون كنعان وأستقل كنعان بالصيد ، وولع به حتى ألهاه عن طلب الملك ؛ وكان مع ذلك شديد البطش والقوة ، فبينما هو يتصيد إذ رأى امرأة ترعى بقرات ، فأعجبته فراودها عن نفسها ، فأمتنعت وأعتذرت بزوجها ؛ فقال : ويلك ، هل على وجه الأرض من يطاولني وأنا من ولد كوش ، ونحن ملوك الأرض ؟ فضحكت المرأة كالمستهزئة ، وقالت : لا تذكر الملوك وأنت رجل صياد .

ثم أقبل زوجها فقتله كنعان وأخذ المرأة ووطئها ، فحملت بثمرود ، ونقلها كنعان إلى قصره ، فكانت من أحظى نسائه ؛ ثم قتل أخاه بعد ذلك ، وأستقل بالملك .

ثم رأى في منامه كأنه صارع إنسانا فصرعه وقال : أنا مشئوم أهل الأرض ومنزى الظلمة ، وقد أجتلك حتى أخرج من ظلمتى هذه إلى ضوء الدنيا .

فانتبه مرتاعا ، وأحضر أصحاب علم النجوم ، وقص رؤياه عليهم ؛ فقالوا : سيولد مولود هو الآن فى بطن أمه يكون هلاكك على يديه .

وتبين حمل الراحية — وكان اسمها شلخاء — وكانت تسمع من بطنها صوتا عجيبا ، فسمعه كنعان فقال : ويحك ، هذا ليس بأدمى ؛ وإنما هو شيطان ؛ وهم أن يدوس بطنها ليقتل من فيه ؛ فهتف به هاتف : مه يا كنعان ، ليس إلى قتله سبيل .

فلما كملت مدة الحمل وضعته أسود أحول أفطس أزرق العين ؛ وخرجت حية من حجر فدخلت فى أنفه ، ففزعت شلخاء ؛ وأخبرت كنعان بخبره ؛ فقال : أقتليه فإنه شؤم . فقالت : لا تطيب نفسى بقتله . قال : فاحتمليه وأطرحيه فى البرية .

- فأحتملته الى البرية ، فمّرت براعى بقرات فعرضته عليه ، فأخذه ، وعادت الى منزلها ،
 فلمّا وضعه الراعى بين البقر نفرت وتفرقت وعسر عليه جمعها ، وأقبلت امرأته
 فأخبرها بنحر الغلام ، فقالت : اقله فإنه شؤم . فأبى وقال : اطرحيه فى النهر .
 فطرحته فى نهر عظيم ، فألقاه الماء الى البر ، فقيض الله له نَمِرَةً فأرضعته وأنصرفت ،
 فرأته امرأة من قرية هناك فعمجبت وأخبرت أهل القرية ، فخرجوا إليه وأحتملوه .
 وربّوه وسمّوه نمروذ ، فلمّا بلغ جعل يقطع الطريق ويغير على النواحي ، واجتمع
 له جمع كثير ، فبلغ خبره كنعان ، فجعل يبعث إليه بقائد بعد قائد وهو يهزمهم ،
 وعظم أمره حتى صار فى جيش عظيم ، فسار الى كوثرًا بًا وقاتل كنعان ، فهزم
 جيوشه وظفر به ، وقتله وهو لا يعلم أنه أبوه ، وأحتوى على مُلكه ، ثم أخذ
 فى غزو الملوك حتى ملك الشرق وسائر ممالك الدنيا ، ثم رجع الى كوثرًا بًا فاستدعى
 وزراءه وقال : أريد أن أبني بدينا عظيمًا لم أسبق إلى مثله . فدلّوه على تارح
 وذكروا أنه عارف بأمر النجارة والبناء ، فأحضره ومكّنه من خزانته ، وأمره
 بإنشاء قصر عظيم ، فخرج تارح وشرع فى بنائه ، وتأثّق فيه ، وأجرى فيه الأنهار ،
 فلمّا كمل ورآه نمروذ خلع على تارح ، وجعله وزيره .
 وأخذ نمروذ فى التكبر حتى أدعى الألوهية .

١٥

- وكان مولعًا بعلم النجوم ، فأتقنه ، فجاءه إبليس فى صورة شيخ وسجد له
 وقال : إنك قد أتقنت علم النجوم ، وعندى علم ما هو أحسن منه ، وهو السحر
 والكهانة . فعلمه ذلك ، ثم حسن له عبادة الأصنام ، فدعا بتارح وأمره أن يتخذ
 له صنما على صورته ، ويتخذ لقومه أصناما أخرى ، فأتخذها تارح من الجواهر
 والذهب والفضة والقوارير والخشب على أقدار الناس ، وكلّها على صورة نمروذ .
 حتى آتخذ سبعين صنما ، وأمر نمروذ قومه أن يتخذوها ، ففعلوا ذلك وأنهمكوا

٢٠

في عبادتها ، وكلمهم الشياطين من أجوافها ؛ فعبدوها حتى لم يعرفوا سواها
وطغوا وبغوا ، وأكثروا الفساد في الأرض ، حتى ضجت الأرض والسماء والوحش
والطير إلى ربها منهم .

ذكر الآيات التي رآها نمرود قبل مولد إبراهيم — عليه السلام —

قال : كان أول ذلك أنه صعد في بعض الأيام إلى سريره ، فانتفض من تحته
انتفاضا شديدا ، وسمع هاتفا يقول : تعس من كفر بآله إبراهيم . فقال لتارح وهو
واقف عنده : سمعت ما سمعت ؟ قال : نعم . قال : فمن هو إبراهيم ؟ قال :
لا أعرفه .

فأرسل إلى السحرة وسألهم عن إبراهيم ، وأخبرهم بما سمع ؛ فقالوا : لا نعرف
إبراهيم ولا إلهه .

ثم توالى عليه الهواتف ، ونطقت الوحش والطير والسباع بمثل ذلك ؛ ثم رأى
الرؤى في منامه .

فكان منها أنه رأى كأن القمر قد طلع من ظهر تارح ، وألقى نوره كالعمود
المدود بين السماء والأرض ؛ وسمع قائلا يقول : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ ونظر إلى الأصنام
وهي ترتعد ، فاستيقظ وقص رؤياه على تارح ، فقال : أيها الملك ، إنني في الأرض
كالقمر لكثرة عبادتي لهذه الأصنام . فقال له نمرود : صدقت .

وانصرف تارح حتى دخل بيت الأصنام ، فإذا هي قد سقطت عن كراسيها
منكبة على أوجهها ؛ فأمر خدامها بإعادتها ، وعجب من ذلك .

قال : ثم رأى في منامه كأن نورا ساطعا بين السماء والأرض ، وقوما يسلكون
فيه ينزلون إلى الأرض ، ويصعدون إلى السماء ، وإذا برجل من أحسن الناس وجها

في ذلك النور، وأولئك يقولون : نصرك إله السماء، فبك تحيا الأرض بعد موتها .
فانتبه ودعا بالسحرة والكهنة والمنجمين ، وذكر لهم رؤياه ، وأقسم إن كتموه
تأويلها عذبهم وجعلهم طعاما للسباع . فطلبوا أمانه ، فأمنهم ، فقالوا : رؤياك تدلّ
على مولود من أقرب الناس إليك ، يرث ملكك ، ويرتفع ذكره إلى السماء والشرق
والغرب ويهلكك ، وأنه لا يأتيك ومعه سلاح ولا جند . فتبسّم نمرود وقال : إن
كان كذلك فأمره هين . ثم قال لهم : فممن يكون ؟ قالوا : من ظهر أقرب
الناس إليك ، ولا نعلم أكثر من هذا .

ثم قال : ليس أحد أقرب إلى من أبني كوش ووزيرى تارح ، ثم أمر بأبنيه
كوش فضرب عنقه ، وأمر بقتل الأطفال حتى قتل مائة ألف طفل ، ثم دعا
بالمنجمين فقال : انظروا هل استرحت ممن كنت أخافه ؟ قالوا : ما حملت به
أمة بعد .

وأخذ في ذبح الأطفال حتى ضجت الخلائق إلى الله تعالى .

ذكر حمل أم إبراهيم - عليه السلام - وطلوع نجمه

قال : وعبر تارح يوما إلى الأصنام فأضطربت اضطرابا شديدا ، فسجد لها
فأنطقها الله ، فقالت : يا تارح ، ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ ووافى نمرود ما كان
يحذره ، فخرج خائفا وجلا حتى دخل على امرأته وذكر لها ذلك ، فقالت : وأنا
أخبرك بعجب ، كنت قعدت عن الحيض منذ كذا وكذا ، وقد حضت في يومى هذا .
فقال : اكنمى أمرى لئلا يبلغ الملك . فلما طهرت هتف به هاتف : يا تارح صر
إلى زوجتك ليخرج النور الذى على وجهك . فلما سمع ذلك مرّ هاربا على وجهه
فإذا هو بملك يقول : أين تريد ؟ ارجع فردّ الأمانة التى فى ظهرك .

فأنصرف إلى منزله ولم يجسر أن يقرب امرأته ؛ فأصبح وإذا بنور ساطع على وجهه ؛ وكان هو الذى يقرب إلى الأصنام الطعام والشراب كل ليلة ، وينصرف إلى منزله فتأكله الشياطين ؛ فقترب الطعام إليها ، فأقبلت الشياطين لتأكله ، فرأوا الملائكة هناك فوآوا هاربين ، وبقى الطعام على حاله ؛ فلما أصبح تارح رآه على حاله فظن أن الأصنام ساخطة عليه ، فعكف عليها لترضى عنه ، فأبطأ عن منزله ، فأتته امرأته ؛ فلما خلت به فى بيت الأصنام تحركت شهوته ، وهم بمواقعتها ، فقالت : ألا تستحي ، أتفعل هذا بين يدي آلهتك ؟ فواقعها ، فحملت منه بإبراهيم — عليه السلام — فنكست الأصنام ، وظهر نجم إبراهيم وله طرفان : أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب ؛ فعجب الناس منه ؛ وراه نمرود فتحير ، فلما أصبح سأل المنجمين عنه ، فقالوا : هذا نجم جديد طلع يدل على مولود جديد من أولاد الأكابر ، يرتفع شأنه ، ويخشى عليك منه . فهتف به هاتف يقول : يا عدو الله ، هذا المولود قد حملت به أمه والله مهلكك على يديه .

قال : فلما استكملت أمه تسعة أشهر قالت لأبيه : إني أحب أن أدخل بيت الأصنام فأسألهما أن تخفف عني أمر الولادة ؛ فأذن لها فى ذلك ، وتربص بها إلى الليل خوفا أن يعلم الناس بحملها ؛ فلما دخلت بيت الأصنام تنكست عن كراسيها فخرجت فزعة ، فإذا هى بنمرود فى قومه ، وبين أيديهم الشموع والمشاعل ؛ فقال نمرود : من هذا ؟ قالت : زوجة عبدك تارح ؛ فأراد أن يقول : اقْبِضُوهَا فقال : خلوها ؛ فأقبلت إلى منزلها مذعورة ، بجاءها الطلق ، فأقبل إليها ملك من عند الله تعالى وقال : لا تخافى وأنهضى فضعى ما فى بطنك . فتبعته حتى أدخلها

ذكر ميلاد إبراهيم — عليه السلام —

(٤٢)

قال : ودخلت أمه الغار فوجدت فيه جميع ما تحتاج إليه ، وخفف الله عنها الطلق ، فولدته في ليلة جمعة ، وهي ليلة عاشوراء ؛ فلما سقط إلى الأرض قطع جبريل سرته ، وأذن في أذنه ، وكساه ثوبا أبيض ؛ ثم عاد بها الملك إلى منزلها فرجعت خفيفة كأن لم تلد ، وقال لها الملك : اكتمى أمرك وما قد رأيت . فدخلت منزلها ، وجاء تارح فرآها نشطة خفيفة ، فقالت : إن الذي كان في بطني لم يكن ولدا ، وإنما كانت ريحا وقد آنفشت عني . ففرح بذلك ، وألقى الله تعالى على نمرود النسيان في أمر إبراهيم ؛ فلما كان في اليوم الثالث خرجت أمه إلى الغار فرأت الوحش والسباع على بابه ، فتوهمت أن يكون هلك ؛ فدخلت فرأته على فراش من السندس ، وهو مدهون مكحول ، فتحيرت وعلمت أن له رباً ، ورجعت إلى منزلها وأخبرت تارح الخبر ، فنهاها عن العود إلى الغار ، فكانت تروح إليه سرا في كل ثلاثة أيام تنظر إليه وتعود ، حتى تم له حولان ، فأناه جبريل بطعام من الجنة ، فأطعمه وسقاه ؛ فلما استكمل أربع سنين جاءه ملك بكسوة من الجنة ، وسقاه شربة التوحيد وقال : أخرج الآن منصورا .

ذكر خروج إبراهيم — عليه السلام — من الغار وأستدلاله

قال : ولما قال له الملك ذلك خرج عند غروب الشمس ، فجعل ينظر إلى السموات ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ يعني على سبيل الاستفهام ، أي أهذا ربي ؟ . ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لين لم يهدين ربي لا كونن من القوم الضالين * فلما رأى

الشَّمْسَ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ
إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٥﴾
وهبط جبريل — عليه السلام — فقال له : انطلق إلى أبيك وأمك ولا تخف
فإن الله معك . فخرج إبراهيم وجبريل معه حتى وقفه على الباب وقال : هذا بيت
أبيك ، فدونك هو . فاستأذن إبراهيم وقال : أَدْخُلْ ؟ قال تَارَحُ : أَدْخُلْ . فلما
دخل نظر إليه فعجب من حسنه وجماله ، وقامت أمه مسرعة إليه واعتنقته
وقالت : ولدي وعزّة نمرود . فقال لها : لا تحلفي بعزّة نمرود ، فإن العزّة لله الذي
خلقني في بطنك وأخرجني منك ، وكلائي وربّاني وهداني .

فارتعد تَارَحُ من كلامه وقال لأمه : أخشى أن تزول عني هذه المنزلة بسببه .
ونظر إليه وقال : ما أحسنك ! فلولا ما وقع في قلبي من محبتك لرفعتُ خبرك
إلى نمرود .

ثم بكى تَارَحُ خوفاً عليه أن يقتل ، فقال له : يا أبت لا تخف عليّ من القتل
فإن الله يعصمني من نمرود . فقال له : ألك ربّ غير نمرود ، وله مملكة الأرض
شرقها وغربها ، وله ثلاثمائة صنم ؟ فقال إبراهيم : بل ربّي الله الذي لا إله إلا هو
خالق السموات والأرض وما بينهما لا شريك له .

وبلغ خبر إبراهيم بعض أقارب تَارَحُ ، فدخل عليه وقال : ما هذا الغلام الجميل ؟
قال : هو أبني ولدي على كبر . قال : فما الذي بلغك من قوله عن نمرود وأصنامنا ؟
قال تَارَحُ : هو ما بلغكم ، فكلموه حتى يعود إلى ديننا . فحاجّه قومه وخوفوه
بعذاب نمرود ، وهو يجادلهم ويحتجّ عليهم ، ويذكر عظمة ربّه حتى عجزوا عنه
فذلك قوله تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ الآيات إلى
قوله : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ .

فانصرفوا عنه ، وخاف تارح أن يسعوا به و بولده إلى نمرود ، فقال : يا إبراهيم
كف عن هذا الكلام حتى أستخلفك على خزانة الأصنام فقد كبرت . فقال :
يا أبت ، إن المعبود هو الله ، والأصنام لا تضر ولا تنفع .

فغضب تارح وأقبل على نمرود ، فسجد له ، وقال : إن المولود الذي كنت
تحذره هو ولدى ، ولم يولد في داري ، ولا أعلم به حتى الآن ، وقد جاءني وهو
غلام يعقل ويفهم ، ويزعم أن له ربا سواك ، وقد أعلمتك فأصنع ما أنت صانع .

فلما سمع نمرود ذلك داخله الرعب وقال : صفه . فوصفه . قال نمرود :
هو الذي رأيته في منامي . وقال لأعوانه : اتتوني به . فأتوه به ، فردد النظر

إليه وقال : احبسوه إلى غد ، فلما أصبح أحضره وقد أمر بتزيين قصره بأعظم
زينة ، وهول عليه بجنوده وأصناف السلاح ، فالتفت إبراهيم إلى الناس يمينا وشمالا

وقال : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ؟ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ثم قال : ﴿ الَّذِي
خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ ثم التفت وقال :
﴿ وَأَغْفِرْ لِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ .

فلما فرغ من كلامه قال له نمرود ، يا إبراهيم ، تقع في ديني وأنا الذي خلقتك
ورزقتك ؟ قال : كذبت ، إن خالق ورازقي وخالق الخلق ورازقهم ، ﴿ هُوَ اللَّهُ
الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فبهت الناس ، ووقعت في قلوبهم محبته لحسنه وحسن
كلامه ، فالتفت نمرود إلى تارح وقال : إن ولدك صغير لا يدري ما يقول
ولا يجوز لمثلي في قدرتي وعظم مملكتي أن أعجل عليه ، نخذه إليك ، وأحسن إليه

فأخذه تارح وأنصرف إلى منزله ، وقال : يا بني ، إن لي عليك حقاً ، وأسألك بحقّ عليك أن تلازمي في عملي وبيع هذه الأصنام كما يفعل إخوتك . قال : كيف أبيع ما أبغضه ؟ قال : ما عليك أن تبعها ؟ وأخرج له صنين صغيرا وكبيرا ، وقال : بع هذا بكذا ، وهذا بكذا . قال : يا أبت أنت تعبد هذه الأصنام على أنها ترزقك وهي التي خلقتك ؟ قال : نعم . فقال له ما أخبرنا الله به في قوله : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ فغضب تارح من قوله وقال : ﴿ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ قال إبراهيم : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ .

وقال : وكان إبراهيم يخرج ومعه غلامان ومعهما صنمان ، فيقول : من يشتري ما لا يضر ولا ينفع ولا يدفع الذباب عن نفسه ، وكان يغمسهما في الماء ويقول : اشربا . ويشد الحبل في أرجلهما ويجزهما ، والناس يُعْظَمُونَ ذلك ولا يحسرون يكلمونه لمكان أبيه من نمرود .

ذكر معجزة لإبراهيم — عليه الصلاة والسلام —

قال : و بينما إبراهيم قاعدا إذ جاءت أمراة عجوز ، فقالت : بعني أحد هذين الصنمين ، وأختر لي أجودهما . فقال : هذا أكثر خطبا من هذا . قالت : لست أريده للوقود ، وإنما أريد أن أعبد ، فقد كان لي إله سرق في جملة ثياب كثيرة

لى، وأنا ارىد أن أشتري هذا الصنم فأعبده حتى يردّ علىّ رحلى . قال لها إبراهيم :
 إنّ الإله الذى يُسرق لو كان إلهاً لحفظ الثياب وحفظ نفسه ، فكم لك تعبدينه ؟
 قالت : كنت أعبده ونمرود منذ كذا وكذا سنة . قال : بئس ما صنعت ، هلا
 عبادت ربّ السموات والأرض حتى يردّ عليك ما سرق منك ، فإن عاد مالك
 تؤمنين ؟ قالت : نعم .

فدعا إبراهيم ربّه فإذا بالمسروق بين يديه قد جاء به جبريل ، فقال لها إبراهيم :
 هذا رحلك . فأخذته العجوز وكسرت الصنم ، وقالت تَبّاً لك ولمن عبدك دون
 الله . وآمنت ، وجعلت تطوف فى المدينة وتقول : يا أيّها الناس آعبدوا الله الذى
 خلقكم ورزقكم ، وذروا ما كنتم عليه من عبادة الأصنام .

١٠ فبلغ خبرها نمرود ، فأحضرها وأمر بقطع يديها ورجليها وفقّ عينيها ، فأجتمع
 إبراهيم والناس لينظروا إليها — وهو إذ ذاك لم يبلغ الحلم — فدعا لها بالصبر
 وقال : إلهى إنك قد هديتها ، أسألك أن تجعلها آية . فردّ الله عينيها ويديها ورجليها
 وارتفعت فى الهواء وهى تنادى : ويلك يا نمرود ، أنا الذى قد فعلت بى ما فعلت
 هنا أرقى إلى الجنان .

(١)

١٥ وكان لنمرود خازن يقال له : بهرام ، فقام وقال : آمنتُ أيتها المرأة بالذى
 خصّك بهذه الكرامة ، وآمن فى ذلك اليوم خلق كثير من وجوه القوم ، فأمر نمرودُ
 فنُشِروا بالمناشير وألقوا للأسود فلم تأكلهم ، وارتجت المدينة بزلزلة عظيمة
 وترادفت معجزات إبراهيم — عليه السلام — .

(١) فى كتاب الكسانى المنقول عنه هذا الكلام : « ولد » .

ذكر مبعث إبراهيم — عليه السلام —

قال : فلما تم لإبراهيم أربعون سنة ، جاءه جبريل بالوحي من الله ، وأرسله إلى نمرود ، فأقبل إبراهيم ووقف على باب نمرود ونادى بأعلى صوته : يا قوم ، قولوا : « لا إله إلا الله وإني إبراهيم رسول الله » . فانتشر الصوت على جميعهم ، فأحضر نمرودُ الوزراء والبطارقة ، وأجلسهم في مجالسهم ، وأقام جنوده ، وأحضر الأسود والفيلة بسلاسلها ، وأقيمت صفوفاً عن يمين الدار ويسارها ، وأمر بدخول إبراهيم ، فدخل وقال : « بآسم الله العظيم » فلما توسط الدار قال بصوت رفيع : يا قوم قولوا : « لا إله إلا الله خالق كل شيء » .

ثم تقدم إلى نمرود ، فقال له بعض وزرائه : من أنت ؟ قال : أنا إبراهيم بن تارح رسول رب العالمين ، أدعوكم إلى عبادته . قال له : من ربك ؟ قال : الذي خلق الناس جميعاً . قال نمرود : إن ملكي أعظم من ملكه . قال إبراهيم : الملك والسلطان لله رب العالمين . قال : لقد تجرأت علي يا إبراهيم ، وأنت تعلم أنني خلقتك ورزقتك . فاضطرب سرير نمرود ، وقال إبراهيم : كذبت يا نمرود ، إن الله هو الذي خلقك وخلق الناس أجمعين ، ورزقك ورزقهم ، وأنت تكفر بنعمته وقد رأيت بعض الآيات ؟ قال : هات غير ذلك . فوصف إبراهيم قدرة الله . قال نمرود : فما الذي يفعل من قدرته ؟ ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ قال نمرود : ﴿ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ . قال : كيف تفعل ؟ قال : أخرج من الحبس من قد وجب عليه القتل فأطلقه ، وأقتل الذي لم يجب عليه .

قال إبراهيم : إن ربي لا يفعل كذلك ، بل الميت يحييه ، والحي يميت من غير قتل ، ولكن يا نمرود ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُذِّثَ ۚ ﴾

ذكر سؤال إبراهيم — عليه السلام — في إحياء الموتى

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَئِنْ لِيُطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ خُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْأً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .

قال : فأخذ ديكاً أبيضً وغراباً أسود وحمامة خضراء وطاووساً ، وقطع رءوسها ، وخاط الدم بالدم والريش بالريش ، ثم جزأها أجزاءً متساوية ، وجعل على كل جبلٍ منهنَّ جزءاً ، وجعل رءوسها بين أصابعه ، ثم دعاها ، فانضمَّ كل جزء إلى بعضه ، وخرجت الرؤوس من بين أصابع إبراهيم ، فصارت كل رأس إلى بدنه .

قال : وآلفت إبراهيم إلى نمرود وقال : كيف ترى قدرة إلهي ؟ قال : ليس هذا ببديع من سحرك . وأمر به فقيّد وغلّت يده ، وأدخل المضيق تحت الأرض وفيه الحيات والعقارب فلم يضره ذلك .

وجاءه جبريل فبشّره عن الله بالنصر ، وألبسه حلة خضراء ، وفرش له فرشاً من السندس ، وأتاه بطعام فأكل وقال له : اصبر كما صبر الأنبياء من قبلك .

ذكر آية لإبراهيم — عليه السلام —

قال : وكان إبراهيم يسأل أهل السجن ، ويذكّرهم بالجنة والنار ، فقام إليه رجل وقال : يا إبراهيم ، أنا من ملوك العرب ، وأنا ابن ملكهم ، وكنا أربع إخوة فغضب الملك علينا فحبسني هاهنا ، وحبس الآخر بالمشرق ، والآخر بالمغرب والرابع باليمن ، فهل يقدر ربك أن يجمع بيننا ؟ قال : نعم . ودعا إبراهيم ربه ، فإذا بالأخوين وقد آنقضا من المشرق والمغرب . فبلغ ذلك نمرود ، فأحضرهم وقال :

مَنْ جمع بينكم ؟ قالوا : إلهنا بدعاء إبراهيم . فَأَحْضَرَ إبراهيم وقال : ائتنا بالأخ
الرابع من اليمن . فقال : إنه قد مات ودفن . فقال نمروذ : ادع ربك حتى
يأتينا بقبره .

فدعا إبراهيم ، فأمر الله الملك الموكل بالأرض أن يخترق بالقبر إلى إبراهيم ،
نفرج القبر من تحت الأرض إلى دار نمروذ ، فقال إبراهيم للثلاثة : هذا قبر
أخيكم . فقالوا : أيها الملك ، إن كان حقاً ما يقول فليدع ربه ليحييه وينظر إليه
ويكلّمه .

فصلى إبراهيم ركعتين ، وسأل الله أن يحييه ، فانشق القبر ، وخرج الرجل منه وهو
يشتعل نارا ويقول : هذا جزاء من عبد الأصنام ورغب عن دين الله .

فقام بهرام الخازن ونزع ما كان عليه من لباس نمروذ ، وآمن بالله وبإبراهيم .
فقال له نمروذ : لقد عمل سحره فيك . وأمر بهم نمروذ فشُدَّت أيديهم وأرجلهم
ووضعت عليهم أساطين ، فلم يؤلمهم ثقلها ، فبهت نمروذ ثم قال : عودوا لطاعتي
فأنا الذي خففت عنكم ثقل هذه . فقال خازنه : قم حتى نضع عليك واحدة منها
وخففها عن نفسك .

فغضب نمروذ وأحرقهم بالنار حتى صاروا رمادا ، فردّ الله عليهم أرواحهم
فقاموا على أرجلهم يقرّون بعظمة الله ، فعجب الناس ، ولم يدر نمروذ ما يفعل ؛
فأمر بهم فألقوا في الحبس بين حيات وعقارب ، فبقوا فيه أربعين يوماً ، ولم يطعموا
شيئاً ، فجاءت أم إبراهيم إلى نمروذ وسألته في إطلاقه ، فأمر بإخراجه هو ومن
آمن به ، وفي ظنه أنهم قد ماتوا ، فأخرجهم فإذا هم في أحسن صورة ؛ فعجب

وقال : يا إبراهيم ، من أطعمك وسقاك ؟ قال : ربّي أطعمني وسقاني ، فأمن به
يا نمرود ، فقد رأيت آياته وعظمته .

فغضب نمرود ثم أقبل على تارح وقال له : قد كنت أتخوف من ابنك ، لأنني
كنت أظنّ له شوكة من الجنود ، والآن فليس عنده إلا السحر ، وقد وهبته لك .
فأخذه أبوه وأخرجه من دار نمرود ، وقال له : يا بنيّ ، امش حتى أدخلك على هذه
الأصنام لعلك تميل إليها . فقال إبراهيم : سوءة لك أيها الشيخ . ثم قال :
﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ ؟ ﴾ ثم قال : يا قوم قولوا : لا إله إلا الله وإني إبراهيم
رسول الله تفلحوا . فكذبوه ، فقال له أبوه : يا بنيّ ما تخشى سطوة الملك .
فقال : يا أبت إنّ الله يعصمني من مكايده .

قال : ثم آبتلاهم الله — عزّ وجلّ — بالقحط ، وقلّت عندهم الأقوات ؛
وكان بظاهر المدينة كتيب من الرمل ، فتعبّد إبراهيم فيه ، ودعا ربه أن يحوله
طعاما . فحوله الله ، فكان المؤمنون ينالون منه ما يريدون ، والكفّار يسجدون لنمرود
ويأخذون منه القوت .

وكان قد جمع الأقوات في سراديب عنده ، فأطعمهم حتى نفذ أكثرها
ولم يبقَ إلا قوتُ أهله وعشيرته ؛ فشرع الناس يؤمنون ويزيدون في كل يوم ؛
فشقّ ذلك على نمرود ، وطلب إبراهيم وقال له : اخرج من بلدي فقد أفسدت
قومي بسحرك . فقال إبراهيم : لم أخرج وأنا أحقّ منك ؟ وخرج من عنده
فأحضر نمرود تارح وقال له : إن ابنك قد آذاني في أهل مملكتي ، ولولا منزلتك
عندي لبطشت به . فقال : إني قد هجرته ، ولست راضيا بصنعه ، فأفعل به

ذكر خبر تكسير إبراهيم الأصنام وإلقائه في النار

قال كعب : وكان لأهل كوثرباً عيد يخرجون إليه في كل سنة ، فيتعبدون هناك أياماً ، وكان بعيداً من البلد ، فلما حضر ذلك العيد قال تارح لإبراهيم : أخرج معنا إلى عيدنا . (فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ) ، يعني لعبادتكم الأصنام (فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ) إلى عيدهم ، ولم يبق في بلدهم إلا الصغار والهيرون .

فقام إبراهيم ودخل بيت الأصنام — وكان القوم قد وضعوا الطعام بين أيديها — (فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ) استهزاء بهم ، وكانت في جانب البيت فأس ، فأخذها وكسرها هذا الصنم ، وكسر يد هذا الصنم ورجل هذا ورأس هذا . قال الله عز وجل : (فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ) وترك كبيرهم كما أخبر الله تعالى : (جَعَلَهُمْ جُذَاءً إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ) ثم علق الفأس في عنق الصنم الأكبر ورجع إلى منزله .

وأقبل القوم بعد فراغهم من عيدهم ، فرأوا أصنامهم على ذلك ، فقالوا : (مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) وبلغ الخبر نمرود . قال : (فَاتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ) يعني عذابه . فلما أتوا به (قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) قال بعضهم لبعض : (إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ) فصاحوا من كل ناحية : أفتأمرنا بذلك وأنت تعلم أنها لا تسمع ولا تبصر . فقال إبراهيم : (أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أَفْ لَكُمْ وَلِمَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) فقال القوم لنمرود ما أخبرنا الله تعالى عنهم : (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) .

٤٦

وكان لنمرود تنور من حديد يُحرق فيه من غضب عليه ، فأمر به فأُشجِرَ فطرح إبراهيم فيه ، فلم تضره النار بقدره الله ؛ فلما رأى نمرود ذلك جمع أهل مملكته واستشارهم ، فأشاروا أن يحبسه ويجمع له الحطب الكثير ، ويُضرم فيه النار ، ثم يلقيه فيه إذا صار جمرا . وقالوا : إنه لا يقدر يسحر النار الكبيرة ، ولا يعمل سحره فيها .

فبعد ذلك حبسه وأمر بجمع الأخطاب ؛ فيقال : إن الدواب امتنعت من حملها إلا البغال ، فأعقمها الله عقوبة لذلك ؛ فجمعوا من الأخطاب ما لا يحصى كثرة ؛ وأمر أن تُحفر حفيرة واسعة ، وبني حولها حائطا عاليا ، وألقى فيها تلك الأخطاب وأضرم فيها النار والنفط ثلاثة أيام ، فكان لها يصيب الطائر في الجو فيحرق .

قال : وهموا بطرح إبراهيم فيها ، فلم يقدرُوا يقربوا منها .

فيقال : إن إبليس أتاهم في صورة شيخ ، وصنع لهم المنجنيق ، ولم يكونوا يعرفونه قبل ذلك ، ووضعوا إبراهيم في كفة المنجنيق ، ورموا به وهو يدعو الله أن ينصره عليهم ؛ فعارضه جبريل وهو في الهواء ، وقال له : ألك حاجة يا إبراهيم ؟ قال : أما إليك فلا ، بل حسبي الله ونعم الوكيل .

فلما قرب من النار قال الله عز وجل : ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : لو لم يقل « وسلاما » لمات إبراهيم من شدة البرد .

فبرد حرها وأخضرت الأشجار التي احترقت ورست بعروقها .

فلما أصبح نمرود جلس في مكان مُشرف ينظر إلى ما أصاب إبراهيم من النار ؛ فكشف عن بصره فإذا هو برجل في وسطها على سرير ، عليه ثياب خضر وإلى جنبه رجل آخر ؛ وخلق كثير وقوف من ورائهما ؛ فدعا بصاحب المنجنيق

٢٠

وقال له : كم ألقيت في النار ؟ قال : إبراهيم وحده . فعجب وعجبت الناس وقال : اذهبوا وأنظروا من القاعد على السرير ومن إلى جنبه وحوله . فأتوا فإذا هم بإبراهيم على أحسن صورة ، فأخبروا نمروذ ، فقال : ائتوني به . فقالوا : لانستطيع الوصول إليه لحز النار . فنادوه : يا إبراهيم ، أخرج إلينا . فخرج إلى نمروذ وقال له : ما أعجب سحرك يا إبراهيم ! قال : ليس هذا بسحر ، وإنما هو من قدرة الله تعالى . قال : فمن الذي عن يمينك ؟ قال : ملك جاءني من عند ربي بشرني أن الله آتخذني خليلا . فقال نمروذ : لأصعدن إلى السماء وأقتل إلهك .

ذكر خبر صعود نمروذ إلى السماء على زعمه

قال : وأمر نمروذ أن يُتخذ له تابوت مربع ، ويكون له بابان : باب إلى السماء وباب إلى الأرض ، وجوَّع أربعة نسور ، وسمَّ أربعة رماح في أركان التابوت ، وعلق اللحم في أعلاها ، وشدَّ النسور بأوساطها إلى الرماح ، وجلس في التابوت ومعه وزيره ، وحمل معه قوسا ونُشابا ، وأطبق البابين ، فرفعت النسور رءوسها فنظرت إلى اللحم ، فطارَت صاعدة ، وأدَّتْ فُتعت في الهواء ؛ فقال لوزيره : افتح الباب الذي يلي الأرض وأنظر كيف هي ؟ قال : أراها كأنها قرية . قال : فانظر إلى السماء . فقال : هي كما رأيناها ونحن في الأرض . ولم يزل يصعد حتى قال : أما الدنيا فلا أراها إلا سوادا ودخانا ، والسماء كما رأيناها .

وآرتفعت النسور حتى كادت تسقط إلى الأرض ؛ فعارضه ملك وقال : ويلك يا نمروذ ؛ إلى أين ؟ قال : أريد محاربة إله إبراهيم . قال : ويحك ، إن بينك وبين سماء الدنيا حماسة عام ، ومن فوق ذلك ما لا يعلمه إلا الله . فخر الوزير ميتا ، فأخذ نمروذ القوس ووضع فيه السهم ، وقال : أنا لك يا إله إبراهيم ، ورمي بالسهم إلى الهواء ، فيقال : إن ذلك السهم عاد إليه ملطخا بالدم بإذن الله .

وأمر الله جبريل أن يضرب التابوت بجناحه ، فيلقيه في البحر ، فضربه
فمترى به حتى ألقاه في البحر ، وأمر الله الأمواج أن تلقيه إلى الساحل ، فلمّا
وصل إلى البرّ خرج وقد أبيضّت لحيته لما عاين من الأهوال ، وتوصّل من بلد إلى
بلد حتى أتى المدينة ، فدخل منزله ليلاً فأنكره الناس لشيبه ، ثم عرفوه ، وجاءه
إبراهيم فقال : كيف رأيت قدرة ربّي ؟ قال : قد قتلْتُ ربّك . قال : إنّ ربّي
أعظم من ذلك ، ولكن هل لك قوّة — مع كثرة جنودك — أن تقاتلني ؟ قال : نعم .

ذكر خبر إرسال البعوض على نمروذ وقومه

قال : وأمر نمروذ جنوده فأجتمعوا لحرب إبراهيم وهم لا يُحصّون كثرة ، وخرج
إبراهيم في سبعين من قومه الذين آمنوا في الصحراء ، فأرسل الله عليهم البعوض حتى
أمتلأت منه الدنيا ، ولدغت جيش نمروذ ، فمات من لدغها خلق كثير ، والتجأ
الباقيون إلى الدّور ، وأغلقوا الأبواب وأسبلوا الستور ، فلم تُغن عنهم شيئاً ، وأنفرد
نمروذ عن جيشه ، ودخل منزله وأغلقت الأبواب ، وأرخت الستور ، وأستلقى
على سريره ، فجاءت بعوضة فقعدت على لحيته ، فهمّ بقتلها ، فدخلت منخره
وصعدت إلى دماغه ، فعذّبه الله بها أربعين يوماً لا ينام ولا يطعم ، ثم شقت رأسه
ونجست في كبر الفرخ ، فمات .

وقيل : إنّهُ آتخذ إرزبةً من حديد ، فكان صديقه الذي يضرب بها رأسه
فأنفلق رأسه بضربة نخرجت كالفرخ وهي تقول : هكذا يهلك الله أعداءه ، وينصر
أنبياءه ، ويسلّط رُسُلَه على من يشاء .

وأرسل الله الزلازل على المدينة ، فخربت .

قال : وجاء لوط وهو ابن أخى إبراهيم ، وآمن به ، وآمنت سارة ، فترّوج بها إبراهيم .

ذكر هجرة إبراهيم — عليه السلام —

قال : وجمع إبراهيم أصحابه الذين آمنوا به ، وسار يريد الشام ، بقاء إلى (حرّان) فأقام بها مدة من عمره ، وترك بها طائفة من المؤمنين ، وسار حتى أتى الأردنّ وكان اسم ملكها صادق ، فتربه وهو في منظره له ، فنظر إلى سارة مع إبراهيم فأحضرهما ، وقال لإبراهيم : من أنت ؟ قال : أنا خليل الله إبراهيم . وذكر له ما كان من أمر نمرود . فقال له : من هذه ؟ قال : هي أختي . فقال : زوجنيها . قال : هي أعلم بنفسها مني ، وإنها لا تحلّ لك . فأغتصبها منه ، وقام إلى مجلس آخر وأمر بحملها إليه . فدعا إبراهيم الله تعالى ، فأرتج المجلس بالملك ، ويست يده فقال لسارة : ألا ترين ما أنا فيه ؟ قالت : لأنك أغضبت خليل الله .

قال : فتضرّع إلى إبراهيم ، فسأل الله في رده عليه ، فأوحى الله إليه : لا أطلقه دون أن أخرجه من ملكه ويُسَلِّمَ ، فأسَلَمَ ونُحِرَ عن الملك ، ووهب سارة هاجر ، وهي أم إسماعيل .

قال وأرتحل إبراهيم حتى أتى الأرض المقدسة فنزلها .

وقد روينا هذه القصة بسندنا إلى البخاريّ — رحمه الله —

وسنذكر الحديث — إن شاء الله تعالى — في أخبار طرطيس أحد الملوك بمصر ، فقد ورد أنه صاحب القصة ، والله أعلم .

ذكر خبر ميلاد إسماعيل — عليه السلام — ومقامه وأمه في البيت المحرّم قال : وأقام إبراهيم بالأرض المقدسة ما شاء الله أن يقيم حتى كبرت سارة وأيست من الولد ، فخافت من أنقطاع نسل إبراهيم — عليه السلام — فوهبته هاجر فقَبِلَها ، وواقعها ، فحملت بإسماعيل ، ووضعتة كالقمر وفي وجهه نور نبيّنا محمد

صلى الله عليه وسلم ، فأحبته سارة حتى بلغ من عمره سبع سنين ، فدخلت الغيرة سارة ، ولم تطق أن ترى إبراهيم مع هاجر ، فقالت : يا نبي الله ، إني لا أحب أن تكون هاجر معي في الدار ، فحولها حيث شئت .

فأوحى الله إليه أن أنقلها إلى الحرم ، وجاءه جبريل بفرس من الجنة ، فقال له : يا إبراهيم ، إحمل هاجر وإسماعيل على هذا الفرس . فأركب إبراهيم هاجر وإسماعيل من ورائها ، وسار بهما حتى بلغ الحرم .

فأوحى الله إليه أن أنزل بهما هاهنا . فأنزلهما بالقرب من البيت ، وهو يومئذ أكمة حمراء كالربوة من تخريب الطوفان . ثم قال إبراهيم لهاجر : كوني هاهنا مع ولدك فإني راجع ، فبذلك أمرني ربي . فلما أراد إبراهيم أن ينصرف قال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ . ثم رجع وتركهما هناك ولا ثالث لهما إلا الله تعالى .

فلما علا النهار ، وأشتد الحر ، ونفذ ما معهما من الماء ، قامت هاجر تعدو يمينا وشمالا في طلب الماء فلم تجده ، فعادت إلى إسماعيل فرأته يبحث بأصابعه في موضع بئر زمزم وقد نبغ الماء ، فسجدت لله ، وأخذت تجمع الحصى حول العين لئلا ينتشر الماء وهي تقول : زُمَّ زُمَّ يا مبارك .

فناداها جبريل : لا تخافي وأبشري ، فإن الله سيعمر هذا المكان .

قال وهب : لولا أن هاجر جمعت الحصى حول الماء لتمت العين نهرا جاريا على وجه الأرض إلى يوم القيامة .

قال : وأقبل ركب من اليمن يريدون الشام ، وطريقهم على الحرم ، فرأوا الطير تهوى إلى الأرض ، فقالوا : إن الطير لا تنقض إلا على الماء والعمارة .

وأقبلوا فرأوا هاجرو إسماعيل والعين؛ فسألوها ، فقالت : أنا جارية خليل
الله إبراهيم وهذا آبنه ، خلفنا وأنصرف إلى الشام .

فأستأذنوها في الماء ؛ فأذنت لهم . ثم قالوا : هل أحد ينازعك على هذا الماء ؟
قالت : لا ، فإن الله أخرجه لى ولولدى . قالوا : إن حضرنا بأهالينا وسكنا
في جواركم هل تمنعينا من هذا الماء ؟ قالت : لا ، فإنه لله يشربه خلق الله .

فرجعوا إلى بلدهم ، وأحتملوا أهاليهم وأتوا الحرم بها وبمواشيهم ، فصاروا
لها أنسا .

ونشأ إسماعيل حتى بلغ مبلغ الرجال ، فكان يخرج إلى الصيد معهم و يرجع
وماتت أمه هاجر ، وتزوج إسماعيل منهم ، وبلغ إبراهيم خبر موت هاجر ، فأشتاق
إلى إسماعيل ، فأستأذن سارة في ذلك ، فأذنت له ، بجاءه جبريل بفرس فركبه وسار
حتى وقف على بيت ولده إسماعيل بالحرم ، فقال : السلام عليكم يا أهل المنزل .
فقالت له المرأة : إن صاحب البيت غائب . فقال إبراهيم : إذا رجعت فقولى له :
أبدل عتبة دارك ، فإننى لا أرضاها لك . وانصرف إلى الشام .

فلما عاد إسماعيل أخبرته بالخبر ، فقال : صفه لى . فوصفته ؛ فقال : الحق بأهلك .
جاء أهلها وقالوا : ما الذى كرهت منها ؟ قال : لأنها لم تعرف لخليل الله قدرا .

ثم تزوج امرأة من جرهم ، فأولدها إسماعيل ستة أبطن ، فاشتاق إبراهيم إلى
ولده ، بجاءه جبريل بفرس فركبه وسار إلى الحرم ، وقد عمر ذلك المكان بجرهم ؛
فوقف على باب إسماعيل وقال : السلام عليكم يا أهل المنزل . فبادرت المرأة
وسلمت عليه ، وقالت : فدتك نفسى ، إن صاحب المنزل غائب ، وإنه يعود عن
قريب . قال : هل عندك طعام ؟ قالت : نعم ، عندنا خير كثير . وجاءته بطبق

عليه لحم مشوى من الصيد ، وقدح فيه ماء . قال : فهل غير هذا من حب
أوزيب ! قالت : يا عمّاه ، ما هذا طعام بلدنا ، ولكنه يُجلب إلينا ، فأنزل بنا
وتناول طعامنا . قال : إني صائم ، ولكن على ذرق الطير فأغسله . وحول قدمه
عن الفرس ، ووضعته على المقام ، فغسلته ، فقال : إذا جاء زوجك فسلمى عليه
وقولى له : إزم عتبة بابك فقد رضيتمها لك . وأنصرف .

فلما رجع إسماعيل من الصيد أخبرته الخبر فقال : لقد كنت كريمة على
وقد صرت الآن أكرم بل كرامك أبي خليل الله إبراهيم .

ثم اشتاق إبراهيم إلى ولده ثالثاً ، وذلك بعد ثلاث وعشرين يوماً ، فجاء إليه
ولقيه ، وأمره الله أن يبنى البيت ، فبناه ، وأتاه جبريل فعلمه مناسك الحج .

وقد تقدّم ذكر ذلك مبيناً في الباب الثانى من القسم الخامس من الفن الأول
وهو في السفر الأول من كتابنا هذا ، فلا حاجة لنا في إعادته .

قال : ورجع إبراهيم إلى البيت المقدس ، وأوحى الله إليه أن يرسل لوطاً نبياً
إلى سدّوم ، فأرسله .

وكان من أمره ما ذكره في أخباره في الباب الذى يلى هذا الباب — إن شاء
الله تعالى — .

ذكر خبر بشارة إبراهيم بإسحاق — عليهما السلام —

قال : وبعث الله الملائكة إلى إبراهيم حين أرسلهم بالعذاب على قوم لوط
وأمرهم أن يبشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، فأتوه على صورة البشر
وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل ودريائيل .

(١) فى (ج) : « روث » . (٢) فى كتاب الكسائى : « فغسلت رأسه » .

قال : فأتوه مفاجأة على خيولهم ، ودخلوا عليه منزله ففزع منهم ، حتى قالوا :
 ﴿ سَلَامًا ﴾ . فسكن خوفه ، وقال : ﴿ سَلَامٌ قَوْمٍ مُنْكَرُونَ ﴾ ورحب بهم وأجلسهم
 وقام إلى زوجته سارة وأمرها بخدمتهم ؛ فقالت : عهدي بك وأنت أغير الناس .
 قال : هو كما تقولين ، وإنما هؤلاء أضياف أخيار . ثم قام إلى عجل سمين فذبحه
 وشواه ، وقربه إليهم ، ووقفت سارة لخدمتهم ، فجعل إبراهيم يأكل ولا ينظر إليهم
 وهو يظن أنهم يأكلون ؛ فرأت سارة أنهم لا يأكلون ؛ فنبهته على ذلك ، فقال :
 ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ؟ وداخله الخوف من ذلك ، ثم قال : لو علمت أنكم لا تأكلون
 ما قطعت العجل عن البقرة .

فد جبريل يده نحو العجل ، وقال : قم بإذن الله . فاشتد خوف إبراهيم وقال :
 ﴿ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشِّرُنِي عَلَى أَنَّ
 مَسْنَى الْكِبَرِ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ .

قال : وكانت سارة واقفة هناك ، فقالت : « أوه » ﴿ فَصَغَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ
 عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ ﴾ أى حاضت ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا
 بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا
 إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ
 إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ ولم تعلم أنهم ملائكة ؛ فقال لها جبريل : يا سارة ، ﴿ كَذَلِكَ
 قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ . قال إبراهيم : ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ
 قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾ ثم عاد جبريل
 إلى صورته ، فعرفه إبراهيم ، وعرفه أنهم يقصدون قوم لوط بالعذاب ؛ فأغم
 إبراهيم شفقة على لوط وأهله ، ثم قال : امضوا حيث تؤمرون .

فلما انتهيا إلى رأس الجبل قال إبراهيم : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ .
فحمد إبراهيم ربه على ذلك ، فنودى من السماء : أليس الله قد وصفك بالحلم فكيف لا ترحم هذا الطفل ؟ قال : إن الله قد أمرني بذلك . فقال إسحاق :
يا أبت عجل أمر ربك قبل أن ينال منا الشيطان .

فترع إبراهيم قميصه وربطه بالجبل ، وكبه على جبينه وهو يقول : الحمد لله باسم الله الفعّال لما يريد . ووضع الشفرة على حلقه ، فلمّا همّ بذبحه أنقلبت الشفرة ، فارتعدت يد إبراهيم ، فقال له إسحاق : يا أبت ، حدّ الشفرة ، وأصرف وجهك عني حتى لا ترحمني . قال : يا بنيّ ، قد فعلت حتى لو قطعْتُ بها المِجَنَّ لقطعته بحدّها .

ثم وضع إبراهيم الشفرة على حلقه ثانيا ، وهمّ بقطع أوداجه ، فانقلبت ، فقال إبراهيم : لا حول ولا قوّة إلا بالله . فقال : أصبت في قولك يا أبت ولكن حدّ شفرتك لتذبحني ذبحا ، ولا تبزع . فحدّ إبراهيم المديّة حتى جعلها كالنار ووضعها على حلق إسحاق ، فسمع إبراهيم هتّة عظيمة ومناديا يقول : يا إبراهيم خذ هذا الكبش فاذبحه عن آبنك ، فهو قربان عنه ، وهذا اليوم جعل عيداً لك ولولدك من بعدك .

فالتفت إبراهيم إلى الجبل ، وإذا هو بكبش أملح أقرن ، قد آنحدر من الجبل وهو يقول : خذني يا إبراهيم فاذبحني عن آبنك ، فأنا أحق منه بالذبح ، فأنا كبش هابيل بن آدم .

(١) الهدّة : صوت شديد تسمعه من سقوط ركن أو ناحية جبل . ويقال : الهدّة صوت ما يقع

فحمد إبراهيم ربّه على ذلك ، وذبح الكبش ؛ فأنت نار من السماء بغير دخان فأكلته حتى لم يبق إلّا رأسه ؛ وأنصرف إبراهيم وإسحاق ورأس الكبش معهما إلى منزل إبراهيم ، وأخبر سارة بما جرى .

قال : ثم توفيت سارة بعد ذلك ، وتزوج إبراهيم بامرأة من الكنعانيين وأولدها ستة أولاد في ثلاثة أبطن .

وإبراهيم أقول من صاح وعانق وفرق الشعر بالمشط وتنف الإبط وأستاك وأكتحل وأختن بالقدوم .

ذكر وفاة إبراهيم — عليه السلام —

قال : فبينما إبراهيم على باب داره ، وإذا هو بملك الموت وقد وافاه في أحسن صورة ؛ فسلم عليه ؛ فأجابه وقال : من أنت ؟ قال : أنا ملك الموت ، أمرني الله بقبض رُوحك . فكره إبراهيم الموت ؛ ثم تصوّر له في صورة شيخ كبير ، ودخل على إبراهيم وقال : هل من طعام ؟ فقُدّم إليه طعام على طبق ، فجعل ملك الموت يتناول الطعام ، ويخيّل إلى إبراهيم أنه يلوّث وجهه وعنقه ، وأنه لا يستقر في بطنه . فقال له إبراهيم : أيها الشيخ ، ما بال هذا الطعام لا يستقر في بطنك ؟ قال : يا خليل الله ، إني قد شخّنت ، ولست أتمكن منه إلّا على هذا الوجه . قال : فكم تعدّ من السنين ؟ قال : قد جرت مائتي سنة . قال إبراهيم : وأنا في المائتين إلّا سنة ، وإذا مضى على مائتين أصير كذا ؟ [قال : نعم^(١)] .

فدعا إبراهيم ربّه أن يقبضه . فجاءه ملك الموت ؛ فقال : يا ملك الموت قد آشتقت إليك منذ رأيت ذلك الشيخ على تلك الصورة ، فأقبض رُوحى . فقَبَضَ رُوحه صلى الله عليه وسلم .

(١) هذه العبارة لم ترد في الأصول . وقد أثبتناها عن (فصص الأنبياء للكسائي) المنقول عنه هذا الكلام .

الباب الثاني من القسم الثاني من الفن الخامس

في قصّة لوط — عليه السلام — وقلب المدائن

هو لوط بن هاران بن تارح ، وتارح هو آزر أبو إبراهيم — عليه السلام —
 وكان لوط قد شخّص مع عمّه إبراهيم — عليهما السلام — من المدائن إلى أرض
 الشام ، مؤمنا به ، مهاجرا معه ، ومع إبراهيم تارح وسارة بنت ماحور ؛ فلما آتتوها
 إلى حرّان هلك تارح بها وهو باق على كفره ؛ وسار إبراهيم ولوط وسارة إلى
 الشام ؛ ثم مضوا إلى مصر وبها فرعون من الفراعنة يقال له : سنان بن علوان
 ابن عبيد بن عوج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام ؛ ورجعوا إلى
 أرض الشام فنزل إبراهيم فلسطين ، وأنزل لوطا الأردن ، فكان هناك إلى أن
 بعثه الله نبيا . ١٠

قال : وأوحى الله — عز وجل — إلى إبراهيم أن يرسل لوطا نبيا إلى
 (سَدُوم) ، وكانت خمس مدائن ؛ وهي : (صامورا) (وصابورا) (وسَدُوم) (ودُومَة)
 (وعامورا) ، وهي المؤتفكات ، وكان أعظمها (سَدُوم) وعلى كلّ مدينة سور عظيم
 مبنيّ بالحجارة والترصاص ، وعليهم ملك يقال له : (سَدُوم) من بيت نمرود بن
 كنعان ، وكان أهل هذه المدائن قد خُصّوا بحذف الحصا والحق في المجالس
 وعبادة الأصنام ، وكانوا حسان الوجوه ، فأصابهم قحط ، فأتاهم إبليس فقال :
 إنما أصابكم القحط لأنكم منعتم الناس من دُوركم ولم تمنعوهم من بساتينكم . فقالوا :

(١) لم يذكر الآلوسي (صابورا) ولا (صامورا) ، وذكر مكانهما « مبعة » « وصعرة » ج ٣

ص ٥٩٤ . (٢) في تفسير الآلوسي ج ٣ ص ٥٩٤ طبع بولاق « دومي » مقصورا .

(٣) كذا ورد هذا اللفظ مضبوطا بالعبارة في تاج العروس مادة « حق » وهو الضراط . ٢٠

كيف السبيل إلى المنع؟ قال : اجعلوا السنة بينكم إذا دخل بلدكم غريب سلبتموه ونكحتموه في دبره ، فإذا فعلتم ذلك لم تقحطوا .

نخرجوا إلى ظاهر البلد فتصوّر لهم إبليس في صورة غلام أمرد ، فنكحوه وسلبوه ، فطاب لهم ذلك حتى صار فيهم عادة مع الغرباء ، وتعدّوا إلى أهل البلد ، وفشا بينهم ، فأرسل الله إليهم لوطا ، فبدأ بمدينة (سدّوم) وبها الملك ، فلما بلغ وسط السوق قال : يا قوم اتقوا الله وأطيعون وأرجعوا عن هذه المعاصي التي لم تسبقوا إليها ، وآتوها عن عبادة الأصنام ، فإنني رسول الله إليكم .

فكان جوابهم أن قالوا : ﴿ أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ .

وبلغ الخبر الملك ، فقال : « أَتُؤْنِي بِهِ » فلما وقف بين يديه سأله :
 ١٠ من أين أقبل ؟ ومن أرسله ؟ ولماذا جاء ؟ فأخبره أن الله أرسله . فوقع في قلبه الخوف والرعب ، وقال : إنما أنا رجل من القوم ، فأدعهم فإن أجابوك فأنا منهم . فدعاهم فقالوا : ﴿ لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ . فقال لهم : ﴿ إِنِّي أَعْمَلُكُمْ مِنَ الْفٰلِئِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

١٥ فلبث فيهم عشرين سنة يدعوهم إلى الله وهم لا يجيبونه .

ثم توفيت امرأته ، فتزوج بامرأة من قومه كانت قد آمنت به ، فأقام معها أعواما وهو يدعوهم حتى صار له فيهم أربعون سنة وهو يدعوهم بما أخبر الله به ويقول : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعٰلَمِينَ ﴾ الايات ، وهم لا يزدادون إلا كفرا وإصرارا وتماديا على أفعالهم الذميمة ، فضجّت

٥١

ذكر خبر نزول العذاب على قوم لوط وقلب المدائن

قد ذكرنا في قصة إبراهيم أن الله - عز وجل - أرسل الملائكة إليه وبشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، وأخبروه بما أمرهم الله به من إهلاك قوم لوط، وقال لهم : امضوا حيث تؤمرون .

- ٥ فاستووا على خيولهم ، وساروا إلى المدائن وهم على صفة البشر ، فأتوا المدائن وقت المساء ، فرأتهم أبنة لوط - وهي الكبرى من بناته وهي تستقي الماء - فتقدمت إليهم وقالت : ما لكم تدخلون على قوم فاسقين ؟ ليس يضيفكم إلا ذلك الشيخ . فعدلت الملائكة إلى لوط ، فلما رآهم أغتم غمًا شديدًا مخافة عليهم من شر قومهم ، ثم قال لهم : من أين أقبلتم ؟ قالوا : من موضع بعيد ، وقد حللنا بساحتك ، فهل لك أن تضيفنا الليلة ؟ قال : نعم ، ولكن أخاف عليكم من هؤلاء الفاسقين - عليهم لعنة الله - قال جبريل لإسرافيل : هذه واحدة - وكان الله قد أمرهم ألا يدمروا على قومهم إلا بعد أربع شهادات من لوط ولعنته عليهم - ثم أقبلوا إليه وقالوا : يا لوط ، قد أقبل علينا الليل ، فأعمل على حسب ذلك . قال : قد أخبرتكم بأن قومي يأتون الرجال من العالمين - عليهم لعنة الله - فقال جبريل لإسرافيل : هذه ثانية . ثم قال لهم لوط : انزلوا عن دوابكم وأجلسوا ها هنا حتى يشتد الظلام ، وتدخلون ولا يشعر بكم أحد منهم - عليهم لعنة الله - قال جبريل : هذه الثالثة . ثم مضى لوط والملائكة وراءه ، فدخل المنزل ، وأغلق الباب ، وقال لأمراته : إنك قد عصيت الله أربعين سنة وهؤلاء يضيفاني قد ملأوا قلبي خوفًا ، فأكتمى على أمرهم حتى يغفر الله لك ما مضى . قالت : نعم . ثم خرجت وبيدها سراج كأنها تُشعل ، فطافت على عدة
- ١٥
- ٢٠

من القوم ، فأخبرتهم بجهلهم وحسنهم ، فعلم لوط بذلك ، فأغلق الباب وأوثقه ، فأقبل الفساق وقرعوا الباب ، فناداهم لوط : ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ ثم كسروا الباب ، ودخلوا ، فقالوا له : ﴿ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

فوقف لوط على الباب الذي دونه ضيفانه وقال : لا أُسَلِّمُ ضَيْفَانِي إِلَيْكُمْ دُونَ أَنْ تَذْهَبَ نَفْسِي .

- فتقدم بعضهم ولطم وجهه ، وأخذ بلحيته ، ودفعوه عن الباب ، فقال : أَوْه ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ ثم قال : إلهي خذ لي بحقي من هؤلاء الفسقة وآلعتهم لعنا كبيرا . فقال جبريل عند ذلك : هذه أربعة . وقام جبريل .
- ١٠ ففتح الباب وقال للوط : ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ فهجم القوم . ودخلوا وبادروا نحو الملائكة ، فطمس الله أعينهم ، وأسودت وجوههم . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ فجاءت طائفة أخرى ونادوهم : اخرجوا لدخل . فنادوا : يا قوم ، هؤلاء قوم سحرة سحرنا أعينا فأخرجونا . فأخرجوهم ، وقالوا : يا لوط ، حتى تصبح نريك وبناتك . وخرجوا
- ١٥ فقال لوط للملائكة : بماذا أرسلتم ؟ فأخبروه ، فقال : متى ؟ قالوا : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ .

- ثم قال له جبريل : ﴿ فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ﴾ بجمع لوط أهله وبناته ومواشيهم ، وأخرجه جبريل من المدينة ، وقال له : ﴿ إِنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ ومضى لوط
- ٢٠

بمن معه ، وجبريل قد بسط جناح الغضب ، وإسرافيل قد جمع أطراف المدن
ودريائيل قد جعل جناحه تحت الأرض ، وملك الموت قد تهيأ لقبض أرواحهم
حتى إذا برز عمود الصبح صاح جبريل صيحة : يا بئس صباح قوم كافرين .
وقال ميكائيل : يا بئس صباح قوم فاسقين . وقال دريائيل : يا بئس صباح قوم
ظالمين . وقال إسرافيل : يا بئس صباح قوم مجرمين . وقال عزرائيل : يا بئس
صباح قوم غافلين .

فاقتلع جبريل هذه المدن عن آخرها ، ثم رفعها حتى بلغ بها الى البحر الأخضر
وقلبها ، فجعل عاليها سافلها . قال الله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾
يعنى رمى الملائكة إياهم بالحجارة من فوقهم .

قال : وأستيقظ القوم ، وإذا هم بالأرض تهوى بهم ، والنيران من تحتهم
والملائكة تقذفهم بالحجارة .

قال : ومن كان من القوم بغير مدائنهم ممن كان على دينهم وفعلهم أتاه
حجر فقتله .

قال : وبقي يخرج من تحت المدائن دخان متن ، لا يقدر أحد يُسمِّه
لنته ، وبقيت آثار المدائن . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً
لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

قال : ومضى لوط الى إبراهيم — عليهما السلام — فذلك قوله عز وجل :
﴿ وَلَوْ طَا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا
قَوْمَ سَوَاءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

(١) فى إحدى نسخ الكسائى : « تلك » مكان قوله : « تحت » .

الباب الثالث من القسم الثاني من الفن الخامس

في خبر إسحاق ويعقوب — عليهما السلام —

قال : ولما قبض الله تعالى إبراهيم الخليل — عليه السلام — سكن إسماعيل الحرم ، وإسحاق الشام ومدين ، وسكن معه سائر أولاد إبراهيم ، وبعثه الله إلى الأرض المقدسة نبيا ورسولا ، فأقام بينهم نحوًا من ثمانين سنة ، وكف بصره فبينما هو نائم إلى جنب امرأته إذ تحركت شهوته ، فقالت : وفيك بقية يا إسحاق؟ فواقعها مرة فحملت بذكرين : وهما يعقوب والعيص — على ما ذكرناه في الأنساب — وهو في الباب الرابع من القسم الأول من الفن الثاني ، وهو في الجزء الثاني من هذا الكتاب ، وذكرنا أيضا أولاد العيص فيه .

قال : ثم قبض الله تعالى نبيه إسحاق ، فقسم ما كان له من بقر وخيل وغنم وغير ذلك بالسوية ، ومات ، فغلب العيص على مال يعقوب ، وأغتصبه إياه وقصد قتله ، فقالت له أمه : الحق بخالك (لابان) وإخوته بختران ، فإنهم مؤمنون من آل إبراهيم .

فتوجه يعقوب إلى حران ، فأكرمه خاله ، وزوجه أخته ، وسلم إليه ما بيده من المال ، وكانت أخته هذه الكبرى ، وأسمها (ليا) ^(١) فرزق منها روبيل ^(٢) وشمعون ، ثم ذكرين : لاوى ويهوذا ، وتوفيت ، فزوجه خاله أخته الثانية وأسمها

(١) كذا ضبط هذا الاسم بكسر اللام في فهرست تاريخ الطبري المطبوع في أوروبا . والذي في التوراة

ص ٤٩ « لينة » بفتح اللام وبالهمز في آخره . (٢) كذا في تاريخ العيني . والذي في التوراة « رأوبين »

بفتح الراء . (٣) كذا ضبط هذا الاسم في القاموس بفتح الشين . وضبط في التوراة بكسرها ، وهو

شمعون الصفا . (٤) في التوراة : « لاوى » بكسر الواو .

(١) فولدت له ولدين : دانا ونفتالي ؛ ثم توقيت ، فزوجه الثالثة فأولدها سرورية ، فولدت له ولدين : دانا ونفتالي ؛ ثم توقيت ، فزوجه الثالثة فأولدها (٢) ذكرين يساخر وزبولون ، وماتت ؛ فزوجه آبنته الرابعة ، وأسمها راحيل — وكانت أحسن بناته — وذلك بعد أن استكمل يعقوب من عمره أربعين سنة ، بخاءه الوحي يومئذ وهو بجحزان وقد ماتت أمه .

ذكر مبعث يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام

قال : ولما أتاه الوحي أقبل على خاله لابان ، وشكره على فعله ، وقال : إن ربي بعثني رسولا إلى أرض كنعان . فزوده بخيل وغنم وبقر وغير ذلك ، وقال : امض لما أمرك به ربك . فخرج يعقوب ومعه أولاده العشرة وامرأته يريد أرض كنعان ، فبلغ خبر نبوته أحاه العيص ، فغضب لذلك ، وعارضه في طريقه بمجموعه ؛ فراسله يعقوب مع ابنه روبيل ، وذكره الأخوة والرحم ، فزبر روبيل وردته ؛ ثم التقيا ، فظفر الله يعقوب بالعيص بقوة النبوة ، فاحتمله وألقاه على الأرض وجلس على صدره ، وقال له : كيف رأيت صنع الله بك يا عيص ؟ ثم رق له وقام عن صدره وأعتنقه ، فأعترف العيص بفضله عليه ، وسأله أن يعفو عما سلف منه في حقه ؛ فاستغفر له يعقوب ودعا له ، وأنصرف العيص إلى بلده ، وأقبل يعقوب

(١) في تاريخ العيني وتفسير الآلوسی والنيسابوری وغيرها من الكتب أن دانا ونفتالي واثنين آخرين لم يذكرهما المؤلف هنا ، وهما جاد وآشر ، من سريتين ليعقوب ، إحداهما زلفة ، والثانية بلهة . وهذا هو ما يستفاد من التوراة أيضا . (٢) في تاريخ العيني وتفسير الآلوسی « يفتالي » بالياء مكان النون . والذي في الأصل هو ما في التوراة . (٣) كذا في الأصول وتاريخ العيني . والذي في التوراة « يساكر » بفتح الياء وتشديد السين وكاف بعد الألف . (٤) يلاحظ أن المؤلف لم يذكر فيما سبق من أولاد يعقوب غير ثمانية ، ولم يذكر ولديه من راحيل وهما يوسف وبنيامين . فقله هنا : « العشرة » غير ظاهر . ويؤخذ مما يأتي في صفحة ١٣٠ سطر ١٧ أنه لم يرزق بولديه من راحيل إلا بعد خروجه إلى أرض كنعان وغزوته للملكها . (٥) زبره ، أى اتهره .

إلى أرض كنعان ، فبنيت له دار متسعة ، سكنها بأهله وأولاده ، وكان بأرض كنعان ملك يقال له : سحيم ، فدعاه يعقوب إلى الإيمان بالله ، فلم يكثر به قال : فإنني مجاهدك . قال : بمن تجاهدني وليس معك أحد ؟ قال : أجاهدك بالله وملائكته وهؤلاء أولادي .

وأقبل يعقوب بأولاده والملك في حصنه ، فقال : يا بني ، جاهدوا في الله .
حق جهاده . فقال ابنه شمعون : أنا أكفيك هذا الحصن . وأقبل وضرب باب الحصن برجله فتساقطت حيطانه ، وصاح صيحة عظيمة فمات الملك وأكثر من بالحصن . ودخل يعقوب الحصن ، وغنم ما كان فيه ، فكانت هذه معجزة ليعقوب ، وبلغ ذلك أهل كنعان ، فوقع الرعب في قلوبهم ، فأمنوا بيعقوب — عليه السلام — .

الباب الرابع من القسم الثاني من الفن الخامس

في قصة يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام
وهذه القصة تدخل فيها بقية أخبار يعقوب وما كان من أمره ووفاته
وخبير الأسباط أولاده .

ذكر خبر ميلاد يوسف — عليه السلام —

قال : ولما رجع يعقوب من غزاته دخل على امرأته راحيل فحملت بيوسف وبنيامين أخيه ، فوضعتهما ، فجاء يوسف كالقمر ، فربته أمه حتى صار عمره سنتين ، وماتت أمه ، فلما بلغ عمره عشر سنين أمر يعقوب بجذعة من غنمه ، فذبحت ، وصنعت طعاما ، وجمع أولاده على الطعام يأكلون ، فأقبل

مسكين وسأل وأكثر السـؤال ، وأشتغل يعقوب عنه ولم يأمرهم بإطعامه ، حتى أنصرف السائل .

فلما فرغ يعقوب من أكله قال : أعطيت السائل شيئاً ؟ فقالوا : إنك لم تأمرنا بشيء . بخاءه الوحي : يا يعقوب ، قد جاءك مؤمن فقير مريض شم رائحة طعامك فلم تطعمه ، وأحرقت قلبه ، فلا تحرق قلبك . فأغم يعقوب .

ذكر رؤيا يوسف — عليه السلام — وكيد إخوته له

قال : ولما بلغ آتنتي عشرة سنة رأى رؤياه وقصّها على أبيه . قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَكَذَلِكَ يَحْتَبِكُ رَبُّكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

قال : فسمع إخوته الرؤيا ، فدخلهم الحسد ، وقالوا ما أخبر الله به عنهم : ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَحُلْ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .

قال : فاتفقوا وجاءوا إلى أبيهم ، فقالوا : ﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ . فقال لهم يعقوب : ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴾ .

قال : وأحب يوسف ذلك ، فدعا يعقوب بسلة فيها طعام وكوز ماء ، وقال :
 إذا جاع فأطعموه من هذا الطعام ، وإذا عطش فاسقوه ، وأخذ عليهم العهود برده
 وشييعهم بنفسه ، وجلس على تل عال ينظر إليهم حتى غابوا عنه ، فندم على إرساله
 ثم رجع إلى منزله ، وجعل إخوة يوسف يُعْذِرُونَ في السير ، وهو يمشي وراءهم ولا
 يلحقهم ، ويناديهم : « قفوا لي » . فلم يقفوا . ويقول : « اسقوني » . فلم
 يسقوه ، وكسر شمعون الكوز وقال : قل لأحلامك الكاذبة حتى تسقيك . ورمى
 (لاوى) سلة الطعام في الوادي ، فعلم يوسف أنهم قد عزموا على أمر ، فناداهم
 وناشدهم الله والرحم ، وذكّرهم بعهود أبيه ، فلطمه أحدهم فأكبه ، وساروا ويوسف
 يعدو وراءهم حتى بلغوا موضع أغنامهم ، فأرادوا قتله ، فقال لهم يهوذا : إن قتلتموه
 حلّ بكم ما حلّ بقايل حين قتل أخاه . فأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الحب
 وطلبوا له جباً عميقاً فوجدوه ، فجثروا إليه وهو يبكي ، فقال لهم يهوذا : يا بني يعقوب
 لقد ذهبت الرحمة من قلوبكم . قالوا : فردّه إلى أبيه فيحدثه بما فعلناه به ؟ قال :
 فإن طرحتموه في الحب لا يبلغ قعره حتى يموت ، ولكن دلّوه بحبل . ولم يكن
 معهم حبل ، فذبخوا شاة ، وقذّوا جلدها كالحبل ، ودلّوه به ، فلما نزل إلى الحب
 أمّلاً نورا ، وأتاه جبريل وقال له : لا تخف فإن الله معك . وكان في الحب
 حجر عظيم ، فسطّحه جبريل بجناحه فصار كالطبق وأجلسه فيه ، وأتاه بطعام
 من الجنة فأكل ، وأتاه بقميص فلبسه ، وبفراش من الجنة ، وآنسته الملائكة
 في الحب .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْحُبِّ وَأَوْحَيْنَا
 إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

قال : ثم قالوا : ماذا نقول لأبينا ؟ قال بعضهم : إنه كان يخاف عليه من الذئب ، فنقول : إن الذئب أكله . فعمدوا إلى جدى فذبجوه على قميصه ، وألصقوا بالدم شيئا من شعر الجدى ، ورجعوا إلى أبيهم .

ذكر رجوع إخوة يوسف إلى يعقوب

قال : ولما قَرَّبُوا من عريش يعقوب أخذوا في البكاء والعويل ، فرأتهم آمنة يعقوب ، فنزلت إلى أبيها باكية ، وقالت : رأيت إخوتي متفرقين يبكون ، وروبيل يقول : « يا يوسف يا يوسف » . فصاح يعقوب ، وخرّ على وجهه ، فدخلوا عليه وقالوا : يا أبانا ، جلت المصيبة وعظمت الرزية ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّيْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلًا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ وأخذ يعقوب القميص ، ونظر إليه فلم يرفيه أثر خدش فقال : يا بني ، ما للذئب وأكل أولاد الأنبياء ؟ وأخذ يبكي ، ثم قال : أخرجوا في طلب هذا الذئب ، وإلا دعوت عليكم فتهلكوا . فخرجوا فأخذوا ذئبا عظيما وجعلوا يضربونه ويحترقونه ، حتى جاءوا به إلى أبيهم ، فقال : كيف عرفتموه ؟ قالوا : لأنه ذئب كبير ، وكان يتعرض لنا في غنمنا .

ذكر كلام الذئب بين يدي يعقوب

فقال يعقوب : سبحان من لو شاء لأنطقك بحجتك . فنطق الذئب وقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يا نبى الله ، إني ذئب غريب ، فقدت ولدا لي بجئت في طلبه حتى بلغت بلدك ، فأخذني هؤلاء وضربوني وكذبوا على ، والذي أنطقني ما أكلت ولدك ، وكيف يأكل الذئب أولاد الأنبياء ؟ فأطلقه يعقوب .

ذكر خبر خروج يوسف من الحبّ وبيعه من مالك بن دُعر

قال : وأقبل قوم من بلاد اليمن يريدون أرض مصر، فخرج بعضهم في طلب الماء، فرأى نورا يسطع من البئر، فأدلى دلوّه، فتعلّق به يوسف، فأجذبّه، فنظر إليه فرآه، فقال للذى كان معه : ﴿ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ ﴾ . فأخرجوه .

٥ قيل : وذلك في اليوم الرابع من إلقائه في الحبّ، وكان إخوته على رأس جبل فنظروا إلى اجتماع القافلة على الحبّ، فعدّوا إليهم، وقالوا : هذا عبد لنا أبق منذ أيام، ونحن في طلبه، فإن أردتم بعناه منكم .

ثم قالوا ليوسف بالعبرانية : إن أنكرت العبوديّة أنزعناك من أيديهم وقتلناك . فسأله أهل القافلة فقال : « إني عبد »، أراد الله .

١٠ وكان رئيس القافلة مالك بن دُعر، فاشتراه منهم بأقل من عشرين درهما . قيل : تنقص درهما . وقيل : تزيد درهمين . وقيل : اشتراه بأربعين درهما والله أعلم . فاقسموها بينهم .

قال الله تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخِيسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ ثم قالوا لمالك : هذا عبد أبق سارق، قيّده حتى لا يهرب منك ولا يسرق . فقيدوه وأركبه ناقة، وكتب يهـ - وذا كتاب البيع، وساروا حتى بلغت القافلة قبر أم يوسف، فلم يتمالك أن رمى بنفسه على القبر وبكى؛ فافتقدوه فلم يروه، فبعثوا في طلبه، فوجدوه وقد آتكا على القبر، فلطمه واحد منهم، وقالوا : هلا كان هذا البكاء قبل اليوم حتى كنا لا نشتريك؟ وساروا به حتى دخلوا مصر، فغيّر مالك لباس يوسف، وعبر به، فاجتمع الناس على القافلة، ورأوا يوسف فعجبوا لحسنه

ذكر خبر بيع يوسف من عزيز مصر

قال : وواعدوا مالكا على بيعه بباب الملك ريان بن الوليد ، فزين يوسف بأحسن زينة ، وأقعده على كرسى^(١) ، وأقبل عزيز مصر وأسمه قُطْفِير^(١) ، واجتمع التجار وقام الدلال ونادى عليه ؛ فبكى يوسف ، وتزايد القوم حتى بلغ يوسف مالا لا يحصى كثرة ؛ وأستقر بيعه من قُطْفِير^(١) ، وأحضر الأموال .

وقد اختلف الرواة في كمية الثمن ، فمنهم من لم يحده ، بل قال : مالا كثيرا .
ومنهم من قال : إن عزيز مصر تلقى القافلة ، واشتراه من مالك بن دعر بعشرين ديناراً ، ونعلين ، وثوبين أبيضين . وقد عُرِى هذا القول إلى ابن عباس — رضى الله عنهما — .

وَرُوى عن وهب بن منبه أنه أقيم في السوق ، وتزايد الناس في ثمنه ، فبلغ ثمنه وزنه مسكا وورقا وحريرا ، فأبتاعه العزيز بهذا الثمن .

نرجع إلى سياق الكسائى :

قال : فوقف عليه رجل من بلاد كنعان على ناقة ، فمدت عنقها ، وجعلت تَشُم يوسف ، فسأل يوسف صاحب الناقة بالعبرانية : من هو ؟ فأخبره أنه من أرض كنعان ؛ فقال له : أقرئ يعقوب سلامى اذا رجعت ، ووصف له صفتى .
فلما عاد الكنعانى أخبر يعقوب بذلك ؛ فقال يعقوب : سلنى حاجة بهذه البشارة . قال : أدع لى أن الله يُكثِر ولدى ومالى . فقال : اللهم أكثر ولده وماله وأدخله الجنة .

(١) كذا وجدنا هذا الاسم مضبوطا بالعبارة فى هامش تاريخ العيني ورقة ٩٧ من الجزء الثانى قسم ١ عن النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ .



قال : ثم دنا مالك من يوسف فقال له : أنا يوسف بن يعقوب بن إبراهيم الخليل ، وأخبره بخبر إخوته . فصاح مالك وقال : والله ما علمت فاستغفر لي فإني من أولاد مدين بن إبراهيم . فبكى يوسف ، وقال له مالك : أسألك أن تدعو الله يرزقني ولدا . فدعا الله فرزقه أربعة وعشرين ولدا ، وعاش مالك حتى رأى يوسف وهو عزيز مصر .

قال : ودخل قطفير منزله و يوسف معه ، فرأته زليخا — وكانت أحسن نساء زمانها — فقال لها زوجها قطفير : قد اشتريت هذا الغلام لتتخذه ولدا فإنا لم نرزق ولدا . قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَأَمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۖ ﴾ .

ذكر خبر يوسف وزليخا

قال : ولما رأته زليخا عجبت لحسنه ، ولاطفته ، وقالت : لا ينبغي لمثلك أن يباع عبدا . ويوسف ساكت ، وكان لا يأكل من ذبائحهم ، فقالت له : لم لا تأكل من ذبيحتنا وتقبل كرامتنا ولي هذا البستان أريد أن تحفظه . فقال يوسف : أفعل ذلك . فكان يوسف يتعاهده حتى عمر بركته ، وهو يأكل من نباته ، ف وقعت محبته في قلب زليخا ، فكتمت ذلك حتى كاد يظهر عليها ، فأتتها دأيتها ، وقالت : يا سيدة نساء مصر ، أخبريني بقصتك . فذكرت ما بها من حب يوسف ، فأمرتها أن تتزين بأحسن زيتها ، ففعلت ، وجلست على سرير وأحضرت يوسف ، فوقف بين يديها وهو لا يعلم ما يراد منه ، وأغلقت الداية أبواب المجلس من خارج ، فعلم عند ذلك مراد زليخا — وكان عمره ثمان عشرة سنة — ، قال

(١) لعل صواب العبارة « ثم دنا يوسف من مالك » عكس ما هنا ، كما يدل عليه سياق ما يأتي .

الله تعالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

قال : فرمت بتاجها وهمت به . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

قالوا : هم بضربها . وقيل : بردعها . وقيل : لما حصل عنده من الهم . ولا تعويل على ما نقله أهل التاريخ : أنه هم بها كما همت به .

قالوا : وكان البرهان الذي رآه أنه سمع صوتا من وراءه ، فالتفت ، فرأى صورة يعقوب وهو عاض على يديه يقول : « الله الله يا يوسف » .

وقيل : خرجت كف من الحائط مكتوب عليها : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ، ثم أنصرفت الكف وعادت زليخا لمراودته ، فخرجت الكف ثانية مكتوب عليها : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ ثم عادت فخرجت الكف ثالثة وعليها مكتوب : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ .

قال : فلما نظر يوسف إلى البرهان ، بادر إلى الباب ، فعادت زليخا خلفه فلحقته عند الباب ، فجذبت قميصه فقذته من دبر ، وإذا قطفير قد أقبل . قال الله تعالى : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَالْفَيَّا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾ .

قال : فلما نظرت زليخا إليه لطمت وجهها ، وقالت : أيها العزيز ، هذا يوسف الذي آتخذناه ولدا دخل يراودني عن نفسي .

ثم قالت : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال هي راودتني عن نفسي ﴿ فهم قطفير أن يضرب يوسف بسيف ، فأنجاه الله منه ،

وكان في المجلس صـغير ابن شهرين — وهو ابن داية زليخا — فتكلم بإذن الله وقال : لا تعجل يا قطفير ، أنا سمعت تحريق الثوب . قال الله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنَّ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ثم لم ينطق الصبي بعد ذلك حتى بلغ حد النطق ، وهذا الصبي أحد من تكلم في المهد . ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ ، وأقبل على يوسف وقال : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ الحديث لا يسمعه أحد . وقال لزليخا : ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ .

معين التاريخ
لأهل التارخ

ونخرج قطفير من منزله ، وعادت زليخا لمرأودته ، فامتنع عليها .

١٠ ذكر خبر النسوة اللاتي قطعن أيديهن

قال : وفشا في المدينة ، وشاع عند نساء الأكابر خبرها ، فعتبنها عليه ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ فلما بلغها ذلك من قولهن ﴿ أُرْسِلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾ .

(٥٦)

١٥ قال : استدعت امرأة الكاتب والوزير وصاحب الخراج وصاحب الديوان . وقيل : إن النساء اللاتي تكلمن في أمر زليخا امرأة الساقى وامرأة الخباز وامرأة صاحب الديوان وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب ، والله أعلم . قيل : إنها قدمت إليهن صوان الأترج وصحاف العسل : ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ وزينت يوسف ، وقالت : إنك عصيتني فيما مضى ، فإذا دعوتك الآن فأخرج . فأجابها إلى ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ ٢٠

إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿١﴾

قال: كنّ يا كان الأترج بالسكاكين فناهت من الدهش والحيرة ما قطعن أيديهن (١)
وتلوّث بالدماء ولم يشعرن؛ فقالت لهن زليخا ما حكاها الله عنها: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصِمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ .

وقيل: إن النساء خلون به ليعذّلهن لها، فراودته كلّ واحدة منهن عن نفسه لنفسها، ثم أنصرفن إلى منازلهن .

ثم دعت زليخا وراودته، وتوعدته بالسجن إن لم يفعل؛ فقال يوسف ما أخبر الله به عنه: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ .

قال: فلما أيسر زليخا منه مضت إلى الملك ريان بن الوليد— وكانت لا تُرد عنه — فقالت: إني أشتريت عبدا، وقد استعصى عليّ، ولا ينفع فيه الضرب والتوبيخ، وأريد أن أحبسه مع العصاة . فأمر الملك بحبسه، وأن يفرج عنه متى اختارت؛ فأمرت السجن أن يضيق عليه في محبسه وما كله ومشربه؛ ففعل ذلك؛ فأنكره العزيز، وأمر أن يُنقل إلى أجود أما كن السجن، ويُفك قيده، وقال له: لولا أن زليخا تستوحش من إخراجك لأخرجتك، ولكن أصبر حتى ترضى عنك ويطيب قلبها .

(١) يلاحظ أن المؤلف في هذه العبارة قد حذف عائد «ما» وهو قوله «بسببه» أو «به» مثلا . ويستفاد من كتب القواعد أن حذف العائد المجرور بالحرف جائز إذا تعين الجار كما هنا، ومنه قول الشاعر: * وأى الدهر ذولم يحسدوني * أى فيه انظر حاشية الصبان ج ١ ص ١٦٨ طبع بولاق .
(٢) يقال: «عدله» بتشديد اللام وتخفيفها، أى أقامه وسواه .

ذكر إلهام يوسف — عليه السلام — التعبير

ونزل جبريل على يوسف — عليه السلام — وبشّره أنّ الله قد ألهمه تعبير الرؤيا
فعرّفه بإذن الله عزّ وجلّ، وأنبت الله له شجرة في محبسه يخرج منها ما يشتهيّه .

ذكر خبر الخباز والساقى

قال : وغضب الملك ريان^(١) بن الوليد على ساقيه شرهيا ، وصاحب مطبخه
شرها^(٢) ، فأمر بحبسهما ، فحبسا في السجن الذى فيه يوسف ، فرأى الساقى رؤيا
فسأل أهل السجن عن تأويلها ، فدأوه على يوسف ، فأتاه وقال : قد رأيت رؤيا .
فقال له يوسف : قصّها . فقال : رأيت كأنى في بستان فيه كرمة حسنة ، وفيها
عناقيد سود ، فقطعت منها ثلاث عناقيد وعصرتها في كأس الملك ، ورأيت الملك
على سريره في بستانه ، فناولته الكأس فشربه ، وأنتهت .

١٠

فقال صاحب المطبخ : وأنا رأيت مثل هذه الرؤيا ، رأيت كأنى أخبز في ثلاثة
تناير : أحمر وأسود وأصفر ، ورأيت كأنى أحمل ذلك الخبز في ثلاث سلال إلى دار
الملك ، وإذا بطائر على رأسى يقول لى : قف فإنى طائر من طيور السماء . ثم سقط
على رأسى فجعل يأكل من ذلك الخبز ، والناس ينظرون إليه وإلى ، وانتهت فزعا .

١٥

فقال يوسف : بئسما رأيت . ثم قال للساقى : إنك تقيم في السجن ثلاثة أيام
ويخرجك الملك فيسلم إليك خزانته ، وتكون ساقيه وصاحب خزانته . وأنت يا خباز
بعد ثلاثة أيام تُضرب رقبتك وتُصلب وتأكّل الطير من رأسك . فقال الخباز : إني
لم أر شيئا ، وإنما وضعت رؤياى هذه . فقال : ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ .

(١) كذا ورد هذان الاسمان الذان تحت هذا الرقم في الأصول . ولم نجد فيما راجعناه من الكتب

٢٠

ما نطمئن اليه في تصحيحهما ، بل الكتب فيهما وفي أمثالها من هذه الأسماء القديمة مختلفة كل الاختلاف .

ثم قال يوسف للساقى : ﴿ أَذْكَرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ وأعلمه أننى محبوس ظلما .
فقال له : ما أبقي جهدا .

فلما كان بعد ثلاثة أيام كان من أمر الساقى والحباز ما قاله لهما يوسف .

ثم هبط جبريل على يوسف وقال : إن الله يقول لك : نسيت نعمائى عليك
فقلت للساقى يذكرك عند ربه ، وهما كافران ، فأنزلت حاجتك بمن كفر بنعمتى
وعبد الأصنام دونى .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أَذْكَرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَآنَسَاهُ
الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ .

قيل : الذى أنساه الشيطان ذكر ربه هو الساقى ، ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ
بِضْعَ سِنِينَ ﴾ وهو يبكى ويستغفر ويتضرع إلى الله ، فأوحى الله إليه : أنى قد غفرت
لك ذنبك ، وأنه سيخرجك من السجن ، ويجمع بينك وبين أهلك وإخوتك
وتصدق رؤياك . فخر ساجدا لله تعالى .

ذكر رؤيا الملك وتعبيرها وما كان من أمر يوسف وولايته

قال : وقدر الله عز وجل أن الملك — وهو الريان بن الوليد بن ثروان بن
أواسة بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن نوح عليه السلام — رأى فى تلك
الليلة رؤيا هالته ، فدعا بالمعبرين ، فقالوا : إن هذه ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ
بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ . فغضب الملك وقطع أرزاقهم ، وذكر الله الساقى ،
قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾
فتقدم إلى الملك وذكر له خبر يوسف — وكان بين المدين سبع سنين وسبعة

(١) عبارة الكسائى : « بين هذا الحديث وبين هذه الرؤيا » وهى أظهر .

- أشهر — فأرسله الملك إليه وقال : أخبره برؤياى وأتني بتأويلها . فأقبل الساقى إلى السجن وأجتمع بيوسف ، واعتذر له ، وأخبره برؤيا الملك ، وقال : هل عندك تعبير ذلك ؟ قال : لا أفعل حتى ترجع إلى الملك وتسأله ﴿ مَا بَالُ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ ، فرجع الساقى إلى الملك وأخبره ، فاستدعى النسوة ، فأتى بمن كان يعيش منهن ، فقال الملك : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . فلما قلن ذلك قال الملك : ﴿ آتُونِي بِهِ اسْتَخَاصُ لِنَفْسِي ﴾ ، فلما دخل عليه أجلسه معه على السرير ، وسأله عن اسمه ونسبه ، فأنسب له ، وذكر قصته مع إخوته ، فقال له الملك : قد سمعت ما رأيت في منامى . ثم قصها عليه ، فقال : رأيت سبع بقرات سمان في نهاية الحسن ، ولكل بقرة قرون كبيرة ، فحملتني واحدة على قرنيها ، فجعلت أصير من بقرة إلى بقرة حتى طفت على الجميع ، فبينما أنا كذلك وإذا بسبع بقرات عجاف مهازيل ، فعمدت فأكلت كل واحدة من المهازيل واحدة من السمان ، وبقيت التي أنا على قرنيها فلما تقدمت المهزولة لأكلها ، رمتني عن قرنيها ، فأكلتها المهزولة ، ثم صار للمهازيل أجنحة ، فطارَت ثلاث نحو المشرق وثلاث نحو المغرب ، وبقيت هناك واحدة ، فبينما أنا كذلك وإذا أنا بسبع سنبلات في نهاية الخضرة خرجن من ذلك الوادى ، ثم لاحت فيهن سبع سنبلات يابسات ، فالتفنن على الخضر حتى غلبن على خضرتهن ، وإذا بملك قد أقبل وقال : يا ريان ، خذ هذا الرجل فأقعده على سريرك ، فإنه لا يصلح ما رأيت إلا على يديه ، فهذا ما رأيت .
- فقال يوسف : أما السبع بقرات السمان فهي سبع سنين يكون فيها زرع وخصب ﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ﴾ فإنه أبقى له .

وأما البقرات العجاف، فإنها سبع سنين فيها قحط وضيق، فتأكل ما حصدمت في سنين الخصب ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ في بيوتكم .

وأما السنابل الخضر، فهي سنو الخصب، واليابسة سنو الجوع، والرجل الذي قال لك، أقعده على سريرك، فيكون صلاح ذلك على يديه فأنا هو، وقد أمرك ربي بهذا، فهذا تأويل رؤياك .

قال : فقال له ريان : أشر على الآن بمن أقدمه في هذا الأمر . فقال يوسف : ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ .

قال : كيف يتهيأ لك وأنت رجل عبراني لا تعرف لغة أهل مصر؟ فقال : إن الله ألهمني جميع هذه الألسنة يوم دخلت مصر . فترع الملك خاتمه، وجعله في اصبع يوسف، وقال لأصحابه : هذا عزيز مصر وخليفتي، فاسمعوا له وأطيعوا .

قال الثعلبي : قال أهل الكتاب : لما تمت ليوسف في الأرض ثلاثون سنة أستوزره فرعون مصر . وكان مرادهم - والله أعلم - أنه لما استكمل ثلاثين سنة من عمره .

وحكى الثعلبي أن الملك عزل العزيز وولى يوسف، ثم هلك العزيز عن قريب وكان يوسف يوم قضائه تُضرب له قبة من الديباج يجلس فيها للحكومة بين الناس

وبقية الأيام يدور في عمله ويأمر بالزراعة والحراث وعمر البيوت لخزن الحبوب بسنابلها، حتى ملأها، وخزن الأتبان حتى آنقضت سنو الخصب ودخلت سنو القحط، فنهى عن الزراعة فيها لعلمه أن الأرض لا تثمر فيها شيئاً، فأكلوا ما عندهم حتى نفد، فالتجأوا إلى الملك، فقال الملك : عليكم بالعزيز فإن في يده خزائن الطعام . فجاءوه، فباعهم في السنة الأولى بالدنانير والدرهم، وفي السنة الثانية بالحلي

والجواهر ، وفي الثالثة بالأراضي والعقار ، وفي الرابعة بالإماء والعبيد ، وفي الخامسة بأولادهم ، وفي السنة السادسة بأنفسهم ، حتى صاروا ملكا له وعبدا ، وأطعمهم في السنة السابعة لأنهم صاروا عبيده وإماءه ، والله أعلم .

ذكر حاجة زليخا إلى الطعام وزواج يوسف بها

يقال : إن زليخا أصابها من الحاجة ما أصاب غيرها ، وأبتاعت الطعام بجميع مالها ، وبقيت منفردة ، فلم تجد بدا من التعرض ليوسف ، فقعدت على طريقه وإذا هو قد أقبل في مواكب عظيمة ، فقامت وقالت : يا يوسف ، سبحان من أعز العبيد بالطاعة ، وأذل السادات بالمعصية ، أنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنتك من أولاد النبيين .

فسألها يوسف . من أنت ؟ فقالت : زليخا ، وبكت وذكرت حاجتها إلى الطعام ، فصرفها إلى منزلها ، ورد عليها أملاكها وأموالها ، وبعث لها بمال جزيل وطعام كثير ، ثم استأذن الله تعالى في زواجها ، فأذن له ، فتزوجها ، ورد الله عليها حسنها وجمالها ، فلما دخل عليها وجدها بكرا ، فعجب من ذلك ، فقالت : يابني الله « والذي هداني إلى دينك ما مستني ذكر قط ، وما قدر عليّ العزيز » .

فيقال : إنه رزق منها عشرة أولاد في خمسة أبطن .

وقد حكى الثعلبي أن العزيز قطفيرا لما هلك بعد عزله زوج الملك يوسف بامرأته زليخا ، وسماها الثعلبي في كتابه : « راعيل » .

قال : وآنشر القحط حتى بلغ أرض كنعان ، فقال يعقوب لبنيه : يا بني ، إنكم ترون ما نحن فيه من الضر ، وقد بلغني أن عزيز مصر تقصده الناس فيمتارون منه

ويحسن إليهم ، وأنه مؤمن بالله إبراهيم ، فاحملوا ما عندكم من البضاعة وتوجهوا إليه .
ففعّلوا ذلك وساروا .

قال : وأقبل مالك بن دُعر على يوسف ومعه أولاده ، وهم أربعة وعشرون ولداً ، كلّهم ذكور ، فوقف بين يديه وحيّاه بتحيّة الملك ، وقال : أيها العزيز أتعرفني ؟ قال : إني أشبهك برجل حملني إلى ها هنا . قال : أنا هو .

فقتربه وسأله عن الفتية ، فقال : هم أولادى رزقتهم ببركة دعائك . فكساهم وكفاهم من الطعام ، وسأله : هل مرّ بأرض كنعان ؟ قال : نعم وإنهم لفى جهد ، وقد رأيت الذين باعوك متى مقبلين عليك يريدون أن يمتاروا .
ففرح يوسف .

ذكر دخول إخوة يوسف — عليه السلام — في المرّة الأولى

قال : وأقبل إخوة يوسف فدخلوا مصر ليلاً ، وأناخوا رواحلهم بباب قصر أخيه ، فأشرف عليهم وقال : من أنتم ؟ قالوا : نحن أولاد يعقوب النّبىّ ، قدمنا من أرض كنعان لنشتري القوت . فسكت ، وأمر بتزيين قصره ، وبات إخوته على الباب .
وأصبح يوسف جالس على السرير ، وتنتّج وتمنطق وتطوق ، ثم امر بإخوته ، فدخلوا عليه — وهم عشرة ، وتأخر عنهم بنيامين عند أبيه — .

قال الله تعالى : ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ .
فسلموا عليه ، وحيّوه بتحيّة الملوك ، فردّ عليهم وقال لهم : إنكم أولاد يعقوب النّبىّ ، فكيف لى بصدقكم ؟ فقال له روبيل : نحن نأتيك بأخيّن الذى عند أبينا يخبرك بمثل ما أخبرناك به .

فامر بأخذ بضاعتهم ، وأن يكال لهم الطعام بقدر كفايتهم .

ثم قال لأعوانه : أَجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ . قال الله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَجْهَظَّهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُتُونِي بِأَخْ لَكُمْ مِنْ أَيْدِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ * قَالُوا سَنُؤَدُّ عَنْهُ آبَاءَهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ أَجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

فوضعت في رحل يهوذا ، ثم سار القوم حتى أتوا إلى أرض كنعان ، فدخلوا على أبيهم ، فسألهم عن حالهم وما كان من أمرهم ، وفتحوا رحالهم ، فوجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، فدخلوا على أبيهم وقالوا : يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا . فقال : إِنَّ هَذَا الطَّعَامُ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ إِلَّا أَنْ تُؤَدُّوا ثَمَنَهُ .

فقالوا : كيف نرجع إليه وقد ضمنا له أن نأتيه بأخيذا بنيامين ؟

ثم قالوا ما أخبر الله تعالى به عنهم : ﴿ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

فقال له يهوذا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ .

ودعا يعقوب بقميص يوسف الذي وردوا به عليه بالدم ، فألبسه بنيامين وودعهم وقال يَا بَنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ،

ذكر خبر دخولهم عليه في المرة الثانية

قال : فلمّا بلغوا مصر ودخلوا على يوسف قتر بهم ، ونظر إلى أخيه بنيامين وأدناه وأجلسه بين يديه .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ .

ثم قال له : أرى كلّ واحد من هؤلاء مع أخيه ، فما بالك منفردا ؟ فقال : أيها العزيز ، كان لي أخ ، ولا أدري ما أصابه ، غير أنّه خرج مع هؤلاء الإخوة إلى الغنم ، فذكروا أنّ الذئب أكله ، وردّوا قميصه هذا الذي علىّ وهو ملطخ بالدم .
فقال لهم يوسف : يا أولاد يعقوب ، إنّ فيكم من يصبح بالأسد فيختر ميتا ومن يأخذ برجل الذئب فيشقّه آثنين ، وفيكم من يقتلع الشجرة من أصلها ، وفيكم من يعدو مع الفرس فيسبقه .

قالوا : نعم أيها العزيز . فقال : سوءة لكم ولقوتكم إذ يعدو الذئب على أخيكم فيأكله . فقالوا : إذا جاء القضاء ذهبت القوى .

فسكت يوسف ، ثم أمر لهم بخمس موائد ، وأمر كلّ آثنين منهم أن يجلسا على مائدة ، ثم وضعت أخرى بين يدي بنيامين ، فبكى ؛ فقال له : ما يبكيك ؟ قال : أيها العزيز ، إخواني يا كلون كلّ واحد مع أخيه ، وأنا وحدي ، ولو كان أخي يوسف باقيا أكل معي .

فقال يوسف : يا فتى ، أنا لك كالأخ . ثم نزل عن السرير وأكل معه .

فلما فرغوا من الأكل جعل يوسف يسألهم عن أرض كنعان وهم يخبرونه .

ثم خرج صبيّ من القصر يتثنّى ، فنظر إليه بنيامين وبكى ؛ فقال له يوسف : ممّ بكيت ؟ قال : هذا الصبيّ يشبه أخي يوسف ، فبكيت لأجله .

فقال يوسف : هل فيكم من حزن على يوسف ؟ قالوا : نعم ، كلنا حزنا عليه
و بنيامين أشد منا حزنا .

ثم قال : فما الذى حلمتم من البضاعة ؟ قالوا : لم نحمل شيئا ، لأنه لم يكن لنا
شيء ، غير أننا رددنا عليك البضاعة التى وجدناها فى رحالنا ، لأنها ثمن الطعام الذى
حملناه من عندك .

فأمر أن يُعطوا من الطعام ما تحمله إبلهم ، وأمر غلمانه أن يجعلوا الصواع
فى رحل بنيامين ؛ فكانوا يكيلون وإخوة يوسف يخيطنون الأعدال ، حتى فرغوا .
ورحل إخوة يوسف وهم لا يشعرون بالصواع .

وقال الثعلبي : كانت السقاية مشربة يشرب فيها الملك ، وكانت كأسا من
ذهب مكللة بالجوهر ، جعلها يوسف مكيالا يكال بها .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ
مُؤَذِّنٌ أَتَيْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ أَسَارِقُونَ * قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا تَفْقِدُ صُوعَ
الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ
فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ
وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ .

فعند ذلك أمر يوسف أن تفتش رحالهم . قال الله تعالى ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ
قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ الآية .

قال : فلما نظروا ذلك ضربوا بأيديهم على جباههم ، وقالوا : ثكلتك أمك
فضحنتا يا بنيامين . قال : إني لم أفعل ذلك . قالوا : من وضعه فى رحلك ؟

قال : الذى جعل البضاعة فى رحالكم . فسكتوا ، ثم قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شرمكانا والله أعلم بما تصفون .

قال الثعلبي : واختلف العلماء فى السرقة التى وُصف بها يوسف ، فقال سعيد وقتادة : سرق يوسف صنما لجدّه أبى أمه وكان من ذهب ، فكسره وألقاه فى الطريق .

وقال ابن جريح : أمرته أمه — وكانت مسلمة — أن يسرق صنما لحاله كان يعبدّه .

وقال مجاهد : جاء سائل يوما ، فسرق يوسف بيضة من البيت .

وقال ابن عيينة : دجاجة ، فناولها السائل ، فعيّروه . ١٠

وقال وهب : كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء .

وقال الضحاك وغيره : كان أول ما دخل على يوسف من البلاء أن عمته بنت إسحاق كانت أكبر ولد إسحاق ، وكانت لها منطقة إسحاق ، وكانوا يتوارثونها بالكبر ، وكانت راحيل أم يوسف قد ماتت ، فحُضِنَتْهُ عَمَّتُهُ وأحبته حبّا شديدا فكانت لا تصبر عنه ، فلما ترعرع وبلغ سنّيات وقع حبه فى قلب يعقوب ، فأتاها وقال : يا أختاه سلمى إلى يوسف ، فوالله ما أصبر عنه ساعة واحدة . فقالت : ما أنا بتاركته . ١٥

فلما غلبها يعقوب قالت : فدعه عندى أياما أنظر إليه ، لعل ذلك يسلىنى عنه . ففعل ذلك يعقوب ، فلما خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وهو صغير ، ثم قالت : لقد فقدت منطقة إسحاق ٢٠

فانظروا من أخذها . فالتُست فلم توجد ؛ فقالت : اكشفوا أهل البيت . فكشفوهم ، فوجدوها مع يوسف ؛ فقالت : والله إنه ليُسَلَّم لي أصنع فيه ما شئت — وكان ذلك حُكْمَ آل إبراهيم في السارق — فأُتاهَا يعقوب ، فأخبرته بذلك ؛ فقال : إن كان فعل ذلك فهو يُسَلَّم إليك ، ما أستطيع غير ذلك .

فأمسكته بعلّة المنطقة ، فما قدر يعقوب عليه حتى ماتت ، فهو الذى قال له .
 إخوته : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل . قالوا يأيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدا مكانه إنا نراك من المحسنين * قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون * فلمّا استئسوا منه خلصوا نجيا أى يتناجون قال كبيرهم ألم تعلموا أن أبائكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين *
 أرجعوا إلى أبيكم فقولوا يابانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين .

قال : ثم تشاوروا فقالوا : إن هذا الملك وأهل مصر كفرة يعبدون الأصنام فتعالوا نتظاهر عليهم .

قال روبيل : أنا أ كفيكم الملك وأعوانه .

وقال شمعون : أنا أ كفيكم أمر العزيز وأعوانه .

وقال يهوذا : أنا أ كفيكم الأسواق .

فعلم يوسف بذلك ، فأحضرهم وقال : يا بني يعقوب ، ما الذى غرّكم منى ؟ أحسنتُ إليكم مرة بعد مرة ، وتفضّلت عليكم ، وجنى أخوكم جناية فتشاورتم في هلاك المدينة وأهلها ، أظنون أن هذه القوة لكم دون غيركم ؟ ثم ضرب برجله

السُّدَّةُ التي كان عليها فطحطحها وكسر صفاح رخامها ؛ ثم قال : لولا أنكم من أولاد الأنبياء لصحت بكم صيحة تخزون على أذقانكم .

قال : وكان يهوذا قد عزم على أن يفعل شيئاً ، وكان على كتفه شعرةٌ إذا غضب خرجت من جيبته فيقطر منها الدم ، ثم يصبح صيحة فلا يسمعها أحد إلا سقط مغشياً عليه ؛ وكان لا يسكن غضبه إلا أن يمسه أحد من آل يعقوب ؛ فدعا يوسف بابنه مَنَسًا وقال : اذهب الى ذلك الكهل فمسسه بيدك ، وتتح عنه من حيث لا تشعر بك . ففعل ذلك ، فسكن غضبه ؛ فقال يهوذا لإخوته : من الذى مسنى منكم فقد سكن غضبي . قالوا : لم يمسه غيرُ ذاك الصبي . فقال : والله لقد مستنى يد من آل يعقوب .

فلما عسر عليهم ما عزموا عليه ، عزموا على العود إلى أبيهم ، وتركوا روبيل عند بنيامين .

قال : فلما أنصرفوا دخل يوسف إلى منزله وأحضر بنيامين ، وقال : أتعرفنى؟ قال : نعم ، أنت العزيز ، والله ما سرقْتُ ، فلا تعجل علىّ ، فإنك موصوف بالإحسان . فضمه يوسف إلى صدره ، وقال له : أنا أخوك يوسف . ثم كساه وسأله عن أبيه ، فأخبره بما يقاسيه من أجله .

قال : ورجع إخوة يوسف إلى أبيهم فذكروا ما كان من خبر بنيامين ، وأن روبيل أقام عنده .

قال : وكيف يسرق ولدى وهو من الذرية الطيبة؟ فقالوا له : وآسأل القرية التي كُنا فيها والغير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون * قال بل سَوَّلْتُ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وتولى عنهم وقال يا أسفى

قال : وأخذ في البكاء حتى ضجر منه جيرانه ، فأوحى الله إليه : أن كف عن بكائك فإنني سأرد عليك بصرك ، وأجمع بينك وبين ولدك . فسكن وهدأ ، ثم قال لبنيه : احملوا كتابي إلى العزيز . ودعا بآبنته (دينّة) وقال لها : اكتبني ، باسم إله إبراهيم ، من يعقوب إلى عزيز مصر ، إن الله أكرمني بولد كان أحب أولادي إلى وقد فقدته وبكيت عليه حتى عميت ، وكنت آنس بأخيه بنيامين الذي حبسته عندك ، وعجبت من أمر الصّواع ، فإن أولاد الأنبياء لا يفعلون ذلك ، وإنه مكذوب عليه ، فإذا أتاك كتابي هذا ففضل عليّ بولدي وردّه عليّ فإنني أدعو الله أن يزيدك فضلاً وكرامة .

(٦١)

وسلم الكتاب اليهم ، وقال : يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَسَّسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ الْآيَةِ .

١٠

ذكر خبر دخولهم عليه في الدفعة الثالثة

قال : وساروا حتى دخلوا مصر ، فاستقبلهم روبيل ودخل معهم ، فلمّا دخلوا عليه قالوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَانَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ، وناولوه الكتاب ، فقبله وقرأه ، ثم قال لهم : لو كنتم حملتم إلى هذا الكتاب قبل اليوم دفعته لكم ، ولكنني قد ألفت حديثه إلى الملك ، وأنا أكلّمه فيه .

١٥

ذكر خبر حديث الصّاع

قال : ثم أمر يوسف بإحضار الصّاع بين يديه وقال : اجتمعوا حتى أسأل هذا الصّاع عنكم . فنقر الصّاع فطن ، فقال : يا بني يعقوب ، إن هذا الصّاع يقول : إنكم تشهدون بالزور ، وإنكم كذبتُم في قولكم : إن الذئب أكل أخاكم .

٢٠

قالوا : ما شهدنا بالزور قط ، وما قلنا في يوسف إلا الحق . فنقر الصاع وقال :
 أتدرون ما يقول ؟ إنه يقول : إنكم حسدتم أخاكم ، وأخرجتموه من عند أبيه
 وأردتم قتله ، ثم ألقيتموه في الحب المظلم البعيد القعر . ثم نقر ثالثا وقال : إنه
 يقول ، ما كذبتك فيما أقول ، ولقد أخرجوا أخاهم من الحب فباعوه بعشرين درهما
 عددا تنقص درهما ، وأوصوا مشتريه أن يقيده حتى يبلغ أرض مصر . فتغيرت
 وجوه القوم ، وقالوا : ما نعرف شيئا من هذا . ثم نقره رابعا وقال : إنه يقول :
 وكتبوا كتاب البيع بخط يهوذا . فقال : أيها العزيز ، إني لم أكتب شيئا وأنكره .
 فقال : مكانكم حتى أعود إليكم . ودخل على زليخا وقال : هاتي تلك الصحيفة .
 فأخرجتها له ، فأخرجها إلى يهوذا وقال : أتعرف خطك ؟ قال : نعم . فألقاها إليه
 ١٠ فرآها وهي خطه ، فقال : هي خطي ، "غير أنني لم أكتبه باختياري ، وإنما كتبه
 على عبد أبق منّا" .

فغضب يوسف وقال : أستم ترعمون أنكم من أولاد الأنبياء ، ثم تفعلوا مثل هذا .
 ثم قال لأعوانه : انصبوا عشرة أشجار على باب المدينة حتى أضرب أعناق هؤلاء
 وأصلبهم ، وأجعلهم حديثا لأهل مصر . فبكوا وقالوا : اقتلنا كيف شئت ولا تصلبنا .
 ١٥ وأقبل بعضهم على بعض وقالوا : هذا جزاؤنا بما عاملنا به أخانا . فلما أقروا
 كلهم بالذنب ، رفع التاج عن رأسه ، وقال : هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ
 إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ، وكان في رأسه شامة مثلها في رأس يعقوب ، فلما نظروا إلى
 الشامة عرفوها وقالوا : إِنَّكَ لَأَنْتَ يُّوسُفَ قَالَ أَنَا يُّوسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ
اللَّهُ عَلَيْنَا إِلَى قَوْلِهِ : وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

٢٠ (١) يلاحظ أن وجه المقابلة غير ظاهر بين قوله : «لم أكتبه باختياري» وقوله : «وإنما كتبه

فعمد يوسف إلى قميصه ، وجعله في قصبه من فضة ، ودفعه إلى يهوذا
 وخلع عليهم وطيبهم ، وقال : اذهبوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقَوُّهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ
 بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ . فخرجوا ، وسبقهم يهوذا بالقميص . قال
 الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنَّ
 تَفَنَّدُونِ ﴾ .

قال : لما فصلت العير من أرض مصر حملت الريح رائحة القميص
 فشمها يعقوب ، فقال ذلك . ومعنى (تفندون) ، أى تكذبون . فقال له أهله :
 — وقيل : بنو بنيه — تالله إنك لفي ضلالك القديم ، معناه فى حبك القديم
 ليوسف .

١٠ فلما وصل يهوذا بالقميص ودخل على يعقوب ألقاه على وجهه وقال :
 خذها بشارة . فعاد بصره من ساعته ، وخرّ ساجدا لله . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا
 أَنَّ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ الآية .

وجاء بنوه وقالوا : يا نبي الله ، نحن الذين غيبنا يوسف عنك ، ونحن الذين
 تيناك بنجره وهو عزيز مصر . ثم قالوا يَا أَبَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا
 خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

١٥ قال : وجاءه جبريل بناقة من نوق الجنة ، فاستوى عليها ، وخرج من أرض
 كنعان يريد مصر ومعه أولاده وأهله ، وهم ثمانية وسبعون إنسانا ، فدعا لهم يعقوب
 فما دخل أولاده مصر إلا وقد غفر لهم ، وخرج يوسف لملتقى أبيه ومعه خلق كثير
 فلما رآه يوسف ترجل عن فرسه وأبرك يعقوب ناقتة ، وأعتنقا وبكيا ، وقال
 يوسف : اذهبوا إلى أهلكم .

قال الله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ يعني الأب والخال ، ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

قال : وكان بين مفارقتة ووقت الاجتماع أربع وثلاثون سنة .

وقال الحسن : كان بين خروج يوسف إلى يوم الالتقاء معه ثمانون سنة لم تجف عيناه .

وأقام يعقوب بمصر أربعين سنة . وقيل : أربعاً وعشرين سنة ؛ ثم أمره الله أن يرتحل إلى أرض كنعان لاقتراب أجله ، فارتحل ومات هناك ، ودفن إلى جانب أبيه إسحاق .

وحكى الثعلبي — رحمه الله — أن يعقوب مات بمصر ، وأوصى يوسف أن يحمل جسده إلى الأرض المقدسة حتى يدفنه عند أبيه إسحاق وجدّه إبراهيم ، ففعل ذلك ، ونقله في تابوت من ساج إلى البيت المقدس ، وخرج معه في عسكره وإخوته وعظماء أهل مصر ، ووافق ذلك اليوم وفاة عيصو ، فدفنا في يوم واحد ، وكان عمرهما جميعاً مائة سنة وسبعا وأربعين سنة ، لأنهما ولدا في بطن واحد ، وقبرا في قبر واحد .

ذكر دعوة يوسف — عليه السلام — وأرتحاله عن بلد الريان

قال : ثم إن يوسف — عليه السلام — دعا أهل مصر إلى الإيمان سرّاً وعلانية ، فأمن به كثير منهم ، وكسروا الأصنام ، وصارت الغلبة للمسلمين ؛ فاستدعاه ريان بن الوليد وقال له : أيها العزيز ، إن أهل مصر كانوا يحبّونك وقد كرهوك بسبب أديانهم ، فما لك وأديانهم ؟ فقال يوسف : قد بلغني ذلك

وأنا رادّ عليك ما خولتنيه ، ومتحول عنك وعن قومك بأهل ملّتي ، فإنّني لا أحبّ أن أكون من عبدة الأوثان .

ونخرج يوسف هو وأولاده وإخوته وقومه الذين آمنوا حتى نزل الموضع الذي استقبل أباه يعقوب عنده ؛ فجاءه جبريل وخرق له نهرا من النيل إلى هناك ، وهو نهر الفيوم ، ولحق به كثير من الناس ، وآمنوا ، وآبى مدينتين وسمّاهما بالحرمين .
وكان لا يدخلهما أحد إلّا يلّبي يقول : « لبيك يا مفضل إبراهيم بالنبوة لبيك » .
ولم يكن بأرض مصر أعمر منهما ، وسار يوسف في قومه سيرة الأنبياء حتى مات .

ذكر خبر وفاة يوسف — عليه السلام —

قال : ولمّا أدركته الوفاة أوصى إلى ابنه (أفرايم) أن يسوس قومه بالواجب وأن يكون معاندا لأهل مصر الذين يعبدون الأوثان ، ويجاهدهم في الله حقّ جهاده ؛ ثم توفّي ، وكانت زليخا قد ماتت قبله ، وما تزوّج بعدها .

قال الثعلبيّ : قال أهل التاريخ : عاش يوسف بعد يعقوب ثلاثا وعشرين سنة ، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة .

قالوا : ودفن في بلده فعمر الجانب الذي يليها وأخصب ، وقحط الجانب الآخر ، فشكا أهله إلى الملك ، فبعث إلى أفرايم أن ينقله فيدفنه في الجانب الآخر .
وإن لم يفعل قاتله ؛ فدفنه هناك ، نخصب ذلك الجانب ، وقحط الآخر ، فكان يدفن سنة في هذا الجانب ، وسنة في الآخر ؛ ثم اجتمعت الآراء أن يدفن في وسط النهر ؛ ففعلوا ذلك ، نخصب الجانبان ببركته ، ولم يزل في نهر النيل حتى بعث الله موسى — عليه السلام — فأمره الله أن يحمل تابوت يوسف ؛ فأخرجه ونقله إلى بيت المقدس ، فدفنه هناك ، وموضع قبره معروف .

الباب الخامس من القسم الثاني من الفن الخامس

في قصة أيوب — عليه السلام — وأبتلائه وعافيته

عن وهب بن منبه أنه لم يكن بعد يوسف نبي إلا أيوب، وهو أيوب بن أموص
ابن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم .

وكان أموص كثير المال والماشية، لم يكن في أرض الشام أغنى منه؛ فلما
مات صار ذلك جميعه لأيوب؛ وكان أيوب يومئذ ابن ثلاثين سنة، فأحب الزواج
نخطب رحمة بنت أفرايم بن يوسف؛ فتزوجها، وكانت أشبه الخلق بيوسف
وكانت كثيرة العبادة، فرزقه الله منها اثني عشر بطنا، في كل بطن ذكر وأنثى؛ ثم بعثه
الله تعالى إلى قومه رسولا — وهم أهل حوران والبثنية — ورزقه الله حسن الخلق
والرفق، فشرع لقومه الشرائع، وبني المساجد، ووضع مواعده للفقراء والأضياف؛
وأمر وكلاءه ألا يمنعوا أحدا من زراعته وثماره، فكان الطير والوحش وجميع الأنعام
تأكل من زرعه وبركة الله تزداد صباحا ومساء؛ وكانت كل مواشيه تحمل في كل
سنة بتوءم .

وكان أيوب إذا أقبل الليل جمع من يلوزبه في مسجده، ويصلون بصلاته
ويستبحون بتسبيحه حتى يصبح، فحسده إبليس؛ وكان لا يمر بشيء من ماله
وماشيته إلا رآه وهو مختوم بخاتم الشكر؛ وكان إذ ذاك يصعد إلى السموات
ويقف في أي مكان أحب منها، حتى رفع الله عيسى بن مريم، فحجب عن أربع
سموات منها؛ حتى بعث الله نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، فحجب عن جميعها
فصعد إبليس في زمن أيوب — عليه السلام — وقال: يارب إني طفت الأرض
ففتنت من أطاعني إلا عبادك منهم المخلصين . فنودي: يا ملعون، هل علمت

بعبدى أيوب ؟ وهل نلت منه مع طول عبادته ؟ وهل تستطيع أن تغيره عن عبادتي ؟ فقال إبليس : إلهي إنك ذكرتَه بالخير ، وقد نظرتُ في أمره فإذا هو عبد عافيتَه بعافيتك ، ورزقته شكرك ، ولم تختبره بالبلاء ، فلو آبتليته بالمصائب لوجدته بخلاف ما هو عليه ، فلو سلّطتني على ماله لرأيتَه كيف ينسلك .

٥ فسَلّطه الله على ماله ، فآنقَضَ وجمع العفاريت ، وأخبرهم أنه سلّط على مال أيوب ، وحضّهم على زرعهِ وأشجاره ومواشيه ، فأحرقوا الأشجار ، وصاحوا بالمواشى صيحة فماتت برعاتها .

١٠ قيل : وكان له أَلْفُ فرس وألف رَمَكَة وألف بغل وبغلة ، وثلاثة آلاف بعير ، وألف وخمسمائة ناقة ، وألف ثور ، وألف بقرة ، وعشرة آلاف شاة وخمسمائة فدان ، وثلاثمائة أتان ، مع ما يتبع ذلك من النَّتاج ، فهلك جميع ذلك ، ثم أقبل إبليس إلى أيوب في صورة راع من رعاته ، وخيّل له أن عليه وهج الحريق وقد أسودَّ وجهه ، وهو ينادى : يا أيوب ، أدركني فأنا الناجي دون غيري ما رأيتُ قطّ مثل هذا اليوم ، رأيت نارا أقبلت من السماء فأحرقَت أموالك ، وسمعت نداء من السماء : هذا جزاء من كان مرائيا في عمله يريد به الناس دون الله .

١٥ وسمعتُ النار تقول : أنا نار الغضب . فأقبل أيوب على صلاته ، ولم يكثر به حتى فرغ منها ، وقال : يا هذا ، لقد كثرت على ، ليست الأموال لي ، بل هي لربي يفعل فيها ما يشاء . فقال إبليس : صدقت .

وماج الناس بعضهم في بعض ، وقالوا : هلا قبضها قبضا جميلا .

٢٠ فشقَّ ذلك على أيوب من قولهم ، ولم يجبههم ، غير أنه قال : الحمد لله على قضائه وقدره . وأنصرف إبليس عنه ، وصعد إلى السماء ، فنودى : يا ملعون

كيف وجدت عبدى أيوب وصبره على ذهاب أمواله؟ فقال إبليس: إلهى إنك قد متّته بالأولاد، فلو سلّطتني عليهم لوجدته غير صابر. فنودى: يا ملعون اذهب فقد سلّطتك عليهم. فأنقضّ إبليس على باب قصر أيوب الذى فيه أولاده فزلزله حتى سقط عليهم، وشدّخهم بالخشب، ومثّل بهم كلّ مُثْلَة؛ فأوحى الله إلى الأرض: احفظى أولاد أيوب فإنّى بالغ فيهم مشيئتي.

وأقبل إبليس إلى أيوب وقال له: لو رأيت قصورك كيف تهدمت، وأولادك وماحلّ بهم. ولم يزل يعدّ له ما حلّ بهم حتى أبكاه؛ ثم ندم على بكائه، فاستغفر وخرّ ساجدا؛ وأقبل على إبليس وقال: يا ملعون، انصرف عني خائبا؛ فإن أولادى كانوا عارية عندى لله.

فانصرف وصعد إلى السماء، ووقف موقفه، فنودى: يا ملعون، كيف رأيت عبدى أيوب وأستغفاره عند بكائه؟ فقال: إلهى إنك قد متّته بعافية نفسه، وفيها عوض عن المال، فلو سلّطتني على بدنه لكان لا يصبر. فنودى: يا ملعون اذهب فقد سلّطتك على جسده إلا عينيه ولسانه وقلبه وسمعته. فأنقضّ إبليس عليه وهو في مسجده يتضرّع إلى الله ويشكره على جميع بلائه؛ فلما سمع إبليس ذلك منه أغتاظ، ولم يتركه يرفع رأسه من السجود حتى نفخ في منخريه كالنار الملتهبّة. فأسودّ وجهه، ومرت النفخة في سائر جسده؛ فتمعّط منها شعره، وتقترح جميع بدنه، وورم في اليوم الثانى، وعظم في الثالث، وأسودّ في الرابع، وأمتلأ قيحا في الخامس، ووقع فيه الدود في السادس، وسال منه الصديد في اليوم السابع ووقع فيه الحُكَّاء، فجعل يحكّه حتى سقطت أظافيره؛ فحكّ بدنه بالخرق والمُسُوح والحجارة، وكان إذا سقطت دودة من بدنه ردها إلى موضعها، ويقول: كلّى إلى أن يأذن الله بالفرج.

فقلت له رحمة : يا أيوب ، ذهب المال والولد ، وبدء الضرّ في الجسد .

فقال لها : يا رحمة ، إنّ الله آتلى الأنبياء من قبل فصبروا ، وإن الله وعد الصابرين خيرا ، وخرّ ساجدا لله تعالى ، وقال : إلهي لو جعلت ثوب البلاء سرمدا وحرمتني العافية ، ومزّقتني كلّ ممزّق ، ما آزدت إلّا شكرا ، إلهي لا تشمت بي عدوى إبليس .

ثم قال لرحمة : انقليني إلى موضع غير مسجدى ، فإنّي لا أحبّ أن يتلوّث المسجد .

فأنطلقت إلى قوم كان أيوب يحسن إليهم ، فألتصت منهم أن يعينوها على إخراجهم من المسجد ، فقالوا : إنه قد غضب عليه ربّه بما كان فيه من الرياء ، فليت كان بيننا وبينه بعد المشرقين . فرجعت رحمة واحتملته إلى الموضع الذي كان يضع فيه الموائد للناس بالفضاء .

ثم قال لها : يا رحمة ، إن الصدقة لا تحلّ علينا ، فاحتالي في خدمة الناس . وبكى وبكت ، فكانت تخدم أهل البلد في سقى الماء وكنس البيوت وإخراج الكناسات إلى المزابل ، وتكتسب من ذلك ما تنفقه على أيوب ، فأقبل إبليس في صورة شيخ ، فوقف على أهل القرية وقال : كيف تطيب نفوسكم بمخالطة امرأة تعالج من زوجها هذا القبيح والصديد وتدخل بيوتكم ، وتدخل يدها في طعامكم وشرابكم ؟ ! فوقع ذلك في قلوبهم ومنعوها أن تدخل بيوتهم .

قال : وأشدّ بأيوب البلاء ، وتئن حتى لم يقدر أحد من أهل القرية أن يستقر في بيته لشدة راحته ، فاجتمعوا على أن يرسلوا عليه الكلاب لتأكله ، فأرسلوها

.....

- ثم قال لرحمة : إن القوم قد كرهوني ، فأحتالي في نقلهم عنهم .
- فتوجهت وأتخذت له عريشا ، وأستعانت بمن يحمله ، فأعانها الله بأربعة من الملائكة ، فحملوه بأطراف النّطع إلى العريش ، وعزّوه في مصيبتهم ودعّوا له بالعافية ، وأتخذت له رحمة في العريش رمادا ، فألقى نفسه عليه ، ثم توجهت في طلب القوت ، فردّها أهل القرية ، وقالوا : إن أيّوب سخط عليه ربه .
- فعدت إليه باكية ، وقالت : إن أهل القرية غلّقوا أبوابهم دوني . فقال : إن الله لا يغلق بابي دوني . فحملته إلى قرية أخرى ، وصنعت له عريشا ودخلت القرية ، فقرّبوها وأكرموها ، وحملت في ذلك اليوم عشرة أقراص من خمسة بيوت ، ثم شمّ أهل القرية رائحة أيّوب بعد ذلك ، فمنعوا رحمة أن تدخل إليهم ، وقالوا : نحن نواسيك من طعامنا بشيء . فرضيت بذلك ، فبينما هي تتردد إلى أيّوب إذ عرض لها إبليس في صورة طبيب وقال : إني أقبلت من أرض فلسطين لما سمعت خبر زوجك ، وقد جئت لأداويه ، وأنا صائر إليه غدا فيجب أن تخبريه ، وقولي له : يحتال في عصفور أو طائر فيذبجه ولا يذكر اسم الله عليه ، ويأكله ويشرب عليه قدحا من نحر ، ففرجه في ذلك . فجاءت رحمة إلى أيّوب وأخبرته بذلك ، فتبيّن الغضب على وجهه ، وأخبرها أنه إبليس وحذّرها أن تعود لمثل ذلك ، ثم أقبلت بعد ذلك إلى أيّوب بشيء من الطعام فعرض لها إبليس في صورة رجل بهيٍّ على حمار ، فقال : كأني أعرفك ، ألسيت رحمة امرأة أيّوب ؟ قالت : بلى . قال : إني أعرفكم وأتم أهل غناء ويسار فما الذي غير حالكم ؟ فذكرت ما أصاب أيّوب من البلاء في المال والولد والنفس قال : وفي أيّ شيء أصابتكم هذه المصائب ؟ قالت : لأن الله أراد أن يعظم لنا الأجر على قدر بلائه .

قال إبليس : بئس ما قلت ، ولكن للسماء إله وللأرض إله ، فأما إله السماء فهو الله ، وأما إله الأرض فأنا ، فأردتكم لنفسي فعبدتم إله السماء ولم تعبدوني ففعلت بكم ما فعلت ، وسلبتكم نعمكم ، وكلُّ ذلك عندي ، فأتبعيني حتى تنظروا إلى ذلك ، فإنه عندي في وادي كذا وكذا .

- هـ فلما سمعت (رحمة) ذلك منه عجبت ، وأتبعته غير بعيد حتى وقفها على ذلك الوادي ، وسحر عينيها حتى رأت ما كانت فقدته من أموالهم . فقال : أنا صادق أم لا ؟ فقالت : لا أدري حتى أرجع إلى أيوب . فرجعت وأخبرته بذلك ، فتألم وأنكر عليها وغضب ، فسأله أن يعفو عنها ولا تعود ، فقال : قد نهيتك مرة وهذه أخرى ، وأقسم إن عافاه الله ليجلدنها مائة جلدة على كلامها لإبليس .
- ١٠

قال : ولبت أيوب في بلائه ثمانى عشرة سنة حتى لم يبق إلا عيناه تدوران في رأسه ، ولسانه ينطق به ، وقلبه على حالته ، وأذناه يسمع بهما .

- قال : وعجزت (رحمة) في بعض الأيام عن تحصيل القوت ، وطافت القرية حتى أتت إلى امرأة عجوز فشكت لها ذلك ، فقالت العجوز : يا رحمة ، قد زوجت آبتى ، فهل لك أن تعطيني ضفيرتين من ضفائرك لأزين بهما آبتى ، وأعطيك رغيفين . فأجابتها رحمة إلى ذلك ، وأخذت الرغيفين ، وجاءت بهما إلى أيوب ، فأنكرهما أيوب وقال : من أين لك هذين ؟ فأخبرته بالقصة ، فصاح أيوب وقال ما أخبر الله تعالى : ﴿ أَنَّى مَسْنَى الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .
- ١٥

فأوحى الله إليه : يا أيوب ، قد سمعت كلامك ، وسأجزيك على قدر صبرك ، وأما رحمة فلأرضينها بالجنة .

٢٠

ذكر كشف البلاء عن أيّوب — عليه السلام —

- قال : فلما كان يوم الجمعة عند زوال الشمس ، هبط عليه جبريل فسلم عليه فردّ عليه وقال : من أنت ؟ قال : أنا جبريل ، وبشره بالشفاء ، وأن الله قد وهب له أهله وماله وولده ومثلهم معهم لتكون آية ، فبكى أيّوب من شدة الفرح وقال :
- الحمد لله الذي لم يشمت بي عدوى إبليس . فقال له جبريل : قم يا أيّوب . فلم يستطع ، فأخذ بيده وقال : قم بإذن الله . فقام على قدميه ، فقال له جبريل : أركض برجلك هذه الأرض . فركضها ، فنبعت عين من الماء تحت قدميه أشدّ بياضا من الثلج وأحلى من العسل وأذكى من المسك ، فشرب منه شربة فسقط ما في بدنه من الدود ، ثم أمره جبريل فأغتسل من تلك العين ، نخرج ووجهه كالقمر وعاد إليه حسنه وجماله ، ثم ناوله جبريل خلعتين ، فأتزر بواحدة وأرتدى بالأخرى ، وناوله نعلين من الذهب شراكهما من الياقوت ، وناوله سفرجلة من الجنة ، ثم قام إلى الصلاة ، فأقبلت رحمة وقد طردها الناس من كل الأبواب ، فلما صارت إلى ذلك المكان رآته وقد تغير ، فظنت أنها قد أخطأت الطريق ، فقالت : أيها المصلّي كلمني . فلم يكلمها ، وثبت في صلاته ، فقال له جبريل : كلمها . فقال :
- ما حاجتك ؟ قالت : هل عندك علم بأيّوب المبتلى فأني خلفته هاهنا ولست أراه . فتبسّم أيّوب وقال : إن رأيته عرفته ؟ فقالت : والله إنك لأشبه الناس به قبل بلائه . فضحك وقال : أنا أيّوب . فبادرت إليه وأعتنقته ، وبشرهما جبريل بأولادهما وما فقداه من الأموال وغيرها ومثلهم معهم ، وأمطر الله عليهم جرادا من ذهب ، وكان له بيدران ، فأرسل الله صحابتين فأفرغتا في أحدهما ذهباً وفي الآخر فضة حتى فاض أحدهما على الآخر .

قيل : إنه كان له بعد العافية أربعة آلاف وكيل ، رزق كل واحد في الشهر مائة مثقال من الذهب ، وبين يديه اثنا عشر من البنين ، ومثلهم من البنات وملكه الله جميع بلاد الشام ، وأعطاه مثل عمره الذي عمره في الماضي .

فلما أدركته الوفاة أوصى أولاده أن يخلفوه في ماله كما كان يفعل مع الفقراء والمساكين والأيتام والأرامل ؛ ثم مات ، وتوفيت امرأته قبله .

وقيل : بعده بقليل ؛ فدفن إلى جانب العين التي أذهب الله بلاءه فيها .

قال الثعلبيّ — رحمه الله تعالى — : وكانت مدة ابتلائه ثمانى عشرة سنة .

الباب السادس من القسم الثانى من الفن الخامس فى خبر (ذى الكفل)

١٠ . اختلف العلماء فى (ذى الكفل) من هو ؟ فقال الكسائى : هو ابن أيوب — عليهما السلام — وذكر قصته فقال :

لما قبض الله — عز وجل — أيوب عليه السلام سار ابنه حوميل — وهو أكبر أولاده — فى الناس سيرة أبيه ، حتى خرج عليهم ملك من ملوك الشام يقال له : لام بن دعام ، فغلب على بلاد الشام ، وبعث إلى حوميل يقول : إنكم ضيقتم علينا بلاد الشام ، وأريد منكم نصف أموالكم وتزوجوني أختكم حتى أقتركم على ما أنتم عليه ، وإلا سرت إليكم بخيلى ورجلى وجعلتكم غنيمة .

فأرسل إليه حوميل يقول : إن هذه الأموال التى فى أيدينا ليس لأحد فيها حق إلا الفقراء والمساكين والأيتام والأرامل ؛ وأما أختنا فإنك من غير ديننا ، فلا تزوجها لك ؛ وأما تخويفك لنا بخيلك ورجلك ، فنحن نتوكل على الله ربنا ، وهو حسبنا .

بجمع الملك جنوده وقصدهم ، فالتقوا وأقتلوا قتالا شديدا ، فكانت الكسرة على أولاد أيوب ، وأسر بشير بن أيوب وجماعة معه ، وأنقلب حوميل بنفسه وجمع مالا عظيما ليحمله إلى الملك ويخلص أخاه منه ، فبينما هو في ذلك إذ أتاه آت في منامه فقال : لا تحمل هذا المال ، ولا تخف على أخيك ، فإن هذا الملك يؤمن ، وتكون عاقبة أمره خيرا .

(٦٦)

فلما أصبح قص رؤياه على إخوته ، ففرحوا ، فبلغ الملك توقفه في حمل المال فأرسل إليه يقول : احمل ما تكفل به أخاك من المال وإلا أحرقتك بالنار . فبعث إليه : إني قد أمرت ألا أحمل لك شيئا ، فأصنع ما أنت صانع . فغضب الملك وأمر أن تجمع الأحطاب ، بخمعت وألقى فيها النار والنفط ، وأمر بشير فألقى فيها فلم تحرقه ، فعجب الملك من ذلك ، وآمن بالله ، واختلط بعضهم ببعض ، وزوجوه أختهم ، وسمى بشير ذا الكفل ، وأرسله الله إلى الشام ، وكان الملك يقاتل بين يديه الكفار ، فلم يزل كذلك حتى مات أولاد أيوب ، ثم مات الملك وغلب العمالة على الشام ، إلى أن بعث الله — عز وجل — شعبيا رسولا .

وحكى الثعلبي في تفسيره وقصصه في قصة ذي الكفل غير ما تقدم ، وساق القصة تلو قصة اليسع ، فقال : قال مجاهد : لما كبر اليسع قال : لو أني استخلفت رجلا على الناس فعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يعمل . فجمع الناس وقال : من يتكفل لي بثلاثة أستخلفه : يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ولا يغضب .

فقام رجل شاب تزدرية العين قال : أنا . فردّه ذلك اليوم ، وقال مثل ذلك في اليوم الآخر ، فسكت الناس ، وقام ذلك الرجل فقال : أنا . فاستخلفه ، فجعل إبليس يقول للشياطين : عليكم بفلان . فأعياهم ، فقال : دعوني وإياه . فجاءه

في صورة شيخ فقير حين أخذ مضجعه للقائلة، وكان لا ينام بالليل إلا تلك النومة؛
فدق الباب، فقال: من هذا؟ فقال: شيخ مظلوم. ففتح الباب، بفعل يقص
عليه قصته، فقال: إن بيني وبين قوم خصومة، وإنهم ظلموني وفعلوا وفعلوا
وفعلوا؛ وجعل يطول عليه حتى حضر الروح وذهبت القائلة؛ فقال له: إذا رحمتُ
فإني قد أخذ بحقك. فأنطلق وراح، فكان في مجلسه، بفعل ينظر هل يرى الشيخ؟
فلم يره؛ فلما رجع وأخذ مضجعه أتاه ودق الباب، فقال: من هذا؟ قال: أنا
الشيخ المظلوم. فقال: ألم أقل لك: إذا قعدتُ فأتني. قال: إنهم أخبث قوم
إذا عرفوا أنك قاعد قالوا: نحن نطيعك ونعطيك حقك، وإذا قتت جحدوني.

قال: فانطلق، فإذا رحمتُ فأتني، ففأنته القائلة، فراح بفعل ينظر فلا يراه
وشق عليه الناس، فقال لبعض أهله: لا تدعن أحدا يقرب هذا الباب حتى أنام.
فإني قد شق على الناس. فلما كانت تلك الساعة جاء فلم يأذن له الرجل، فنظر
فراى كوة في البيت، فتسورها فإذا هو في البيت، وإذا هو يدق الباب من داخل؛
فأستيقظ ذو الكفل، وقال: يا فلان، ألم آمرك ألا تأذن لأحد علي؟ فقال:
أما من قبلي فما أتيت، فأنظر من أين أتيت.

فقام إلى الباب فإذا هو مغلق والرجل معه في البيت، فقال له: أتنام والخصوم
ببابك؟ فقال: فعلتها يا عدو الله. قال: نعم، أعيتني في كل شيء ففعلت ما ترى
لأغضبك، فعصمك الله مني، فسمي ذا الكفل، لأنه متكفل بأمر فوفي به.

وروى الثعلبي أيضا بسند رفعه إلى ابن عمر — رضى الله عنهما — قال:
سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يحدث حديثا لو لم أسمعته إلا مرة
أو مرتين لم أحدث به، سمعته منه أكثر من سبع مرات.

قال : كان في بني إسرائيل رجل يقال له : ذو الكفل ، لا يترع عن ذنب عمله ، فأتبع امرأة فأعطاهما ستين دينارا على أن تعطيه نفسها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة أرعدت وبكت ، فقال : ما يبكيك ؟ قالت : من هذا العمل ما عملته قط . قال : أكرهتك ؟ قالت : لا ، ولكن حملتني عليه الحاجة . قال : اذهبي فهي لك . ثم قال : والله لا أعصى الله أبدا . فمات من ليلته . ف قيل : « مات ذو الكفل » فوجدوا على باب داره مكتوبا : إن الله قد غفر لذي الكفل .

وقال أبو موسى الأشعريّ - رضي الله عنه - إن ذا الكفل لم يكن نبيا ولكنه كان عبدا صالحا ، تكفل بعمل رجل صالح عند موته ، فكان يصلي لله تعالى في كل يوم مائة صلاة ، فأحسن الله - عز وجل - عليه الشاء .

وقيل : كان رجلا عفيفا ، تكفل بشأن رجل وقع في بلاء ، فأنجاه الله تعالى .

وقيل : ذو الكفل ، هو إلياس النبيّ عليه السلام .

وقيل : هو زكريا النبيّ عليه السلام ، والله تعالى أعلم .

الباب السابع من القسم الثاني من الفن الخامس

في خبر شعيب النبي عليه السلام

هو شعيب بن صنعون بن عفا بن نابت بن مدين بن إبراهيم عليه السلام .

(٦٧)

قال : وعاش مدين عمرا طويلا ، وكان قد تزوج امرأة من العالقة فولدت له أربعة بنين ، ونسلوا فكثر عددهم في حياة مدين ، فلما رأى كثرة عقبه جمعهم وأشار عليهم أن يبنوا مدينة ويحصنوها من العالقة ، ففعلوا ذلك ، وجعلوا أبوابها من الحديد ، وسموها مدين بأسم أبيهم ، وجعلوها محالّ لقبائلهم ، فرغبت العالقة

- في مجاورتهم ، وأمتلأت المدينة من العمالة ومن أهلها حتى ضاقت بهم ، فخرجت العمالة من مدين ونزلوا بالأئكة ، — وكانت غيضةً عن يمين مدين — فبنوا هناك الدور لأنفسهم ، واختلطوا بأهل مدين ، وكان أهل مدين يعبدون الله ، وأصحاب الأئكة يعبدون الأصنام ، ولا يعدو بعضهم على بعض ؛ وكان صنعون والد شعيب من العباد والعلماء بمدين ، وتحتَه امرأة من العمالة ، فولدت له شعيبا في نهاية الجمال ؛ فلما كبر أعطاه الله فهما وعلمها ؛ وكان قليل الكلام دائم الفكر ؛ وكان أبوه إذا تأمل ضعفه ونحافته يقول : اللهم إنك كثرت الشعوب والقبائل في أرض مدين ، فبارك لي في شعبي هذا . يعني ولده . فرأى في منامه أن الله تعالى قد بارك لك في شعبيك هذا ، وقد جعله نبيا إلى أهل مدين . فسمى شعيبا لذلك .
- وتوفى والده فقام شعيب مقامه ، وبرز بالزهد على أهل زمانه ، واشتهر بالعبادة .
- قال : وكان ملك الأئكة — وأسمه أبو جاد — قد آتخذ لقومه أصناما ، وهي ثلاثون صنما ، عشرة من الذهب حلاها بالجوهر خاصة به وبأولاده ، والبقية من الفضة والنحاس والحجارة والحديد والخشب لبقية الناس .
- قال كعب في تفسير (أبجد) : إنها أسماء ملوك مدين .
- وقيل : بل ملوك الأئكة ، وهم أبو جاد وهوز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت .
- قال : وكان أهل مدين أصحاب تجارات يشترون الحنطة والشعير وغيرهما من الحبوب ، ويحبون ذلك من سائر البلدان يتربصون به الغلاء ، وهم أقول من تربص ؛ وكان لهم مكيالان : وافي يكتالون به لأنفسهم عند الشراء ، وناقص يكتالون به للإعطاء ، وكذلك في وزنهم ؛ فكانوا على ذلك وشعيب بين أظهرهم وهو لا ينخالطهم ، وله غنم ورثها من أبيه يأكل من منافعها ، وهو عظيم المحل عندهم .

فبينما هو ذات يوم على باب منزله مشغول بالذكر ، إذ جاءه رجل غريب فقال : إن هؤلاء القوم يظلمون الناس ، وإنني أشتريت منهم مائة مكيال بمائة دينار وقبضوا الثمن وزيادة ، والذي كاله منهم نقص عشرين مكيالا . فقال له شعيب : ارجع إليهم فلعلمهم قد غلطوا عليك . قال : قد راجعتهم فضربوني وسبوني ، وقالوا : هذه سنتنا في بلدنا . وألتمس الرجل من شعيب أن يساعده عليهم ، فخرج شعيب معه حتى صار إلى سوقهم ، وسألهم عن قصته فلم ينكروها ، وقالوا : ألم تعلم يا شعيب أن هذه سنة آبائنا في بلدنا ؟ قال ليس هذا من السنة . فعذلم ، فلم يرجعوا إلى قوله وضربوا الرجل حتى أدموه ، وأنصرف شعيب إلى منزله .

ذكر مبعث شعيب — عليه السلام —

قال : فأتاه جبريل في الحال ، وأخبره أن الله قد بعثه رسولا إلى أهل مدين وأصحاب الأيكة وغيرهم ممن يعبدون الأصنام ، وأمره أن يدعوهم إلى عبادة الله وطاعته ، وألا يخسوا الناس أشياءهم .

قال : وأقبل شعيب إلى أهل مدين وقال لهم ما أخبر الله تعالى به في كتابه : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْتُمْ يُخَيَّرُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ .

فلما سمعوا ذلك منه أجابوه بما أخبر الله به عنهم : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَئَكُمْ عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ
قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ * وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ
تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٦٨﴾

ثم أنصرف عنهم ، وعاد إليهم من الغد وقد اجتمعوا مع ملكهم أبي جاد ،
فوقف عليهم ونهاهم عن عبادة الأصنام ونجس المكيال والميزان ، فقالوا له :
﴿ يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ
وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ ﴾ * قَالَ يَا قَوْمِ ارْهَطِي أَعْرُ عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَاتَّخِذُوا مَوَدَّةَ
ظَهْرِيَا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٦٩﴾

(٦٨)

فاستهزأ القوم به ، فقال : وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ
تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٧٠﴾

فكذبه سفهاء قومه ، كما أخبر الله عنهم : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ الْمُرْسَلِينَ *
إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا *
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَوفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا
مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطِ طَائِسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَتَّبِعُوا النَّاسَ فِي شَيْءٍ هُمْ
وَلَا تَعْتَمِدُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحِيلَةَ الْأُولَى * قَالُوا
إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ *
فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٧١﴾

ثم قال له الملك : قد بلغت رسالتك بزعمك ، وقد سمعناها وأبينا ، فلا تعد
إلينا فترى ما لا طاقة لك به . فقال : أنا رسول الله إليكم ، وإني أعود أدعوكم حتى
ترجعوا إلى طاعة الله . فغضب الملك ، وأنصرف عنهم شعيب ، وآمن به رجل من
وزراء الملك ، وأستكتمه إيمانه ، فكتمه شعيب ، ثم عاد من الغد وقد خرج الملك

ومن معه إلى سوقهم ، وأخرجوا أصنامهم ونصبوها ، وأمر الملك في أهل مدين
والأيكة : من سجد لأصنامنا فهو منا ، ومن أبى عذّبناه عذابا شديدا . فسجد القوم
بأجمعهم للأصنام ، فناداهم شعيب : إن هذه الأصنام لا تضر ولا تنفع ، فاتركوا
عبادتها . وحذرهم عذاب الله . فقالوا : إنك تدعونا بغير حجة ، فهل لك حجة على
دعواك النبوة ؟ قال لهم شعيب : إن نطقت هذه الأصنام بصدق مقالي أتؤمنون ؟
قالوا : نعم . ورضى الملك بذلك ، فتقدم شعيب إلى الأصنام وقال لها : أيتها
الأصنام ، من ربك ؟ ومن أنا ؟ تكلمي بإذن الله . فنطقت بإذن الله وقالت : ربنا
الله وخالقنا وخالق كل شيء ، وأنت رسول الله ونبيّه . وتنكست عن كراسيها
ولم يبق منها صنم صحيح ، وأرسل الله على قوم شعيب ريحا كادت تنسفهم نسفا
فأسرع الملك ومن معه إلى منازلهم ، وآمن بشعيب خلق كثير ، ثم أصبح الملك ومن
معه نخرجوا إلى سوقهم ، ونصبوا ما كان قد بقي عندهم من الأصنام ، وأمرهم
بالسجود لها ، فأتاهم شعيب ونهاهم وحذرهم فلم يرجعوا إليه ، وأمر الملك أصحابه
أن يقعدوا لشعيب ولمن معه كل مرصد ، ويؤذوهم أشد الأذى ، ثم قال الملك
وقومه : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾
إلى قوله : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ .

قال : وإذا بریح قد هاجت عليهم فيها من الحر والكرب ما لا طاقة لهم به
حتى رموا أنفسهم في الآبار والسراديب ، واشتد الحر ودام عليهم مدة وهم
لا يزدادون إلا عتوا وتمردا ، وشعيب يدعوهم ويحذرهم العذاب ، فيقولون : لسنا
نرى من عذاب ربك إلا هذا الحر ، ونحن نصبر عليه .

وأقاموا كذلك أعواما كثيرة وهم لا يؤمنون ، فأرسل الله عليهم الذباب
الأزرق ، فكان يلدغهم كالعقارب ، وربما قتل أولادهم ، ثم تضاعف الحر عليهم

فتحولوا من مدين إلى الأيكة ، فتضاعف الحر عليهم ، وتنقلوا من الأودية إلى الغياض والحر يشتد عليهم ، حتى آسودت وجوههم ، فأقبل إليهم شعيب ودعاهم إلى الإيمان ، فنادوه : يا شعيب ، إن كان ما نلقاه لكفرنا بك وبربك فزدنا منه فإننا لا نؤمن . فأوحى الله إليه أنه مهلكهم ، فتحول عنهم .

ذكر خبر الظلّة

قال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

- قال : ولما كان من غد يوم مقاتلتهم ما قالوه لشعيب وهو يوم الأربعاء وإذا بسحابة سوداء قد آرتفعت فأظلمت ، فاجتمعوا تحتها يستظلون بها من الحر فانطبقت عليهم حتى لم يبصر بعضهم بعضا ، واشتد الحر ، ثم رمت بوجهها وحرها حتى أنضجت أبادهم وأحرقتهم وجميع ما كان على وجه الأرض ، وشعيب والمؤمنون ينظرون إلى ما نزل بهم ، ويتأملون مصارعهم ، ولم ينلهم من ذلك مكروه . قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ يعني صيحة جبريل ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ * كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا بَعْدًا لِمَدِينٍ كَانَتْ بَعْدَتْ ثَمُودُ ﴾ ثم أقبل شعيب والمؤمنون ينظرون إلى مصارع القوم . قال الله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ معناها ، كيف أحن عليهم . ثم قسم شعيب أموال الكفار على قومه ، وتزوج بامرأة من أولاد المؤمنين ، وزرقه الله رزقا حسنا ، ولم يزل بأرض مدين حتى كف بصره ، وجاء موسى بن عمران من أرض مصر ، وزوجه ابنته — على ما نذكره إن شاء الله تعالى — .

القسم الثالث من الفن الخامس

يشتمل على قصة موسى بن عمران عليه السلام وخبره مع فرعون ،
 وخبر يوشع بن نون وإلياس واليسع وغيل واشمويل وداود وطالوت
 وجالوت وسليمان بن داود ويونس بن متى وجرجيس وبلوقيا وزكريا
 وعمران ومريم وعيسى ، عليهم السلام ، وأخبار الحواريين ،
 وفيه ستة أبواب ، والله أعلم بالصواب

الباب الأول من القسم الثالث من الفن الخامس

في قصة موسى بن عمران وهارون — عليهما السلام — وخبر فرعون وابتداء
 أمره وغرقه ، وأخبار بني إسرائيل ، وخبر قارون ، وخروج موسى عليه السلام .
 ولنبداً بخبر فرعون وابتداء أمره ، وكيف توصل إلى الملك ، ثم نذكر قصة
 موسى عليه السلام معه ، ليكون الكلام في ذلك على سياقه .

فأما فرعون ، فهو الوليد بن مصعب .

قال وهب : كان مصعب بن نَسِيمٍ ^(١) بمصر يرعى البقر لقومه ، وله امرأة يقال
 لها : راعونة ، وهما من العماقة ، فأتت عليه مائة وسبعون سنة لم يرزق ولداً ، فبينما
 هو في برية مصر إذا ببقرة قد ولدت عجلاً ، فتأوه وحسد البقرة ، فنادته : يا مصعب
 لا تعجل ، فسيولد لك ولد مشئوم يكون من أهل جهنم . فرجع وذكر ذلك
 لأمراته ، وواقعها فحملت بفرعون ، ومات أبوه قبل ولادتها ، ثم ولدته أمه وسمته
 الوليد ، وأخذت في إرضاعه وتربيته حتى كبر ، فأسلمته إلى النجارين ، فأتقن
 صناعة النجارة ، ثم ولع بالقمار ، فعائته أمه ، فقال : كفى عني فأنا عون نفسي .

(١) كذا ورد هذا الاسم مضبوطاً بضم النون وفتح السين في « ب » المنسوب خطها إلى المؤلف .

فلزمه هذا اللقب ، فكان يُعرف بعون نفسه ، فقامر في بعض الأيام ، فقمروه في قيصره ، وبقى في خلق لا يستره ؛ فاستحيا من الناس أن يروه كذلك ؛ فهرب حتى صار إلى قرية من قرى مصر ؛ فعرض نفسه على بقال ، نخدمه ، وكان يضرب المشتريين ويؤذيهم حتى نفروا من البقال ؛ فطردوه فعاد إلى مصر ؛ وكانوا يقولون : (فَرَّ عَوْن) .

قال : ورجع إليها وهو لا يملك إلا درهما واحدا ، فاشترى به بقالا وبطيخا وقعد يبيعه ، فجاءه عريف الطريق وطالبه بحق الطريق ؛ قال : وما هو ؟ قال : درهم . فتلاحيا ؛ فترك فرعون رحله ومضى ، وجعل يسرق وينقب ، فيهرب مرة ويؤخذ أخرى .

- ١٠ فاتفق أن رجلا من العمالة جمع به فرسه فعجز عن ضبطه ، فوثب فرعون إلى الفرس وضبطه بلجامه ؛ فقال له العمليقي : أراك جلدا قويا . فآتخذه سائسا ؛ بفعل يخدمه حتى مات الرجل وليس له وارث ؛ فاحتوى فرعون على جميع ماله وحمله إلى أمه ، وأكل ذلك المال حتى فنى ، وضاق به الأمر ، فوقع في قلبه أن يجلس على باب مقابر مصر ويطلب أرباب الجنائز بشيء ، ويُظهر أنه بإذن الملك ؛ ففعل ذلك مدة حتى آجتمع له مال عظيم ؛ وآتخذه له أعوانا وحفدا^(١) يعينونه على ذلك ؛ وكان
- ١٥ الملك بعد أن أهلك الله الريان بن الوليد نتوارثه الفراعنة ؛ وأستقر في سنجاب بن الوليد ، وكان مكرما لبني إسرائيل ، وكانوا يعبدون الله علانية ويتلون الصحف جهرا .

قال : فماتت أبنة للملك ؛ فحملت إلى المقبرة ، فتعلق بها أعوان فرعون على العادة لأخذ القطيعة ؛ فاتصل الخبر بالملك ؛ فأمر بإحضاره وأراد قتله ؛ فقص

عليه قصته ، وفدى نفسه بما جمعه من المال ، فعظم عند الملك وأقره على عمله ؛
 فقتر فرعون عند ذلك على جنائز الملوك ألف درهم ، وعلى جنائز الوزراء سبعمائة
 والقواد خمسمائة ، ثم إلى المائة ، إلى الخمسين ، إلى عشرة ، إلى ثلاثة ؛ فأجتمع
 الناس إلى الملك وحرفوا رأيه عن هذه الحالة وقبحوها عليه ؛ فصرفه الملك عنها
 وأبطلها ؛ وحمل إليه فرعون أموالا جمّة ، وقال له : أيها الملك ، إن جدى كان على
 حرس أبيك ، فأجعل ذلك إلى . فولاه الحرس وأمره أن يشدد فيه ، ويقتل كل
 من لقيه بالليل كائنا من كان ؛ وجعل الملك معه عدّة من الرجال والأعوان ؛ فخرج
 فرعون وأتخذ لنفسه قبة في وسط البلد ، وكان يوجه أعوانه ، فمن أتوه به في الليل
 أمر بقتله ؛ فتقدم عند الملك بذلك ، لأنه أخاف أعداء الملك ، وأمن الملك جانبهم
 بسببه ، وخافه الناس ، وجعل لنفسه حاجبا ، ونفذت كلمته .

ذكر خبر قتل الملك وأستيلاء فرعون على ملكه وما كان من أمره

٧٠

قال : واتفق مرض بعض وزراء الملك — وكان الملك يأنس إليه ويقتدى
 برأيه — فأحب أن يزوره بالليل ؛ فخرج منفردا وليس معه أحد من خدمه ؛ فأخذه
 أعوان فرعون وأتوه به وهو يقول : ويلكم ، أنا الملك سنجاب ، وهم يظنون أنه
 يخذعهم بذلك ، حتى أتوا به إلى فرعون ، فأمر بقتله ، فقتل ؛ وبادر فرعون بمن
 معه — وكان فيهم كثرة — ودخل القصر ، وكان لا يمنع منه ؛ فأستوى على سرير
 الملك ووضع التاج على رأسه ، وفتح الخزان ، وأحضر الوزراء وفرّق فيهم الأموال
 فرضوا به ، وصاروا أولياء له .

قال : وأتاه إبليس وسجد بين يديه ، وسماه إلها وربا ؛ ثم سجد له هامان —

وكان غلاما لسنجاب — وسجد الوزراء والملوك والأعوان وغيرهم ؛ وبعث

إلى أسباط بني إسرائيل ، فدعاهم إلى الطاعة والسجود له ، فسجدوا وقصدوا
بالسجود الله تعالى .

- ثم أقبل فرعون بعد ذلك على إبليس وقال : أيها الشيخ ، إنك كنت مباركا
وأنت أول من سجد لي ، ثم جرى القوم بعدك على سنتك ، فمن أنت ؟ قال : أنا رجل
من أهل مصر أشير على الملوك بمصالحهم . ثم قال لفرعون : اتخذ لقومك أصناما
وأحملهم على عبادتها ، وأتخذ لك صنما أنفرد به أنت ، وأجعل له إلها وربا . فوافقه
فرعون على ذلك ، وأتخذ له ثورا من ذهب يعبده ، وأمر الناس بعبادة الأصنام ،
فعبدوها ، فكان فرعون يعبد الثور ، والقبط يعبدون الأصنام ، وبنو إسرائيل
يعبدون الله ، فبلغه ذلك ، فأحضر عبادهم وقال : قد بلغني أنكم مطيعون لي
في الظاهر ، مخالفون لي في الباطن ، فاسجدوا لي . فأبوا ذلك ، وكان فيهم جماعة من
أولاد يوسف ويهوذا ، فقتلهم ، ثم قتل خلقا كثيرا ، وتبعه الباقون وأسروا الإيمان ،
ثم إن فرعون آستعبد الناس ووضع عليهم الخراج الكثير ، وشق عليهم في الأعمال .
هذا ما حكاه الكسائي - رحمه الله - في خبر فرعون وأبداء أمره وسبب ملكه .
وحكى أبو إسحاق الثعلبي - رحمه الله - في كتابه المترجم (بيواقيت البيان
في قصص القرآن) : أن فرعون موسى هو أبو العباس الوليد بن مصعب بن الريان
ابن أراشة بن ثروان بن عمرو بن فاران بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه
السلام ، وكناه بهذه الكنية .

- قال : وملك بعد أخيه قابوس بن مصعب ، وذلك أنه لما مات الريان بن
الوليد فرعون يوسف - عليه السلام - وذكر أنه قد آمن بيوسف ومات قبل
وفاة يوسف - عليه السلام - ملك بعده قابوس بن مصعب صاحب يوسف .

الثاني ؛ فدعاه يوسفُ إلى الإسلام ، فأبى ، وكان جبّارا ، وقبض الله تعالى يوسف في ملكه ، وطالت أيام ملكه ، ثم هلك ؛ وقام بالملك بعده أخوه أبو العباس الوليد ابن مصعب ، ولم يذكر خلاف ذلك .

وقد قيل في اسمه ونسبه وسبب ملكه غير ذلك ، وسيرد — إن شاء الله تعالى — في أخبار ملوك مصر الفراعنة ما ستقف عليه هناك — إن شاء الله تعالى — والله أعلم .

ذكر خبر آسية بنتِ مزاحم وزواجِ فرعون بها

- قال : وكانت آسية بنتُ مزاحم من الصديقات ، وهى مختلفٌ في نبوتها ولا خلاف أنها صديقة ؛ وكانت بارعة الجمال ؛ فبلغ فرعون خبرها وجمالها ، فأرسل إلى أبيها مزاحم (أن أبعث إلىّ بأسية فإنها أمتى) . فدخل على فرعون وقال : إن ابنتى صغيرة لا تصلح . فكذبه فرعون وقال : قد عرفت وقت ولادتها . فقال : أيها الملك ، فأجعل لها مهرا . فغضب فرعون وقال : احملها إلىّ ، فإن رضيتها أكرمتها ، وإلا رددتها إليك . فقال له عمران : أيها الملك ، لا تفضحنى فى آبنة أخى ، ولكن أكرمها بخلعة ومهر . فأجابه إلى ذلك ؛ فانصرف مزاحم وأخبر آسية بذلك وقال : إن أمتعتِ يكون ذلك هلاكى وهلاككِ . قالت فكيف تكون مؤمنة عند كافر ؟ فلم يزل بها حتى أجابت على كره منها ؛ وحمل إليها فرعون عشرة آلاف أوقية من الذهب ، ومثل ذلك من الفضة ، وجملةً من أنواع الثياب والطُرف ؛ وحملت إلى فرعون ، فخماها الله منه حتى رضى منها بالنظر . وكان فرعون قد رأى قبل ذلك من الآيات ما دلّه على أن زوال ملكه يكون على يد فتى من بنى إسرائيل ؛ فقال : اتتوني بعمران لأنه كبير فيهم لأصطنع إليه وإليهم معروفا . فأتى به ، فخلع عليه وتوجه ، وجعله سيد وزراءه ، حتى كان هامان وغيره يحسدونه .

(VI)

ذكر شيء من الايات التي رآها فرعون قبل مولد موسى عليه السلام

فمن ذلك أنه هتفت به الهواتف تقول : ويلك يا فرعون ، قد قرب زوال ملكك على يد فتي من بني إسرائيل .

ثم رأى الرؤى التي أزعجته وأفرعته ؛ فكان منها أنه رأى شابا وقد دخل عليه وبيده عصا ، فضربه بها على رأسه وقال : ويلك يا فرعون ، ما أقل حيائك من خالق السموات ، كلما رأيت آية آزدت كفرا . ونظر إلى آسية في المنام ولها جناحان تطير بهما بين السماء والأرض حتى دخلت السماء ؛ ورأى الأرض قد أنفجرت وأدخلته في جوفها ؛ فآنتبه فزعا ، وقص رؤياه على أهل العبارة ، فقالوا : إنها تدل على مولود يولد يسلبك ملكك ، ويزعم أنه رسول إله السماء والأرض ويكون هلاكك وقومك على يديه .

وكان فرعون قبل ذلك إذا عبر عليهم رؤيا يقولون : هذه أضغاث أحلام ويكتمونه ما تدل عليه .

ذكر خبر قتل الأطفال

قال : فآستشار فرعون وزرآءه وأهل مملكته ؛ فأشاروا عليه بقتل من يولد من الذكور ؛ فقتل اثنتى عشرة ألف امرأة وسبعين ألف طفل ؛ وكان يعذب الحوامل حتى يسقطن ، حتى ضجت الملائكة إلى ربها ؛ فأوحى الله إليهم بأن له أجلا وبشرهم بموسى ؛ وكان فرعون قد منع وزرآءه وكبار أهل مملكته من الآجتماع بأهاليهم والخلوة بهم ، لأنه كان قد بلغه أن المولود يكون من أقرب الناس إليه ؛ وكان عمران ممن منع ؛ وكان فرعون إذا نام لا يفارقه حتى يستيقظ ؛ فبينما عمران ذات ليلة على كرسيه عند رأس فرعون إذا هو بآمرآته وقد حملت إليه على جناح ملك من

الملائكة؛ فلما نظر عمران إليها فزع وقال : ما حاجتك ها هنا ؟ فسكتت ؛ فقال له الملك : إن الله يأمرك يا عمران أن تأتي زوجتك على فراش فرعون ليكون ذلك هوأنا له . فواقعها فحملت بموسى ؛ ثم آغتسلا في الحوض الذى فى دار فرعون ؛ ثم حملها الملك و ردها إلى منزلها ؛ وكان على باب فرعون ألف حاجب ، والأبواب مغلقة ، فلم يُغن عنه ذلك ؛ ولما أصبح فرعون دخل عليه المنجمون وقالوا : إن الذى تخافه قد حملت به أمة وقد طلع نجمه . فأمر فرعون القوابل والحواضن أن يدرن على نساء بنى إسرائيل ؛ ففعلن ذلك ، ولم يعبرن بيت عمران لعلمهن بملازمته لفرعون ليلا ونهارا ؛ فلما تمت أيامها جاءها الطلق نصف الليل ، وليس عندها إلا آبنتها ، فوضعت وجهه يتلأأ نورا .

١٠ ذكر خبر ميلاد موسى وما كان من أمره وإلقائه فى التابوت

قال : وأصبحت أم موسى وهى شديدة الفرح به والخوف عليه ؛ وسمع فرعون فى تلك الليلة هاتفا يقول : ولد موسى وهلك يا فرعون وتنكست الأصنام . فشدد فرعون فى طلب المولود ، فكانت أمة ترضعه ، وإذا خرجت فى حاجة ألقته فى التنور بمهده وغطته ؛ ففعلت ذلك فى بعض الأيام ، وكانت أخته قد عجنّت وأرادت أن تخبز ، فسجرت التنور وهى لا تعلم أن موسى فيه ؛ وجاءها مان والدات فدخلوا دار عمران فلم يجدوا شيئا ، ونظروا إلى التنور والنار تعلو منه ، فانصرفوا ؛ وجاءت أم موسى فرأت الأعوان والحرس قد خرجوا من منزلها ، فكاد روحها يزهب من الغم ؛ فدخلت المنزل بسرعة نحو التنور ، فرأت النار فيه ؛ فلطمت وجهها وقالت : ما نفنى الحذر ، أحرقت ولدى . وأنطلقت إلى التنور فرأت موسى ولم تمسه النار ؛ فأخرجته ؛ ولما تم له أربعون يوما فزعّت عليه ، فاتخذت له تابوتا

ووضعت فيه ، وألقته في اليم ، وكان أبوه قد مات قبل ذلك ودفن ، فلذلك اشتد خوف أم موسى .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ ﴾ .

قال : فلما أتت به لتلقيه في النيل تصوّر لها إبليس في صورة حية سوداء وقال : إن ألقىته في اليم ابتلعتة . فعلمت أنه إبليس ، فسمعت النداء : ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

قال : فطرحته في النيل . فقليل : إنه بقي في الماء أربعين ليلة .

وقيل : ثلاثا .

وقيل : ليلة واحدة .

١٠

ذكر دخول التابوت في دار فرعون ورجوع موسى إلى أمه

قال : وأصبح فرعون في اليوم الذي دخل فيه التابوت إلى قصره ، فصعد أعلى القصر وأشرف فرأى التابوت والموج يلعب به ، وكان لفرعون سبع بنات من غير آسية ، بكل واحدة منهم نوع من البلاء والمرض ، وكان الأطباء قالوا له : إن دواءهن أن يغتسلن في النيل . فصنع لهن نهرا من النيل وأجراه في وسط القصر ١٥ يصب في حوض عظيم ، فكانت بناته يغتسلن فيه ، فأمر الله الريح أن تلقى التابوت في ذلك النهر وبنات فرعون فيه ، فبادرت الكبرى وفتحتة فإذا فيه موسى وله شعاع ونور ، فلما لمسته أذهب الله ما بها من البلاء والمرض ، فلمسته بنات فرعون واحدة بعد أخرى ، فذهب ما بهن من الأمراض ، وأقبلن بالتابوت إلى آسية ، فلما ٢٠ رآته قبلته ولم تعلم أنه ابن عمها ، ثم أعادته إلى التابوت ، وحمّله جارية معها

ومضت به إلى فرعون ، فلما نظر إليه أرعد منه وقال : يا آسية ، إني أخاف أن يكون هذا عدوى ، ولا بد لي من قتله . فقالت له : قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .

وحكى الثعلبي أنها لما قالت : قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ، قال فرعون : قُرَّةُ عين لك ، أما أنا فلا حاجة لي فيه .

قال أبو إسحاق : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”والذى يُحَلِّفُ به لو أقتر فرعون أن يكون له قُرَّةُ عين كما أقترت به لهداه الله تعالى كما هدى به امرأته ولكن الله تعالى حرمه ذلك“ .

قال الكسائي : ولم تزل تلتطف بفرعون حتى تركه ، وأحضرت له المراضع فلم يرضعهن . قال الله تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾ .

وأرسلت أم موسى أبتها كلثم^(١) ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

قال : فدخلت قصر فرعون فرأته في حجر آسية وقد امتنع أن يرضع ، فتقدمت إليها ، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون .

قال : ولم تعلم آسية أنها أبنه عمها لثلاثة ثيابها ، لأنها دخلت في حلبة المراضع ، فالتفت إليها فرعون وقال : من هؤلاء القوم الذين يكفلونه ؟ قالت : قوم من آل إبراهيم . قال : اذهبي وائتني بهم . فرجعت إلى أمها وأخبرتها ، فدخلت على فرعون وموسى بين يديه ، فعرفتها آسية وقالت : خذى هذا الصبي وأرضعيه . فلما أخذته ألتقم ثديها ورضع منه ، وفرعون لا يعلم أنها امرأة عمران ، فقالت لها

(١) كذا ورد هذا الاسم في الأصول وتاريخ العيني .

آسية : أحب أن تكونين عندي إلى أن يستغنى هذا الغلام عن الرضاع . فأقامت عند آسية سنتين حتى فطمته وفارقتة مستبشرة فرحة .

وحكى الثعلبي أنها لم تقم عند آسية ، بل أخذته وصارت إلى منزلها فأرضعته إلى أن تم رضاعه ، وأعادته إلى آسية ، والله أعلم .

ذكر شيء من عجائب موسى — عليه السلام — وآياته

قال : فلما صار موسى من أبناء ثلاث سنين ، استدعاه فرعون وأجلسه في حجره وجعل يلاعبه ، فقبض على لحية فرعون ، فتألم لذلك وقال : لا شك أن هذا عدوى . وهم بقتله ، فقالت له آسية : إن الصبيان لهم جراءة ولعب من غير معرفة ولا عقل ، وأنا أريك أنه لا يعقل ، وأمرت بإحضار طست وطرحت فيه درة وجمرة ، وقدمته إلى موسى ، فأراد أن يأخذ الدرة ، فصرف جبريل يده عنها إلى الجمرة ، فأخذها ورفعها إلى فيه ، فاحترق لسانه ، فقتلها من فيه وبكى بكاء شديدا ، فقالت آسية لفرعون : علمت أنه لا يميز بين الدرة والجمرة ؟ فسكن عند ذلك .

قال : فلما تم لموسى سبع سنين ، جلس في بعض الأيام مع فرعون على سريره فقرصه فرعون ، فغضب موسى ونزل عن السرير وضرب قوائمه برجله ، فكسرقائمتين منه ، فسقط فرعون عنه ، وأنهمش أنفه وسال الدم على لحيته ، فبادر موسى ودخل على آسية وأعلمها بالخبر ، وتبعه فرعون إليها وأراد قتله ، فقالت : ألا يسرك أن يكون ولدك بهذه القوة يدفع أعداءك عنك ؟ ولا طفته حتى سكن غضبه .

ثم ظهر له من المعجزات والآيات ما لا يظهر إلا للأنبياء وفرعون يكرمه ،

ذكر خبر القبطي ونحروج موسى من مصر

قال : ولما كبر موسى صار يركب من مراكب فرعون ويلبس من ملابسه ؛
 وكان يدعى : موسى بن فرعون ؛ فامتنع بسببه الظلم عن بني إسرائيل ، ولم يعلم إلا أن
 ذلك من قبل الرضاة ؛ واتفق ركوب فرعون ، فركب موسى في أثره والمدينة مغلقة
 الأسواق ، وليس بها أحد ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا
 فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ فكان الذي من شيعته
 فتي من بني إسرائيل ، والذي من عدوه رجل من القبط ، وهو طبّاح لفرعون ، وقد
 أخذ حطباً للطعام ، وهو يريد الإسرائيلي على حمله وقد امتنع ؛ فلما مرّ بهما استغاثه
 الإسرائيلي ؛ فقال للطبّاح : اتركه . فامتنع من تركه ؛ فوكزه موسى في صدره فمات ؛
 فندم موسى على قتله ؛ قال الله تعالى ﴿ فَأَسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ
 عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾
 الآيات .

قال : فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ .

وجاء القبط وشكوا إلى فرعون أن بني إسرائيل قتلوا رجلاً منهم ؛ فأمرهم أن
 يطوفوا على قاتله ؛ وخرج موسى في اليوم الثاني ، فإذا الذي استنصره بالأمس
 يستصرخه على قبطي آخر ، والقبطي يقول : هذا الذي قتل ابن عمي بالأمس .
 فقال الإسرائيلي : أعني يا موسى على هذا ، فإنه يريد أن يحملني إلى دار فرعون
 قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ .

قال : ثم لم يجد موسى بداً من نصرة الإسرائيلي ، فحسر عن ذراعيه ، ودنا من
 القبطي ؛ فظن الإسرائيلي أن موسى يريد أن يبطش به ، فقال ما أخبر الله به عنه :

﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ .

فلما سمع القبطى كلام الإسرائيلى لموسى تحقق أن موسى قاتل ابن عمه ؛ فدخل إلى دار فرعون وأخبره أن موسى هو الذى قتل القبطى ؛ قال : ومن أعلمك ؟ فقص عليه القصة ؛ فأذن فرعون لأولياء المقتول فى قتل موسى حيث وجدوه ؛ بخاء حزقيل — وكان مؤمنا من آل فرعون — وأعلم موسى بالخبر .

قال الله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * نَخْرَجُ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ .

ومضى بغير زاد ولا راحلة ؛ فمتر براعى فى طريقه ، فأعطاه موسى ثيابه ، وأخذ جبة الراعى وكساه ، وسار فوصل إلى مدين فى اليوم السابع وقد أجهده الجوع . قال : وكان موسى يسير بالليل ودليله النجم ، فإذا جاء الصبح جاءه أسدان يدلانه على الطريق ؛ فكان هذا دأبه وهما كذلك حتى ورد مدين ؛ والله الهادى .

ذكر خبر ورود موسى مدين وما كان بينه وبين شعيب وزواجه ابنته قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ وكانت ابنتى شعيب عليه السلام .

قال : وكان الرعاء إذا سَقَوْا غَطُّوا البئر بصخرة لا يرفعها إلا جماعة ، فلمَّا
آنصرفوا تقدَّم موسى إلى الصخرة فوكَّزها برجله ، فدحاها أربعين ذراعاً على ضعفه
من الجوع وسقى غنمهما .

قال الله تعالى : ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ
مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ .

قال : فتمنَّى موسى في ذلك الوقت شبعةً من خبز الشعير ، وأنصرفت المرأتان إلى
أبيهما وأخبرتاه بالخبر ، فأرسل إحداهما إليه وقال : اتَّيْنِي بِهِ . قال الله تعالى : ﴿ بِخَاءَتُهُ
إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ .

فقام موسى ، وكانت تمرّ بين يديه فكشف الريح عن ساقيهما ، فقال لها :
تأخري ورائي ودلّيني على الطريق . فتأخّرت وكانت تقول : عن يمينك وعن
شمالك . حتى دخلا مدين ، وجاء إلى شعيب — وهو شيخ كبير وقد كفّ بصره —
فسلمّ عليه ، فردّ عليه ورحّب به وسأله عن خبره . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ
وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

ثم دعا شعيب بالطعام فأكل ، فقالت أخته : يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ
اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ أرادت بالقوّة رفع الحجر عن رأس البئر واستقاءه بالدلو
العظيمة ، وأمانته أنّه أخرها إلى خلفه .

فرغب فيه وقال : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي
ثَمَانِي حَجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمُشِقَ عَلَيْكَ سَجْدُنِي إِنْ شَاءَ
اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ
عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ .

(١١) فترج موسى صفورا — وهى الصغرى منهما — وطلب عصا، فقالت له :
ادخل بيت أبى الذى يأوى فيه نخذ عصاك . وكان فيه عصى كثيرة — فدخل
موسى البيت وأخذ من العصى عصا حمراء، فقال له شعيب : هذه من أشجار الجنة
أهداها الله إلى آدم ، ثم صارت إلى شيث وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم
وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وكلهم توكلوا عليها ، فلا تخرجنها من يدك .
ثم أوصاه وحذره من أهل مدين ، وقال : إنهم قوم حسدة ، وإذا رأوك
قد كفيتنى أمر غنمى حسدونى عليك ، فدلوك على وادى كذا وكذا ، وهو كثير
المرعى ، وإنما فيه حية عظيمة تبتلع الغنم ، فإن دلوك عليه فلا تمتر به ، فإننى أخاف
عليك وعلى غنمى .

١٠ نخرج موسى بالغنم — وكانت يومئذ أربعين رأسا — وقال فى نفسه : إن
من أعظم الجهاد قتل هذه الحية . وتوجه بالغنم إلى ذلك الوادى ، فلما قاربته أقبلت
الحية إلى الغنم ، فقتلها موسى ورعى غنمه إلى آخر النهار ، وعاد إلى شعيب وأعلمه
الخبر ، ففرح بقتلها ، وفرح أهل مدين وعظموا موسى وأجلّوه ، وقام موسى بغنم
شعيب يرعاها ويسقيها ، حتى آنقضت المدة التى بينهما ، وبلغت أربعائة رأس
وعزّم موسى على المسير .

١٥ ذكر خبر خروج موسى — عليه السلام — من أرض مدين
ومناجاته ومبعثه إلى فرعون

قال : ولما أراد موسى الانصراف بكى شعيب وقال : يا موسى ، إنى قد
كبرت وضعفت ، فلا تضيعنى مع كبر سنّى وكثرة حسّادى ، وتترك غنمى شاردة
لا راعى لها . قال موسى : إنها لا تحتاج إلى راع ، وقد طالت غيبتي عن أمى

(١) كذا ورد هذا الاسم فى التوراة وتاريخ العبنى .

وخالتي وهارون أخي وأختي . فقال شعيب : إني أكره أن أمنعك . وأوصاه بأبنته وأوصاها ألا تخالفه ؛ وسار موسى — عليه السلام — بأهله يريد أرض مصر حتى بلغ جانب وادي طوى في عشية شديدة البرد ؛ وجاء الليل وهبت الرياح وغيمت السماء ؛ فأنزل موسى أهله وضرب خيمته على شفير الوادي ، وأدخل أهله فيها ؛ وهطلت السماء بالمطر ؛ وكانت امرأته حاملا ، فجاءها الطلق ، فجمع حطباً وقدر الزناد فلم يور ، فرماه وخرج من البيت ، فرأى نارا .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

ولم يكن هناك نار بل نور .

قال الثعلبي : واختلفوا في الشجرة ما كانت ، ف قيل : العوسجة . وقيل : العناب .

قال الكسائي : وأمر موسى بخلع نعليه ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طَوًى * وَأَنَا آخَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ .

قال : لأنه كان يركزها في الأرض ويعلق عليها كساءه وإداوته ونعليه ، ويقا تل بها السباع ، ويستظل بها من الشمس .

قال الله تعالى : ﴿ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ على مثال

الثعبان العظيم .

قال : فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ .

فلما أمعن في الهرب قال له جبريل : أتهرب من ربك وهو يكلمك ؟ قال : ما فررت إلا من الموت . ورجع وهي بجالها ؛ قال الله تعالى : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ .

فأدخل يده في فيها فإذا هي عصا ؛ ثم قال الله له : ﴿ وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴾ فذهب الخوف عن موسى ؛ ثم أمره الله تعالى أن يذهب إلى فرعون ، فقال : ﴿ أَذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ . قال موسى : رَبِّ أَسْرِحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا . قال الله تعالى : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ .

قال : ثم تذكر موسى ما كان منه فقال : رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ . فنودي : يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلِينَ . ثم ذكره الله عليه فقال : ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴾ الآيات ؛ ثم قال الله تعالى : ﴿ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى * فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ أَتَبَعَ الْهُدَى .

قال : وكان الخطاب لموسى وحده ، والرسالة له ولهارون .

قال : وأما ابنة شعيب فأشتد بها الطلق ، وسمع سكان الوادي من الجن أنينها ، فأتوها وأوقدوا النار عندها ، وقيلوها ؛ وقيض الله تعالى لها من ردها إلى أبيها ؛ والله المعين .

ذكر خبر مسير موسى إلى مصر واجتماعه بأخيه هارون وأمه

قال الكسائي : وسار موسى من الطُّور حتى بلغ العمران ؛ وكان هارون يومئذ وزيراً لفرعون على عادة أبيه لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً ؛ فبينما هو نائم إلى جنب سرير فرعون إذ أتاه آت في منامه ومعه شراب في كأس من الياقوت ، وقال : يا هارون اشرب هذه الشربة فهي بشارة بقدوم أخيك من أرض مدين ، وأنت شريكه في الرسالة إلى فرعون .

فانتبه هارون فزعا وظنّ ذلك من الشيطان ، وعاد إلى النوم ، فعاوده القائل ثلاث مرّات ؛ ثم قال له : قم إلى أخيك — وكانت الأبواب مغلقة — فأحمله الملك إلى قارعة الطريق وقال له : امض واستقبل أخاك . ثم أتاه جبريل بوحى الله وبشّره بالرسالة ، وحمله إلى شاطئ النيل ، وموسى إلى الجانب الآخر ؛ فكان يكلمه والريح تحمل كلامه إلى هارون ؛ ثم أذن الله لهما أن يلتقيا ؛ فجاء موسى إلى الجانب الآخر ، فالتقيا ؛ وبشّره بشركته في الرسالة ؛ ثم أقبلا إلى أمّهما وجبريل معهما ، فطرق هارون الباب وأمه في صلاتها ، فقامت من محرابها وقالت : من بالباب ؟ فقال موسى : أنا ولدك موسى وأخي هارون . ففتحت الباب ، ووقعت مغشياً عليها من الفرع ؛ ثم أفاقت ؛ وذكر لها موسى ما كان من أمره ؛ فسجدت لله تعالى ؛ ثم حمل جبريل هارون وأعادته عند رأس فرعون ؛ وأقام موسى بقيّة ليلته عند أمّه ، وخرج من الغد متنگراً ، فنظر إلى ما أحدثه فرعون في أرض مصر ورجع حتى أقبلت الليلة الثانية ، فخرج وجاء إلى قصر فرعون وبه الحجاب والحرس والجنود ، فقرع الباب بعصاه ، فانفتح ودخل حتى بلغ القبة الأرجوانية ، فانفتحت وعبرها وفرعون نائم بها ، وهارون عند رأسه ؛ فقام إليه هارون وقال : لقد عجّلت يا أخي . وأخرجه ؛ فأنصرف ، وغلّقت الأبواب كما كانت .

فلما كان من الغد جاء إلى فرعون فعرفه بعضهم ، وأنكره البعض ، وجاء بعض الوزراء إلى فرعون وأخبره به ، فأرعدت فرائضه ، وأمر هامان أن يخرج إليه ؛ فخرج وسأله عن اسمه ، فأخبره أنه موسى ؛ فعاد هامان إلى فرعون وأعلمه أنه هو ؛ فنظر إلى هارون وقال : أيقدم أخوك ولم تعلمني به ؟ فقال : أردت ذلك وإنما خشيت غضبك .

ذكر خبر دخول موسى - عليه السلام -

إلى فرعون وما كان من أمره معه

قال : وأمر فرعون أن يزين قصره ، وجلس والتاج على رأسه ، ووقف الوزراء عن يمينه وشماله ، وأحضر موسى ؛ فلما رآه عرفه ، ثم قال له : من أنت ؟ قال : أنا عبد الله ورسوله وكليمه . قال : أنت عبد فرعون . قال : إن الله أعز من أن يكون له نذ . قال له فرعون : إلى من أرسلت ؟ قال : إليك وإلى جميع أهل مصر . قال : فبماذا ؟ قال : أن يقولوا لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأتى موسى عبده ورسوله . قال : فما حجتك ؟ فإن لكل مدع بيّنة . قال : إن أتيتك بيّنة تؤمن ؟ قال : نعم . قال موسى : يا هارون ، انزل عن الكرسي وبلغ فرعون الرسالة . فنزل وقال : يا فرعون . إنا رسول ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعدّهم . قد جئناك بآية من ربك والسلام على من أتبع الهدى . فقال فرعون : فمن ربكما يا موسى * قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، الآيات .

فغضب فرعون على هارون ، وأمر هامان بنزع ما عليه من اللباس ؛ فنزعه حتى بقي بالسراويل ، فألبسه موسى مدرعة الصوف ؛ فاقشعرت جلده ؛ فنزل جبريل بقميص كونه الله تعالى فكان وألبسه إياه ؛ فقال فرعون لهامان : احمل موسى

وأخاه إلى منزلك ودارهما ، فإن أطاعاني مكنتهما من خرائني ، ولا أقطع أمرا دونهما . ففعل ذلك ، فقالا له : يا هامان اشتر نفسك من ربك . فضحك من قولهما ، ثم أحضرهما من الغد إلى فرعون ، فأقبل على موسى وقال : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ آتَى فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * ٥ قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أى عن النبوة ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّهَا عَلَى أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ثم قال : تذببح أبناءهم وتستحي نساءهم ، فشكوك إلى رب العالمين . وكان فرعون متكئا ، فاستوى جالسا وقال : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ . فالتفت فرعون لمن حوله وقال : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ . قال موسى : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * ١٠ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ . قال فرعون : ﴿ لَئِنْ آخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ . قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * ١٥

ذكر خبر العصا حين صارت ثعبانا واليد البيضاء

قال : وبينما هما في المخاطبة وإذا بالعصا اضطربت في كف موسى ، فناداه جبريل : أطلقها يا نبي الله . فألقاها موسى ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ كأعظم ما يكون ، ثم تمثل مثال الجمل البختي وقام على رجليه حتى أشرف برأسه على حيطان القصر وتنفس نارا ودخانا ، وعطف على قبة فرعون فضربها فطحطحتها ، وجعلت لا تمر بشيء إلا ابتلعه ، وهاجت كالجمل المغتم ولها صوت كالرعد ، وأقبلت إلى قبة فرعون وهو فيها ، فوضعت لحياها الأسفل تحت القبة ، ولحياها الأعلى فوقها ، ورفعت القبة ٢٠

ثمانين ذراعا في الهواء ، وقالت : يا فرعون ، وعزة ربّي لو أذن لي لأبتلعنك بقصورك وأموالك . فلما نظر فرعون إلى ذلك وثب عن سريره - وهو أعرج - وجعل يعدو ويقول : يا موسى بحق التربية والرضاع ، وبحق آسية كفها عنا . فنادها ، فأقبلت ، فأدخل يده في فيها ، وقبض على لسانها فإذا هي عصا كما كانت ؛ فعاد فرعون إلى مكانه وقال : يا موسى ، لقد تعلّمت بعدى سحرا عظيما . قال : يا فرعون ، ﴿ أَسْحَرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ . قال فرعون : هل عندك سحر غير هذا ؟ قال : نعم ؛ فأدخل يده في جيبه ، ثم أخرجها وعليها نور وشعاع ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَا تُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ .

ذكر خبر السحرة واجتماعهم وما كان من أمرهم وإيمانهم

قال : فأمر فرعون بجمع السحرة ؛ فاجتمع إليه سبعون ألف ساحر ؛ فاختار منهم سبعين ساحرا - وهم أحذق الخلق - .

وحكى الثعلبي عن عطاء قال : كان رئيسا السحرة بأقصى مدائن الصعيد وكانا أخوين ؛ فلما جاءهما رسول فرعون قالا لأمتهما : دلّينا على قبر أبينا . فدلّتهما عليه ؛ فأتياه فصاحا بأسمه ، فأجابهما ؛ فقالا له : إن الملك قد وجه إلينا أن نقدم إليه ، لأنه أتاه رجلان ليس معهما رجال ولا سلاح ، ولهما عزّ ومنعة ، وقد ضاق الملك ذرعا بهما ، ومعهما عصا إذا ألقياها لا يقوم لها شيء حتى تبتلع الحديد والخشب والحجارة . فأجابهما أبوهما : أنظرا إذا هما ناما ، فإن قدرتما أن تسلا العصا فسلاها ، فإن الساحر لا يعمل سحره وهو نائم ، فإن عملت العصا وهما نائمان فذلك

أمر رب العالمين فلا طاقة لكما به ولا للملك ولا لجميع أهل الدنيا . فأتياهما خفية وهما نائمان ليأخذاها ، فصعدتهما .

قال الكسائي : وبعث فرعون إلى موسى فأحضره وقال ما أخبر الله تعالى به عنه : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَادْنُاْ يَدَيْكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ .

قال : ويوم الزينة هو أول يوم من السنة ؛ فلما كان في ذلك اليوم اجتمع الناس من أطراف أرض مصر في صعيد واحد ، فأخذ فرعون يقول للسحرة : اجتهدوا أن تغلبوا موسى . قالوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قال فرعون : نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ .

وأقبل موسى وهارون وقد أهدقت بهما الملائكة ، فرأى موسى الوادى وقد أمتلأ من الحبال والعصى ؛ فقال موسى : وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى .

قال : وكان في السحرة ساحران عظيمان — وهما رأس السحرة — فقالا : يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى . فهمم موسى أن يلقى ، فمنعه جبريل ، وأجرى الله على لسانه فقال : بَلْ أَلْقُوا ؛ فَالْقُوا وَسَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ . قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ . فآمتلأ الوادى من الحيات ، وجعلت يركب بعضها بعضها ؛ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا

صَنَعُوا كَيْدًا سَاحِرٍ وَلَا يُفَاحِ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿ فَعِنْدَهَا زَالٌ خَوْفُهُ وَقَالَ : مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . ثُمَّ أَلْقَى عَصَاهُ فِي وَسْطِ الْوَادِي ، فَانْكَشَفَ سِحْرَ السَّحَرَةِ ، وَبَطَلَ مَا أَظْهَرُوهُ مِنَ التَّخْيِيلِ ، فَإِذَا هِيَ حِبَالٌ وَعِصَى ، وَصَارَتْ عَصَا مُوسَى ثَعْبَانًا لَهُ سَبْعَةُ أَرْؤُسَ ، وَعَلَى ظَهْرِهِ مِثْلُ الْأَزْجَةِ ^(١) ، فَأَبْتَلَعَتِ الْحِبَالُ وَالْعِصَى وَجَمِيعَ مَا كَانَ فِي الْوَادِي مِنَ الزَّيْنَةِ ، فَقَامَ فِرْعَوْنُ وَوُزَرَائِهِ فَوْقَهُ عَلَى تَلٍ يَنْظُرُونَ فَعَلَ الْحَيَّةُ وَهَمَّ خَائِفُونَ ، ثُمَّ حَمَلَتْ عَلَى السَّبْعِينَ رَجُلًا فَوَلَّوْا هَارِبِينَ عَلَى وُجُوهِهِمْ ، ثُمَّ اجْتَمَعُوا بِأَجْمَعِهِمْ وَقَالُوا : مَا هَذَا بِسِحْرٍ . وَنَحَرُوا سَجْدًا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَلْقِ السَّحَرَةَ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ .

قال : فاغتم فرعون لذلك وقال للسحرة : ﴿ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

وأمر أن يفعل بهم ذلك ، فقالوا ما أخبر الله به تعالى عنهم : ﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنْ مَتَّ تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ .

ثم صلبوا على سبعين جذعا بعد أن قطع فرعون أيديهم وأرجلهم .

ذكر خبر حرق آل فرعون

قد قيل : إن خبر مؤمن آل فرعون كان قبل خبر السحرة ، وسياق الآيات يدل على أن خطابه لفرعون كان بعد خبرهم ، وذلك أنه لما كان من أمر السحرة

(١) زاد الكسائي بعد هذه الكلمة : « والأسنة » .

ماذكرناه، قال الملاء من قوم فرعون ما أخبر الله تعالى به عنهم، قال الله تعالى :
﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرِي مَوْسَى وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ
وَأَٰلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ . وقال الله
تعالى إخباراً عن فرعون : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ
دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ .

قال : فلما عزم فرعون على قتل موسى ، أقبل حزقيل على القوم — وكان
خازن فرعون وزوج ماشطة بناته — فقال ما أخبر الله تعالى عنه : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ
مُّؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي
يَعِدُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ
فِي الْأَرْضِ قَتْنُ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ .

ففزع فرعون من قوله وقال : مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ
الرَّشَادِ .

نخوفهم المؤمن وقال ما أخبر الله تعالى به عنه : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ
بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ *
يَوْمَ تُنَادُونَ مَدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ .

فلما سمع فرعون كلامه غضب وقال : كأنك ممن اتبع موسى ، فأرجع عن
ذلك وإلا عاقبتك بأنواع العذاب . فقال له حزقيل : يَا قَوْمِ أَتَبْعُونَ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ

ثم قال : وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي
لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لَا جَرَمَ
أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّمَا مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ
الْمُسِيرِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ
اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ؛ ولحق بموسى وهارون ، وفارق فرعون وقومه ؛ قال الله تعالى :
﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكُرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ .

وحكى الثعلبي أن فرعون قتله مع السحرة صلبا ؛ ثم ذكر بعد ذلك أنه كان مع
موسى عليه السلام لما فرق الله له البحر ؛ والله تعالى أعلم .

ذكر خبر بناء الصرح وما قيل فيه

قال : ولما آنقضى أمر السحرة أقبل فرعون على هامان وقال : ﴿ يَا هَامَانُ
ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلَّ أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي
لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ .

قال : فجمع هامان خمسين ألف صانع وصنع القرميد — وهو الآجر ، وهامان
أول من صنعه — فكانوا يبنون فيه ليلا ونهارا لا يفترون ؛ فلما تكامل الصرح
وآرتفع آرتفاعا عظيما ، أمر الله عز وجل جبريل فهدمه وجعل عاليه سافله
ومات كل من كان فيه على دين فرعون ، والمؤمنون يزدون ويجمعون إلى موسى
عليه السلام .

وحكى أبو إسحاق الثعلبي — رحمه الله — أن الصرح اجتمع فيه لبنائه
خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء ممن يطبخ الآجر والجص وينجر الخشب
والأبواب ويضرب المسامير ؛ فلم يزل يبنى ذلك الصرح ؛ ويستمر الله تعالى له أمره

آستدراجا منه ، فأتى الأمر فيه على ما يريد ، إلى أن فرغ في سبع سنين ، فارتفع
ارتفاعا لم يبلغه بنيان أحد من الخلق منذ خلق الله السموات والأرض ؛ فشق ذلك
على موسى ، فأوحى الله تعالى إليه : أن دعه وما يريد فأنى مستدرجه ومبطل
كل ما عمله في ساعة واحدة .

٥ قال : فلما تم بنيانه بعث الله عز وجل جبريل فضرب بجناحه الصرح ، فقذف
به على عسكر فرعون ، فقتل منهم ألفى ألف رجل .

قالوا : ولم يبق أحد ممن عمل فيه إلا أصابه موت أو حريق أو عاهة .

قال : وكان تدمير الله تعالى الصرح فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

١٠ قال : فلما رأى فرعون ذلك من أمر الله ، وعلم أن حيلته لم تغن عنه شيئا
عزم على قتال موسى ومن معه ، وأمر أصحابه فنصبوا له الحرب ؛ فلما رأى الله
تعالى ذلك من فعل فرعون وقومه ، وأنه حقت عليهم كلمة العذاب ، ابتلاهم الله
تعالى بالعذاب والآيات .

ذكر خبر الآيات التسع

١٥ قال الكسائي : ثم أخذ الله تعالى قوم فرعون بالآيات التسع ، فكان أول
ما جاءهم الطوفان ، فدام عليهم ثمانية أيام لا يرون فيها شمساً ، حتى أمتلات الأسواق
والدور ، وأخذت في الخراب ؛ فالتجأوا إلى فرعون ، فقال : سأكشف ذلك عنكم .
ودعا موسى وسأله أن يدعو برفع الطوفان ليؤمن به ؛ فطمع موسى في ذلك ، فسأل
الله تعالى ، فرفع ذلك عنهم ، فآزادوا كفراً ، فبعث الله تعالى عليهم الجراد فأكل
أشجارهم وزرعهم ، ودام ثمانية أيام ، ففزعوا إلى فرعون ، فوعدهم بصرفه عنهم
وضمن لموسى إن صرفه عنهم آمن به ؛ فدعا ربّه ، فأرسل الله على الجراد ريحاً باردة

فقتلته ، فلم يؤمنوا ، فبعث الله عليهم القمل فأكل جميع ما في بيوتهم ، وقرض ثيابهم وأبدانهم وشعورهم ، فضجّوا إلى فرعون ، فسأل موسى ووعده الإيمان ، فسأل الله تعالى ، فصرفه عنهم بعد ثمانية أيام وأماته ، فازدادوا كفرا ، فأرسل الله تعالى عليهم الضفادع ، فكانت تدخل في طعامهم وشرابهم ، وكانت لها رائحة منتنة فدامت ثمانية أيام ، فسأل موسى ، فلما كشفها الله عنهم لم يؤمنوا وأزدادوا كفرا ، فأمس الله تعالى موسى : أن أضرب بعصاك النيل . فضربه فتحول دما عبيطا ، فاشتدّ بهم العطش ، فكان الإسرائيلي والفرعوني يأتیان إلى موضع واحد ، فإذا أخذه الإسرائيلي يكون ماء ، وإذا أخذه الفرعوني كان دما ، فدام ذلك ثمانية أيام حتى أجهدهم العطش وأشرفوا على الهلاك ، فلما كشفه الله عنهم بدعوة موسى أزدادوا كفرا .

١٠ ذكر خبر مسح قوم فرعون

قال : ولما لم يؤمنوا بهذه الآيات ، قال موسى : رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ، وكان الدعاء من موسى ، والتأمين لهارون ، فأوحى الله إليهما : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا ۝ الْآيَةُ ۝ ﴾ .

١٥ قال : فطمس الله تعالى على كثير منهم ، حتى أصبح الرجال والنساء والصبيان والأموال كلها حجارة ، فلم يؤمنوا ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۝ ﴾ .

قال عمر بن عبد العزيز في تفسيره : كان أول الآيات العصا ، واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس والبحر حتى صار يئسا .
٢٠ هذا ملخص ما حكاه الكسائي .

وحكى أبو إسحاق الثعلبي في قصصه عن ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة
ومحمد بن إسحاق وغيرهم من أصحاب الأخبار — دخل حديث بعضهم في حديث
بعض — قالوا : لما آمنت السحرة وصلبهم فرعون ، وأنصرف موسى وهارون إلى
عسكر بنى إسرائيل ، أمر فرعون أن يكلفوا بنى إسرائيل ما لا يطيقونه ، فكان
الرجل من القبط يجرى إلى الرجل من بنى إسرائيل فيقول له : انطلق معي فأكس
حشى^(١) واءلف دوابي وأستق لي . وتجيء القبطية إلى الكريمة من بنى إسرائيل
فتكلفها ما لا تطيق ، ولا يطعمونهم في ذلك كله خبزا ، وإذا انتصف النهار يقولون
لهم : اذهبوا فاكسبوا لأنفسكم . فشكوا ذلك إلى موسى ، فقال لهم : استعينوا بالله
وأصبروا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . قالوا :
يا موسى : أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، كما نطعم إذا استعملونا
من قبل أن تجيئنا ، فلمَّا جئتنا استعملونا ولا يُطعمونا . فقال لهم موسى : عسى
ربكم أن يهلك عدوكم يعني فرعون والقبط ، ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف
تعملون .

قالوا : فلمَّا أبى فرعون وقومه إلا الإقامة على الكفر ، والتمادى في الشر
والظلم ، دعا موسى ربه وقال : رب إن عبدك فرعون طغى في الأرض وبنى وعتا
وإن قومه نقضوا عهدك وأخلفوا وعدك ، رب نخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نعمة
ولقومي عظة ، ولمن بعدهم من الأمم عبرة . فتابع الله عليهم الآيات المفصّلات
بعضها في إثر بعض ، فأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات ، ثم بعث عليهم الطوفان
(وهو الماء) أرسل عليهم السماء حتى كادوا يهلكون ، وبيوت بنى إسرائيل وبيوت
القبط مشبكة مختلطة بعضها في بعض ، فامتلات بيوت القبط حتى قاموا في الماء

(١) الحش : يكنى به عن بيت الخلاء ؛ وهو مثلك الحاء .

إلى تراقيهم ، فمن جلس منهم غرق ، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل من الماء قطرة
 وفاض الماء على وجه أراضهم كذلك ، فلم يقدرُوا على أن يحرقُوا ولا يعملُوا شيئاً ،
 ودام ذلك عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت ؛ فقالوا لموسى : ادع لنا ربك
 يكشف عنا هذا البلاء ونؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل . فدعا موسى
 ربه فرفع عنهم الطوفان ، فلم يؤمنوا ، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ، وعادوا أشتر
 مما كانوا عليه .

وآختلف العلماء في الطوفان ما هو ؛ فقال ابن عباس - رضى الله عنهما - :
 هو الماء أرسله الله تعالى عليهم .

وقال مقاتل : هو الماء طغى فوق حروثهم فأهلكها .

وقال الضحاك : هو الغرق .

وقال مجاهد وعطاء : هو الموت الذريع .

وقال وهب : هو الطاعون بلغة أهل اليمن ، أرسل الله الطوفان على أبكار
 آل فرعون فقبضهن في ليلة واحدة ، فلم يُبقَ منهن واحدة ولا دابة .

وقال أبو قلابة : الطوفان هو الجُدري ، والله تعالى أعلم .

قالوا : وأنبت الله تعالى لهم في تلك السنة من الكلى والزرع ما لم ينبت قبل
 ذلك ، فأعشبت بلادهم وأخصبت ، فقالوا : هذا ما كنا نتمناه ، وما كان هذا
 الماء إلا نعمة لنا وخصباً . فأقاموا شهراً في عافية ؛ ثم بعث عليهم الجراد فأكل
 زرعهم وثمارهم وأوراق أشجارهم والزهر ، حتى إن كان لياكل الأبواب والسياب
 والأمتعة وسقوف البيوت والحشب والمسامير حتى سقطت دورهم ، والجراد
 لا يدخل بيوت بني إسرائيل ولا يصيبهم من ذلك شيء ؛ فعجّوا وضجّوا ، وقالوا :

يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرَّجْزَ أَنْتَ وَمَنِ لَكَ وَلِنُرْسِلَنَّ
مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؛ فَأَعْطَوْهُ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ ؛ فَدَعَا مُوسَى رَبَّهُ ، فَكَشَفَ اللَّهُ
تَعَالَى عَنْهُمْ الْجَرَادَ بَعْدَ مَا أَقَامَ عَلَيْهِمْ سَبْعَةَ أَيَّامٍ مِنَ السَّبْتِ إِلَى السَّبْتِ .

ويقال : إن موسى برز إلى الفضاء ، فأشار إلى المشرق بالعصا فذهب الجراد
من حيث جاء كأن لم يكن قطّ .

قالوا : فأقاموا شهرا في عافية ؛ ثم بعث الله عليهم القُمَّل ، وذلك أن موسى
أمر أن يمشى إلى كَثِيبٍ أَغْبَرَ بَقْرِيَّةً مِنْ قَرْيٍ مَصْرَ تَدْعَى : (عين شمس) فمشى
موسى إلى ذلك الكَثِيبِ — وكان عظيما — فضربه بعصاه ، فَأَنْثَالَ عَلَيْهِمُ الْقُمَّلُ
فَتَتَبَعَ مَا بَقِيَ مِنْ حُرُوشِهِمْ وَأَشْجَارِهِمْ وَنَبَاتِهِمْ فَأَكَلَهُ وَلَحَسَ الْأَرْضَ كُلَّهَا ، وكان يدخل
بين ثوب أحدهم وبين جلده فيعضّه ، وكان يأكل أحدهم الطعامَ فيمتلئ قُمَّلا ، حتى
إن أحدهم ليبنى الأُسْطُوَانَةَ بِالْحِصِّ فَيُزَلِّقُهَا حَتَّى لَا يَرْتَقِيَ فَوْقَهَا شَيْءٌ ، ثم يرفع فوقها
طعامه ، فإذا صعد إليه لياأكله وجده مَلَانًا قُمَّلا ، فَمَا أُصِيبُوا بِبَلَاءٍ كَانَ أَشَدَّ عَلَيْهِمْ
مِنَ الْقُمَّلِ ؛ وَأَخَذَ الْقُمَّلُ شَعُورَهُمْ وَأَشْفَارَ عَيُونِهِمْ وَحَوَاجِبِهِمْ ، وَلَصَقَ بِجُلُودِهِمْ
كَالْحُدْرَى ، وَمَنَعَهُمُ النَّوْمَ وَالْقَرَارَ ، وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا لَهُ حِيلَةً .

وقد اختلفوا في القُمَّل ما هو ؟ فروى عن أبي طلحة أنه الذباب لا أجنحة له .
وروى معمر عن قتادة قال : القُمَّل أولاد الجراد .

وعن عبد الرحمن بن أسلم قال : هو البراغيث .

وقال عطاء : هو القُمَّل ؛ دايله قراءة الحسن : « والقُمَّل » بفتح القاف
وسكون الميم .

وقال أبو عبيدة : هو الحَمَّان ، وهو ضرب من القردان .

- وقال سعيد بن جبـير عن آبن عباس — رضى الله عنهم — : القُمَّل ، هو السوس الذى يخرج من الحنطة والحبوب ، فكان الرجل يُخرج عشرة أقفزة فلا يردّ منها إلّا ثلاثة أقفزة ؛ فلما رأوا ذلك شكوا إلى موسى وصاحوا وقالوا : ياأيها الساحر أى أيها العالم إنا نتوب إلى الله ولا نعود ، فآدع لنا ربك يكشف عنا هذا البلاء .
- فدعا موسى ربه ، ورفع الله تعالى عنهم القُمَّل بعد ما أقام عليهم سبعة أيّام من السبت إلى السبت ، ثم نكثوا العهد ، وعادوا إلى خبث أعمالهم ، وقالوا : ما كنا قطّ أحقّ أن نستيقن أن موسى ساحر إلّا اليوم ، فيجعل الرمل والرماد دوابّ ، فعلى ماذا نؤمن به ونرسل معه بنى إسرائيل ؟ فقد أهلك زرعنا وحروثنا ، وأذهب أموالنا ، فما عسى أن يفعل أكثر مما فعل ، وعزّة فرعون لا نصدّقه أبدا ولا نتبعه .
- فدعا عليهم موسى بعد ما أقاموا شهرا فى عافية — وقيل أربعين يوما — فأوحى الله تعالى إليه وأمره أن يقوم على ضفّة النيل فيغرز عصاه فيه ، ويشير بالعصا إلى أدناه وأقصاه وأعلاه وأسفله ؛ ففعل موسى ذلك ، فتداعت إليه الضفادع بالتّقيق من كلّ جانب حتى أعلم بعضها بعضها ، وأسمع أدناها أقصاها ؛ ثم خرجت من النيل مثل البحر تدبّ سِراعا نحو باب المدينة ، فدخلت عليهم فى بيوتهم بغتة ، وأمتلأت منها أفنيئهم وأبنيتهم وأطعمتهم ؛ وكان أحدهم لا يكشف ثوبا ولا إناء ولا طعاما ولا شرابا إلّا وجد فيه ضفادع ؛ وكان الرجل يجلس الى ذقنه فى الضفادع ، ويهمّ أن يتكلّم فيثب الضفدع فى فيه ؛ وكان أحدهم ينام على فراشه وسريه فيستيقظ وقد ركبته الضفادع ذراعا بعضها فوق بعض ، وصارت عليه حتى لا يستطيع أن ينصرف إلى شقه الآخر ؛ وكان أحدهم يفتح فاه لأكلته فتستبق الضفادع إلى فيه ؛ وكانوا لا يعجنون إلّا آنشدخت فيه ، ولا يطبخون إلّا أمتلات القدر بالضفادع ؛ وكانت تثب فى نيرانهم فتطفئها ، وفى طعامهم فتفسده ؛ فلقوا منها أذى شديدا .

وروى عن عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهم - قال : كانت الضفادع برية ، فلمّا أرسلها الله على فرعون سمعت وأطاعت ، فجعلت تمسح أنفسها في القدر وهي تفور ، وفي التناير وهي مسجورة ، فأثابها الله بحسن طاعتها برّد الماء .

- ٥ قال : فضجّوا إلى فرعون من أمر الضفادع ، وضاق عليهم أمرهم حتى كادوا يهلكون ، وصارت المدينة وطرقها مملوءة جيفاً من كثرة ما يطأونها بأقدامهم ، فلما رأوا ذلك بكوا وشكّوا ذلك إلى موسى ، وقالوا : اكشف عنا هذا البلاء فإننا نتوب هذه المرة ولا نعود . فأخذ بذلك عهودهم ومواثيقهم ، ثم دعا الله تعالى فكشف عنهم الضفادع ، فما كان منها حيّاً لحق بالنيل ؛ وأرسل الله تعالى ريحا على الميت منها فنحّته عن مدينتهم بعد ما قامت عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فأقاموا شهرا في عافية ؛ وقيل : أربعين يوما . ثم نقضوا العهود وعادوا إلى كفرهم وتكذيبهم ؛ فدعا عليهم موسى ، فأرسل الله تعالى عليهم الدم ، وذلك أنّ الله تعالى أمر موسى أن يذهب إلى شاطئ النيل ويضربه بعصاه ؛ ففعل ذلك ، فسال النيل عليهم دما ، وصارت مياههم كلّها دما عبيطا ، فما يشربون من الأنهار والآبار إلا وجدوا دما أحمر عبيطا ؛ فشكّوا ذلك إلى فرعون وقالوا ؛ إنا قد آبتنا بهذا الدم ، وليس لنا شراب . فقال : إنه قد سحركم . فكان يجمع بين الرجلين على الإناء : القبطي والإسرائيلي فيسقيان من ماء واحد ، فيخرج ماء القبطي دما ، وماء الإسرائيلي عذبا ؛ وكانا يقومان إلى البحّة فيها الماء ، فتخرج للإسرائيلي ماء وللقبطي دما ، حتى إنّ المرأة من آل فرعون كانت تأتى المرأة من بنى إسرائيل حين جهّدهم العطش فتقول : اسقيني من مائك . فتغرف لها من جرّتها ، وتصبّها لها من قربتها ، فيعود في الإناء دما ، حتى إنّ كانت المرأة تقول لها : اجعليه في فيك
- ١٠
- ١٥
- ٢٠

ثم مُجِّيه في فمى . فَنَأْخُذُ فِي فِيهَا مَاءً ، فَإِذَا مَجَّتْهُ فِي فِيهَا صَارَ دُمًا ، وَالنَّيْلُ عَلَى ذَلِكَ يَسْقَى
الزَّرْعَ وَالشَّجَرَ ؛ فَإِذَا ذَهَبُوا لِيَسْتَقُوا مِنْ بَيْنِ الزَّرْعِ عَادَ الْمَاءُ دُمًا عَيْبًا .

(٨١)

قالوا : وَإِنَّ فِرْعَوْنَ أَعْتَرَاهُ الْعَطَشُ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ ، حَتَّى إِنَّهُ أَضْطَرَّ إِلَى مَضْغِ
الْأَشْجَارِ الرُّطْبَةِ ، فَكَانَ إِذَا مَضَغَهَا يَصِيرُ مَأْوَاهَا فِي فِيهِ مِلْحًا أَجَاجًا وَمَرًّا زُعَاقًا ؛
فَمَكَثُوا فِي ذَلِكَ سَبْعَةَ أَيَّامٍ لَا يَأْكُلُونَ وَلَا يَشْرَبُونَ إِلَّا الدَّمَ ؛ فَقَالُوا لِمُوسَى : ادْعُ
لَنَا رَبَّكَ يَكْشِفْ عَنَّا هَذَا الدَّمَ فَتُؤْمِنَ لَكَ وَنُرْسِلَ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . فَدَعَا مُوسَى
رَبَّهُ فَمَكَشَفَ عَنْهُمْ ذَلِكَ ، وَأَمَرَ أَنْ يَضْرِبَ بَعْصَاهُ النَّيْلُ ضَرْبَةً أُخْرَى ؛ فَفَعَلَ
فَتَحَوَّلَ صَافِيًا كَمَا كَانَ ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا وَلَمْ يَفُؤْا بِمَا عَاهَدُوا عَلَيْهِ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى :
﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ ﴾ .

وقال نَوْفُ الْبِكَالِيِّ - وَهُوَ ابْنُ أَمْرَأَةٍ كَعْبِ الْأَحْبَارِ - : مَكَثَ مُوسَى
فِي آلِ فِرْعَوْنَ عَشْرِينَ سَنَةً بَعْدَ مَا غَلَبَ عَلَى السَّحَرَةِ يُرِيهِمُ الْآيَاتِ : الْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ
وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ .

وقال الضَّحَّاكُ : لَمَّا يَثُسُّ مُوسَى مِنْ إِيْمَانِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، وَرَأَى أَنَّهُمْ
لَا يَزْدَادُونَ إِلَّا الطَّغْيَانَ وَالْكَفْرَ وَالتَّمَادِي ، دَعَا عَلَيْهِمْ مُوسَى وَأَمَّنْ هَارُونَ . رَبَّنَا
إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا
أَطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ .
فَأَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيَا ﴾ الْآيَةَ .

قال : وَكَانَ لِفِرْعَوْنَ وَأَصْحَابِهِ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزَيْتَتِهَا مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
وَالْيَوَاقِيتِ وَأَنْوَاعِ الْجَوَاهِرِ وَالْحُلِيِّ مَا لَا يَحْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ؛ وَكَانَ أَصْلُ ذَلِكَ
الْمَالِ مِمَّا جَمَعَهُ يُوسُفُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي زَمَانِهِ أَيَّامَ الْقَحْطِ ، فَبَقِيَ ذَلِكَ

في أيدي القبط ، فأوحى الله تعالى إلى موسى : أني مورت بنى إسرائيل ما في أيدي آل فرعون من العُروض والحلي ، وجاعله لهم جَهازا وعتادا إلى الأرض المقدسة فأجعل لذلك عيداً تعتكف عليه أنت وقومك تشكرونني وتذكرونني فيه وتعظمونني ذلك اليوم ، وتعبدونني فيه لما أريكم من الظفر ونجاة الأولياء وهلاك الأعداء وأستعبروا لعيدكم من آل فرعون الحلي وأنواع الزينة ، فإنهم لا يمتنعون عليكم للبلاء الحال بهم في ذلك الوقت ، ولما قذفت إكم في قلوبهم من الرعب . ففعل موسى ذلك كما أمره الله تعالى ، فأمر فرعون بزينة أهله وولده وما كان في خزانته من أنواع الحلي ، فأعيرت بنى إسرائيل لما أراد الله تعالى بذلك أن يفىء على موسى وقومه أفضل أموال أعدائه بغير قتال ولا إيجاف خيل ولا رجل ؛ فلما دعا موسى عليهم مسخ الله تعالى الأموال التي بقيت في أيديهم حجارة حتى النخل والرقيق . ١٠

وقال محمد بن كعب : سألني عمر بن عبد العزيز عن الآيات التي أراهن الله تعالى فرعون وقومه ؛ فقلت : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد البيضاء والطمس وفلق البحر .

قال عمر : كيف يكون الفقه إلا هكذا . ثم دعا بخريطة فيها أشياء مما كان أصيب لعبد العزيز بن مروان لما كان على مصر من بقايا آل فرعون ، فأخرج البيضة مقسومة نصفين كأنها الحجر ، والجوزة مشقوقة نصفين وكأنها الحجر ، والحصى والعدسة . وروى ابن إسحاق عن رجل من أهل الشام كان بمصر قال : ورأيت نخلة مصروعة كأنها الحجر . ١٥

قال : ورأيت إنسانا وما شككت أنه إنسان وإنه لحجر ؛ وكان المسخ في أرقائهم دون أحرارهم ، إذ العبيد من جملة أموالهم ؛ فلم يبق لهم مال إلا مسخه الله تعالى ما خلا الذي في أيدي بنى إسرائيل من الحلي والجواهر وأنواع الزينة . ٢٠

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : أول الايات العصا ، وآخرها
الطمس ؛ وبلغنا أن الدنانير والدراهم صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأنصافا
وأثلاثا ، وجعل سكرهم حجارة ، وبعض المسخ من الآدميين باقٍ مشاهد إلى وقتنا
هذا ، وقد شاهدتُ أنا منه شخصا شكل خادم وهو جالس على كرسى بقرب البيت
الأخضر ببلاد الجزيرة ، وذلك في شهور سنة سبع عشرة وسبعمئة ، ولعله من ذلك
المسخ ، والله أعلم .

ذكر خبر قتل الماشطة

قال : وكانت لبنات فرعون ماشطة - وهى امرأة حزقيـل المؤمن - فبينما
هى تمشط إحدى بناته إذ سقط المـشط من يدها ، فقالت : تعس من كفر بالله .
فقالت لها آبنة فرعون : إنما تريدن من كفر أبى . فقالت : إنما عانيتُ من كفر
بإله موسى . فقامت إلى أبيها وأخبرته ، فغضب وأحضرها وقال : ما الذى بلغنى
عنك ؟ قالت : صدقوا ، أنا مؤمنة بإله موسى ، فأقـض ما أنت قاض . فشدها
إلى أوتاد من حديد ، وأحضر أولادها الثلاثة ، وعرض عليها أن تؤمن به ؛
فأبت ، فذبـحهم على صدرها وهى تـحمـد الله تعالى ، ثم طرحها فى تنور من نحاس
وأحرقها فيه وأحرق أولادها .

ذكر خبر قتل آسية بنت مزاحم امرأة فرعون

قال : لما قتل فرعون الماشطة ، سمعت آسية الملائكة تعدها بالجنة ، فقامت
من مجلسها وهى تقول : يا إله موسى ألبسنى الصبر وآرزقنى الشهادة وأبـنـى لى عندك
بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ، وخرجت على
فرعون وهى حاسرة عن وجهها ، وقالت له : يا ملعون ، الى كم تقتل أولياء الله

وتأكل رزق الله وتكفر نعمته ولا تشكره ، وترى آياته ولا تعتبر بها ؟ فقال لوزرائه :
قد أفسد على موسى حتى آسية ، وأستشارهم في أمرها ، فأشاروا عليه بقتلها ، فأمر
بنزع ما عليها ، وشدها إلى أوتاد في الأرض ، وضرب وتدين في صدرها فماتت
— رضى الله عنها — .

ذكر خبر أنقطاع النيل وكيف أجراه الله عز وجل لفرعون

قال الكسائي : ثم بعث الله تعالى الظلّمة على أهل مصر ثلاثة أيام ، فلم يعرفوا
الليل من النهار ، وأنقطع عنهم النيل حتى أضربهم العطش ، فشكوا ذلك إلى فرعون
فأمر بجمع الجنود وخرج ليُجْرِيه ، فلما قرب من مكانه انفرد عن القوم ونزل عن
فرسه وقال : إلهي إني لا إله إلا أنت ، وحلمك الذي يحملي
أن أسألك ما ليس لي بحق ، والخالق خَلَقَك ، وقد علمت ما هم فيه من العطش
وأنت المتكفل بأرزاقهم ، اللهم أجرهم النيل . فما فرغ من كلامه حتى أنصب
النيل ، وركب فرسه والنيل يجري معه إن سار سار وإن وقف وقف ، حتى
دخل مصر ، فسجد القوم له ، وازدادوا كفرا ، وعجب موسى وهارون لذلك .

ذكر خبر غرق فرعون وقومه

قال الكسائي : ولما رجع فرعون بجنوده وقد أجرى لهم النيل بزعمهم ، دخل
عليه جبريل في صورة آدمي حسن الهيئة ، فقال له : من أنت ؟ قال : عبد من
عبيد الملك جئتُك مستعديا على عبد من عبيدي مكنته من نعمتي ، وأحسنْتُ إليه
كثيرا ، فأستكبر وبغى وحمدني حتى وتسمى بأسمى ، وأدعى في جميع ما أنعمتُ
عليه به أنه له ، وأنه لا منعم عليه به . قال فرعون : بئس ذلك من العبيد . قال
جبريل : فما جزاؤه عندك ؟ قال : يُغْرَق في هذا البحر . فقال له جبريل : أسألك

أن تكتب لي خطك بذلك . فكتب له فرعون خطًا ، وأخذه جبريل وجاء به إلى موسى ، وأمره عن الله عز وجل أن يرتحل بقومه عن مصر ؛ فنادى موسى في بني إسرائيل وأمرهم بالرحيل ؛ فارتحلوا وهم يومئذ ستمائة ألف .

قال الثعلبي : ستمائة ألف وعشرون ألفا لا يُعدّ فيهم ابن سبعين سنة ولا ابن عشرين سنة ؛ ولكن هؤلاء المُقاتلة سوى الذرية . وأهل التوراة يقولون : إنه لا يُعدّ فيهم ابن خمسين سنة ولا ابن عشرين سنة ، لا خلاف عندهم في هذا ويزعمون أنه نص التوراة .

قال الكسائي : فلما سمع فرعون بارتحالهم أمر باجتماع جنوده ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشُرُذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لِنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ ﴾ . فاجتمعوا وهم لا يُحصون كثرة .
 قيل : إن هامان كان على مقدمة فرعون بألف ألف وستمائة ألف .
 وقال الثعلبي : ألف ألف وسبعمائة ألف رجل على ألف ألف وسبعمائة ألف حصان .

قال : وقال ابن جريج : أرسل فرعون في أثر موسى وقومه ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسوّر ، مع كل ملك ألف رجل ؛ ثم خرج فرعون خلفهم في الدّهم ، وكان في عسكره مائة ألف حصان أدهم سوى سائر الشّيات ، وذلك حين طلعت الشمس وأشرقت ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ .

قال الكسائي : وساروا حتى قربوا من موسى ومن معه ، فقالوا : يا موسى ، قد لحقنا فرعون بجنوده ، والبحر أمامنا والسيف وراءنا . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ .
 فأوحى الله تعالى إلى موسى : ﴿ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ فضربه ﴿ فَأَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ . وصار فيه اثنا عشر طريقا للأسباط الإثني عشر

٨٣

فجعلوا يسرون وموسى أمامهم وهارون وراءهم ، وجعل الله بينهم فتحا ليرى بعضهم بعضا ، وجاء فرعون ومن معه إلى البحر ورأى تلك الطرق فيه ، فقال لهامان : هذه تفرقت من هيبتي . وقصد الافتحام فلم يطاوعه فرسه — وكان حصانا — ونهر من العبور ، فأناه جبريل على رمكة في صورة آدمي ، فدنا من فرعون وقال : ما يمنعك من العبور ؟ وتقدم إلى جنبه ، فأشتم فرس فرعون رائحة الرمكة فتبعها ودخل فرعون وجنوده وجبريل أمامهم وميكائيل يسوق الناس ، حتى لم يبق من جنود فرعون أحد على الساحل ، بخاءه جبريل بخطه ، فلما رآه فرعون علم أنه هالك وأنضمت الطرق ، وأغريق الناس ، وفرعون ينظر إليهم ، قال الله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ . فقال له جبريل : الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ .

ثم غرق فرعون وجميع من معه وبنو إسرائيل ينظرون إليهم ، ثم قال بنو إسرائيل : إن فرعون لم يغرق . فأمر الله تعالى البحر فألقاه على الساحل . قال الله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ﴾ .

قال : فلما عبر موسى البحر بنى إسرائيل إلى الطور ، إذا هم في طريقهم يقوم يعبدون الأصنام ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ثم قال أغير الله أبغيتكم إلهًا وهو فضلكم على العالمين ، وذكرهم بنعم الله تعالى عليهم ، وأمرهم بالتوبة والاستغفار ، ثم ساروا وفي قلوبهم حب الأصنام حتى

ذكر خبر ذهاب موسى — عليه السلام — لميقات ربه

وطلبه الرؤية وخبر الصاعقة والإفاقة

حكى أبو إسحاق الثعلبي في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَاعْدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ .

قال : كان ذلك في شهر ذي القعدة وعشر من ذي الحجة .

قال : وذلك أت موسى — عليه السلام — كان قد وعد بني إسرائيل وهو بمصر إذا خرجوا منها وهلك عدوهم أن يأتيهم بكتاب فيه ما يأتون وما يذرون ؛ فلما أهلك الله تعالى فرعون وقومه وأستنقذ بني إسرائيل من أيديهم ، وأقمنهم من عدوهم ، ولم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليها ، قالوا : يا موسى آتتنا بالكتاب الذي وعدتنا به . فسأل موسى ربه تعالى ذلك ؛ فأمره أن يصوم ثلاثين ليلة ثم يتطهر ^(١) ويطهر ثيابه ويأتي طور سيناء ليكلمه ويعطيه الكتاب ؛ فصام ثلاثين يوماً ؛ فلما صعد الجبل أنكر خلوف فيه ، فأستاك بعود خرنوب .

وقال أبو العالية : أخذ من لحاء الشجر قمصه ؛ فقالت له الملائكة : كنا نشم من فمك رائحة المسك فأفسدته بالسواك . فأوحى الله تعالى إليه أن صم عشرة أيام أخر ، وقال له : أما علمت يا موسى أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك ؟

قال : وكانت فتنة بني إسرائيل في العشر ليالى التي زادها الله تعالى ؛ فلما مضت أربعون ليلة تطهر موسى ويطهر ثيابه لميقات ربه ؛ فلما أتى طور سيناء كلمه ربه وناجاه ، وقربه وأدناه ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ .

قال وهب : كان بين الله تعالى وبين موسى سبعون حجابا ، فرفعها كلها
إلا حجابا واحدا ، فسمع موسى كلام الله تعالى واشتاق إلى رؤيته وطمع فيها ، فقال
ما أخبر الله — عز وجل — به عنه في كتابه ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى
لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ . فقال الله تعالى له : ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾
وليس يطيق البشر النظر إلى في الدنيا ، من نظر إلى مات . قال : إلهي سمعت
كلامك فاشتقت إلى النظر إليك ، ولأن أنظر إليك ثم أموت أحب إلى من أن
أعيش ولا أراك . فقال له تعالى : ﴿ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ﴾ وهو أعظم جبل يقال
له : (الزبير) .

قال : وذلك أن الجبال لما علمت أن الله تعالى يريد أن يتجلى للجبل منها
تعاظمت وتشاхت رجاء أن يتجلى الله تعالى لها ، وجعل الزبير يتواضع من بينها
فلما رأى الله تعالى تواضعه رفعه من بينها ، وخصه بالتجلى ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ
انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ . فتجلى الله تعالى للجبل .

قال : واختلف العلماء في معنى التجلى ؛

قال ابن عباس : ظهر نوره للجبل .

وقال الضحاك : أظهر الله تعالى من نور الحجب مثل منخر الثور .

٨٤

وقال عبيد الله بن سلام وكعب : ما تجلى من عظمة الله تعالى للجبل إلا مثل
سم الخياط حتى صار دكا .

وقال السدي : ما تجلى منه إلا قدر الخنصر .

وقال الحسن : أوحى الله تعالى إلى الجبل فقال : هل تطيق رؤيتي ؟ فغار

الجبل وساخ في الأرض وموسى ينظر إليه حتى ذهب أجمع .

قال أبو إسحاق : قال أبو بكر محمد بن عمر الوراق : حُكِيَ لِي عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَظْهَرَ مِنْ سَبْعِينَ أَلْفَ حِجَابٍ نُورًا قَدَرِ دِرْهَمٍ ، بِفَعْلٍ الْجَبَلِ دَكَا .

قال أبو بكر : فَعُذِبَ إِذْ ذَاكَ كُلُّ مَاءٍ ، وَأَفَاقُ كُلِّ مَجْنُونٍ ، وَبِرَأْ كُلِّ مَرِيضٍ وَزَالَ الشُّوكُ عَنِ الْأَشْجَارِ ، وَأَخْضَرَّتِ الْأَرْضُ وَأَهْتَرَّتْ ، وَنَحَدَّتْ نِيرَانُ الْمَجُوسِ وَنَحَرَّتِ الْأَصْنَامُ لَوُجُوهَهَا .

وقال السَّديّ : مَا تَجَلَّى لِلْجَبَلِ إِلَّا مَقْدَارُ جَنَاحٍ بِعَوْضَةٍ ، فَصَارَ الْجَبَلُ دَكَا .

قال ابن عباس — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا — : تَرَابًا .

وقال سفيان : سَاخَ حَتَّى وَقَعَ فِي الْبَحْرِ .

وقال عطية العوفيّ : صَارَ رَمْلًا هَائِلًا .

وقال الكلبيّ : ﴿ جَعَلَهُ دَكَا ﴾ ، أَيْ كُسِّرَ جَبَالًا صَغَارًا .

وعن أنس بن مالك — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — قال : قال رسول الله — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — :

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكَا ﴾ قال : صَارَ بِعَظْمَةِ اللَّهِ سِتَّةَ أَجْبِلٍ ، فَوَقَعَتْ

ثَلَاثَةٌ بِالْمَدِينَةِ : أَحَدٌ ، وَوَرِقَانٌ ، وَرَضْوَى ^(١) . وَوَقَعَتْ ثَلَاثَةٌ بِمَكَّةَ : ثَوْرٌ ، وَثَبِيرٌ ^(٢)

وَحِرَاءٌ . ﴿ وَنَحَرَ مُوسَى صَعِقًا ﴾ . قال ابن عباس — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا — :

مَغْشِيًا عَلَيْهِ .

وقال قتادة : مَيِّتًا .

وقال الكلبيّ : نَحَرَ مُوسَى صَعِقًا : يَوْمَ الْخَمِيسِ يَوْمَ عَرَفَةَ ، وَأَعْطِيَ التَّوْرَةَ

يَوْمَ الْجُمُعَةِ يَوْمَ النَّحْرِ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَقَانَا » ؛ وَهُوَ تَحْرِيفُ صَوَابِهِ مَا أَثْبَتْنَا .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « وَرَوْضًا » ؛ وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

قال الواقدي : لما نحر موسى صعبا قالت الملائكة : ما لأبن عمران وسؤال الرؤية .

قال وهب : لما سأل موسى الرؤية أرسل الله تعالى الضباب والصواعق والظلمة والرعد والبرق فأحاطت بالجبل الذي عليه موسى ، وأمر الله تعالى ملائكة السموات أن يعرضوا على موسى أربعة فراسخ من كل ناحية ، فمرت ملائكة سماء الدنيا كثيران البقر ، تتابع أفواههم التقديس والتسبيح بصوت عظيم كصوت الرعد الشديد ، ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الثانية : أن أهبطوا على موسى . فهبطوا عليه مثل أسد لهم نحيب بالتسبيح والتقديس ، ففزع موسى مما رأى وسمع وأقشعر جلده ، ثم قال : ندمت على مسألتى ، فهل ينجيني من مكاني الذي أنا فيه شيء ؟ فقال له حبر الملائكة ورأسهم : يا موسى أصبر لما رأيت ، فقليل من كثير رأيت . ثم هبطت ملائكة السماء الثالثة كأمثال النسور ، لهم قصف ورجف بالتسبيح والتهليل والتقديس كجلب الجيش العظيم وكلهب النار ، ثم هبطت عليه ملائكة السماء الرابعة لا يشبههم شيء من الذين مروا به قبلهم ، ألوانهم كلهب النار ، وسائر خلقهم كالثلج الأبيض ، أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لا يقاربهم شيء من أصوات الذين مروا به قبلهم ، ثم هبطت عليه ملائكة السماء الخامسة في سبعة ألوان ، فلم يستطع موسى أن يتبعهم الطرف ، لم ير مثلهم ولا سمع مثل أصواتهم ، وأمتلا جوف موسى فزعا ، وأشتد حزنه وكثر بكؤه ، ثم قال له حبر الملائكة ورأسهم : يا ابن عمران ، مكانك حتى ترى ما لا تصبر عليه ، ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء السادسة أن أهبطوا على عبدى الذى أراد أن يرانى ، فعرضوا عليه وفي يد كل منهم حربة مثل النخلة الطويلة ، نارها أشد ضوئا من الشمس ، ولباسهم كلهب النيران ، إذا سبّحوا وقدسوا جاوبهم من كان قبلهم

من ملائكة السموات ، كلهم يقولون بشدة أصواتهم : سُبَّوح قُدُّوس رَبُّ الْعِزَّةِ
أَبَدًا لَا يَمُوت . وفي رأس كل ملك منهم أربعة أوجه ؛ فلما رآهم رفع صوته يَسْبِّحُ
معهم ويبكى ويقول : رَبِّ أَذْكَرْنِي وَلَا تَنْسَ عَبْدَكَ ، لَا أَدْرِي هَلْ أَتَخَلَّصُ مِمَّا
أَنَا فِيهِ أَمْ لَا ، إِنْ خَرَجْتُ أَحْتَرَقْتُ وَإِنْ مَكَثْتُ مِتُّ . فقال له كبير الملائكة
ورئيسهم : قد أوشكت يا بن عمران أن يشتد خوفك وينخلع قلبك ، فاصبر للذي
سألت .

ثم أمر الله تعالى أن يُحْمَلَ عَرْشُهُ فِي مَلَائِكَةِ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، فقال : أَرُوهُ إِيَّاهُ .
فلما بدا نور العرش آنفرج الجبل من عظمة رَبِّ الْعِزَّةِ ، ورددت ملائكة السموات
أصواتهم جميعاً ؛ فَأَرْتَجَّ الْجَبَلُ ، وَأَنْدَكَتْ كُلُّ شَجَرَةٍ كَانَتْ فِيهِ ، وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا
ليس معه رُوحه ؛ فَقَابَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَجْرَ الَّذِي كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ وَجَعَلَهُ كَهَيْئَةِ الْقُبَّةِ
لئلا يحترق موسى ؛ وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ رُوحَ الْحَيَاةِ بِرَحْمَتِهِ ؛ فَقَامَ مُوسَى يَسْبِّحُ اللَّهَ تَعَالَى
ويقول : آمَنْتُ أَنَّكَ رَبِّي وَصَدَّقْتُ أَنَّهُ لَا يِرَاكَ أَحَدٌ ، فَنَجِّنِي ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَى
مَلَائِكَتِكَ أَنْخَلَعَ قَلْبُهُ ، فَمَا أَعْظَمَكَ وَأَعْظَمَ مَلَائِكَتُكَ ! أَنْتَ رَبُّ الْأَرْبَابِ وَإِلَهُ
الْأَلْهَةِ وَمَلِكُ الْمُلُوكِ ، لَا يَعْدِلُكَ شَيْءٌ ، وَلَا يَقُومُ لَكَ شَيْءٌ ، تَبْتَ إِلَيْكَ ، الْحَمْدُ لَكَ
لَا شَرِيكَ لَكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

ذكر خبر الألواح ونزول التوراة والعشر كلمات

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ
قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ * قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى
النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي نَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ * وَكَتَبْنَاهُ فِي الْأَلْوَابِ
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ نَخُذُهَا بِقُوَّةٍ ۝ ﴾ .

قال الثعلبيّ : ثم بعث الله جبريل — عليه السلام — إلى جنة عدن فقطع منها شجرة ، فاتخذ منها تسعة ألواح ، طول كلّ لوح عشر أذرع بذراع موسى ، وكذلك عرضه ، وكانت الشجرة من زمرد أخضر ؛ ثم أمر الله تعالى جبريل أن يأتيه بسبعة أغصان من سدرة المنتهى ؛ فجاء بها ، فصارت جميعها نورا ، وصار النور قلماً طاف فيما بين السماء والأرض فكتب التوراة ، وموسى يسمع صرير القلم ؛ فكتب الله تعالى له ﴿ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ وذلك يوم الجمعة ، فأشرقّت الأرض بالنور ؛ ثم أمر الله تعالى موسى أن يأخذها بقوة و يقرئها قومه ؛ فوضعت الألواح على السماء فلم تطق حملها لنقل العهود والمواثيق ؛ فقالت : يا ربّ كيف أطيق حمل كتابك الكريم الثقيل المبارك ؟ وهل خلقت خلقا يطيق حمل ذلك ؟ فبعث الله تعالى جبريل وأمره أن يحمل الألواح فيبلغها موسى ، فلم يطق حملها ، فقال : يا ربّ من يطيق حمل هذه الألواح بها فيها من النور والبيان والعهود ؟ وهل خلقت خلقا يطيق حملها ؟ فأمدّه الله تعالى بملائكة يحملونها بعدد كلّ حرف من التوراة ؛ فحملوها حتى بلغوها موسى ؛ فعرضوا له الألواح على الجبل ، فأنصدع الجبل وخشع ، وقال : يا ربّ من يطيق حمل هذه الألواح بها فيها ؟ فلمّا وضعتها الملائكة على الجبل بين يدي موسى — وذلك عند صلاة العصر — قبض موسى عليها فلم يطق حملها ، فلم يزل يدعو حتى هيا الله تعالى له حملها ؛ فحملها ، فذلك قوله تعالى : ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي نَخَذُ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

قال : وأما العشر كلمات التي كتبها الله تعالى لنبيه موسى في الألواح — وهي معظم التوراة ، وعليها مدار كلّ شريعة — فهي : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، هذا

(١) إلى هنا انتهى ما لدينا من النسخة المشار إليها بحرف (ب) .

- كُتِبَ مِنْ أَلَلِّ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ الْعَزِيزِ الْقَهَّارِ لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ ، سَبَّحْنِي
وَقَدَّسْنِي ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَأَعْبُدْنِي وَلَا تَشْرِكْ بِي شَيْئًا ، وَأَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى
الْمَصِيرِ ، أَحْيِكَ حَيَاةَ طَيِّبَةٍ ، وَلَا تَقْتُلِ الْنَفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ فَتَضِيقَ عَلَيْكَ
السَّمَاءُ بِأَقْطَارِهَا وَالْأَرْضُ بِرُحْبِهَا ، وَلَا تَخَافَ بِأَسْمَى كَاذِبًا فَإِنِّي لَا أَطْهَرُ وَلَا أَزْكَى
مَنْ لَمْ يَعِظْ أَسْمَى ، وَلَا تَشْهَدْ بِمَا لَا يَعْنِي سَمْعُكَ وَلَا تَنْظُرَ عَيْنُكَ وَلَمْ يَقِفْ قَلْبُكَ عَلَيْهِ
فَإِنِّي أَقِفُ أَهْلَ الشَّهَادَاتِ عَلَى شَهَادَاتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَسْأَلُهُمْ عَنْهَا ، وَلَا تَحْسُدِ
النَّاسَ عَلَى مَا آتَيْتَهُمْ مِنْ فَضْلِي وَرِزْقِي ، فَإِنَّ الْحَاسِدَ عَدُوٌّ لِنِعْمَتِي ، سَاخِطٌ لِقِسْمَتِي ،
وَلَا تَزِنِ وَلَا تَسْرِقْ فَأُحْجِبَ عَنْكَ وَجْهِي ، وَأُغْلِقَ دُونَ دَعْوَتِكَ أَبْوَابَ السَّمَوَاتِ ،
وَلَا تَذْجِ لْغَيْرِي ، فَإِنَّهُ لَا يَصْعَدُ إِلَى مَنْ قُرْبَانَ الْأَرْضِ إِلَّا مَا ذَكَرَ عَلَيْهِ أَسْمَى ،
وَلَا تَغْدِرَنَّ بِحَلِيلَةٍ جَارِكَ فَإِنَّهُ أَكْبَرُ مَقْتًا عِنْدِي ، وَأَحَبُّ لِلنَّاسِ مَا تَحَبُّ لِنَفْسِكَ .
فهذه العشر كلمات ، وقد أنزل الله — عز وجل — على نبيِّنا محمد — صلى الله
عليه وسلم — مثلها في ثمانى عشرة آية ، وهى قوله تعالى فى سورة بنى إسرائيل :
﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ
أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَأَخْفِضْ
لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا
فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا * وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ
وَالْمَسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبَذِيرًا * إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ أَبْغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا
فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا * وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسِطِ
فَتَقْعَدَ مَلُومًا مُحْشُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ
خَبِيرًا بَصِيرًا * وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ

خَطًّا كَبِيرًا * وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا * وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ
الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ
فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ
أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا * وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزِنُوا
بِالْقِسَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا * وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ
السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا * وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا
إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ
مَكْرُوهًا * ذَلِكَ يَمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَذْحُورًا ﴿ ثُمَّ جَمَعَهَا فِي آيَتَيْنِ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ
تَعَالَى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ
مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ
وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَأَوْكَانَ ذَا قُرْبَى
وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وقد روى أبو إسحاق الثعلبي - رحمه الله - عن ابن عباس - رضى الله
عنهما - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما أعطى الله موسى الألواح
نظر فيها وقال : يارب لقد أكرمتني بكرامة لم تُكرم بها أحدا قبلي . ﴿ قَالَ يَا مُوسَى
إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ ﴾ .

- (١) وأخرج الحافظ : تموت على حبّ محمد عليه السلام . قال موسى : يا ربّ وما محمد؟ قال : أحمد الذي أثبتّ اسمه على عرشي من قبل أن أخلق السموات والأرض بألفى عام ، وإنه لنبيّ وحبیبی وخیرتی من خلقی ، هو أحبّ إلىّ من جميع خلقی ومن جميع ملائكتی . قال : يا ربّ إن كان محمد أحبّ إليك من جميع خلقك فهل خلقت أمة أكرم عليك من أمتی . ؟ قال الله تعالى : إنّ فضل أمة محمد — عليه السلام — على سائر الأمم كفضله على سائر الخلق . قال : يا ربّ ليتنى رأيتهم . قال : إنّك لن تراهم ، ولو أردت أن تسمع كلامهم لسمعت . قال : يا ربّ فإني أريد أن أسمع كلامهم . قال : يا أمة محمد . فأجبنا كلّنا من أصلاب آبائنا وأرحام أمهاتنا : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لا شريك لك . قال الله تعالى : يا أمة محمد . إنّ رحمتي سبقت غضبي ، وعفوي عقابي ، قد أعطيتكم من قبل أن تسألوني ، وقد أجبتكم من قبل أن تدعوني ، وقد غفرت لكم من قبل أن تعصوني ، من جاء يوم القيامة يشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدا عبدي ورسولي دخل الجنة ولو كانت ذنوبه أكثر من زبد البحر . وهذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

- ١٥ وروى الثعلبي أيضا بسند رفعه إلى (كعب الأحبار) أنّه رأى حبرا من أحبار اليهود يبكي ، فقال له : ما يبكيك . ؟ فقال له : ذكرت بعض الأمر . فقال كعب : أنشدك الله إن أخبرتك بما أبكاك أتصدقني ؟ قال : نعم . قال : أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل أت موسى نظر في التوراة فقال : إني أجد أمة هي خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، يؤمنون بالكتاب الأول

(١) في الأصول « وأخذ » ؛ وهو تصحيف لا يستقيم معناه مع بقية الكلام . ولعل صوابه

وبالكتاب الآخر، ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الدجال . فقال موسى : يا ربّ أجعلهم أمتي . قال : هي أمة أحمد يا موسى . فقال له الحبر : نعم . قال كعب : أنشدك بالله هل تجد في كتاب الله المنزل أنّ موسى نظر في التوراة فقال : إني أجد أمة هم الحامدون ، الرعاة الشمس^(١) المحكمون ، إذا أرادوا أمرا قالوا : ” نفعله إن شاء الله تعالى “ فاجعلهم أمتي . قال : هي أمة أحمد يا موسى . قال له الحبر : نعم . قال : أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل أنّ موسى نظر في التوراة فقال : ربّ إني أجد أمة يا كون كفاراتهم وصدقاتهم .

قال : «وكان الأقولون يُحرقون صدقاتهم بالنار، غير أنّ موسى كان يجمع صدقات بني إسرائيل فلا يجد عبدا مملوكا ولا أمة إلّا اشتراه ثم أعتقه من تلك الصدقة وما فضل حفر له حفيرة عميقة وألقاه فيها ، ثم دفنه كيلا يرجعوا فيه » وهم المسبّحون والمسبّح لهم ، وهم الشافعون والمشفّع لهم . قال موسى : يا ربّ أجعلهم أمتي . قال : هم أمة أحمد يا موسى . قال الحبر : نعم . قال كعب : أنشدك الله أتجد في التوراة أنّ موسى نظر في التوراة فقال : إني أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شرف كبر الله تعالى ، وإذا هبط واديا حمد الله تعالى ؛ الصعيد لهم طهور والأرض لهم مسجد حيثما كانوا ، يتطهرون من الجنابة ، طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حين لا يجدون الماء ؛ غرّ محجلون من آثار الضوء ، فاجعلهم أمتي . قال : هي أمة أحمد يا موسى . قال الحبر : نعم . قال كعب : أنشدك الله

٨٧

هل تجد في كتاب الله المنزل أنّ موسى نظر في التوراة فقال : يا ربّ إني أجد أمة إذا هم أحدهم بحسنة ولم يعملها تُكتب له ، فإن عملها ضوعفت عشر أمثالها إلى سبعائة ضعف ، وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم تُكتب عليه ، وإن عملها تُكتب عليه

(١) يريد بالشمس بضم الشين : الأعزاء الذين لا ينقادون للذلة ويشمسون ، أي يمتنعون ويأبون .

سَيِّئَةٌ مِثْلَهَا . فَأَجْعَلُهُمْ أُمَّتِي . قَالَ : هِيَ أُمَّةُ أَحْمَدَ يَا مُوسَى . قَالَ الْحَبْرُ : نَعَمْ .
 قَالَ كَعْبٌ : أَنَشْدُكَ اللَّهُ أَتَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْمَنْزِلَ أَنَّ مُوسَى نَظَرَ فِي التَّوْرَةِ فَقَالَ :
 رَبِّ إِنِّي أَجِدُ أُمَّةَ مَرْحُومَةٍ ضَعُفَاءَ ^(١) «يَرِثُونَ الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا» ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ فَلَا أَجِدُ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا مَرْحُومًا
 فَأَجْعَلُهُمْ أُمَّتِي . قَالَ : هِيَ أُمَّةُ أَحْمَدَ يَا مُوسَى . قَالَ الْحَبْرُ : نَعَمْ . قَالَ كَعْبٌ :
 أَنَشْدُكَ اللَّهُ هَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْمَنْزِلَ أَنَّ مُوسَى نَظَرَ فِي التَّوْرَةِ فَقَالَ : يَا رَبِّ إِنِّي
 أَجِدُ أُمَّةَ مَرْحُومَةٍ ، مَصَاحِفُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ ، يَلْبَسُونَ أَلْوَانَ ثِيَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ
 يُصَفِّقُونَ فِي صَلَاتِهِمْ صَفُوفًا كَصَفُوفِ الْمَلَائِكَةِ ، أَصْوَاتُهُمْ فِي مَسَاجِدِهِمْ كَدَوَى
 النُّحْلِ ، لَا يَدْخُلُ النَّارَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا مِنْ الْحَسَابِ مِثْلَ مَا يُرْمَى الْجَمْرُ مِنْ وَرَاءِ
 الشَّجَرِ . فَأَجْعَلُهُمْ أُمَّتِي . قَالَ : هِيَ أُمَّةُ أَحْمَدَ يَا مُوسَى . قَالَ الْحَبْرُ : نَعَمْ . قَالَ :
 فَعَجِبَ مُوسَى مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ مَجْدًا وَأَمْتَةً ، وَقَالَ : يَا لَيْتَنِي مِنْ أَصْحَابِ
 مَجْدٍ . فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ ثَلَاثَ آيَاتٍ يَرْضِيهِ بِهِنَّ ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى
 النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ
 يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ .

قَالَ : فَرَضَى مُوسَى كُلَّ الرِّضَا .

وَلِنَصِلَ هَذَا الْفَصْلَ بِمَا وَرَدَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿سَأَرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾
 وَقَوْلِهِ : ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ .

قَالَ الثَّعْلَبِيُّ : قَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي : هَذَا كَقَوْلِ الْقَائِلِ لِمَنْ يَخَاطَبُهُ : «سَأَرِيكَ

غَدًا إِلَى مَا تَصِيرُ إِلَيْهِ حَالٌ مِنْ يَخَالِفُ أَمْرِي» عَلَى وَجْهِ الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ .

(١) كَذَا وَرَدَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ الَّتِي بَيْنَ هَاتَيْنِ الْعَلَامَتَيْنِ فِي الْأَصُولِ . وَيَلَاظُ أَنْ قَوْلَهُ تَعَالَى «الَّذِينَ»
 غَيْرُ وَاضِحٍ مَوْقِعُهَا مِنَ الْإِعْرَابِ فِيهَا بِخِلَافِ مَوْقِعِهَا مِنَ الْآيَةِ الْمُقْتَبَسَةِ مِنْهَا وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : «ثُمَّ أَوْرَثْنَا
 الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا» .

وقال مجاهد : سَأَرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ، يعنى مصيرهم فى الآخرة .

وقال الحسن : جهنم .

وقال قتادة وغيره : سأدخلكم الشام فأريكم منازل الكافرين الذين هم سكانها من الجبابرة والعمالقة .

وقال عطية العوفى : معناه سأريكم دار فرعون وقومه ، وهى مصر .

قال أبو العالية : رفعت مصر لموسى حتى نظر إليها .

وقال السدى : دار الفاسقين : مصارع الفاسقين ، ما يمترون عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكوا .

وقال ابن كيسان : دار الفاسقين ، يعنى إلى ما يصير قرارهم فى الأرض .

وقيل : الدار الهلاك ، وجمعه أدوار ، وذلك أن الله تعالى لما أغرق فرعون وقومه أمر البحر أن يقذف أجسادهم إلى الساحل ، ففعل ، فنظر إليهم بنو إسرائيل ، فأراهم هلاك الفاسقين .

وقال يمان : يعنى مسكن فرعون .

وأما ما ورد فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى ﴾ ، يعنى بنى إسرائيل ﴿ أُمَّةٌ ﴾ جماعة ﴿ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾ ، أى يرشدون إلى الحق .

وقيل : معناه يهتدون ويستقيمون عليه ويعملون به ﴿ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ أى ينصفون من أنفسهم لا يجورون .

قال السديّ : هم قوم بينكم وبينهم نهر من شُهد .

وقال ابن جريج : بلغني أن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا — وكانوا اثني عشر سبطاً — تبرأ سبط منهم ؛ واعتذروا وسألوا الله تعالى أن يفرق بينهم وبينهم . ففتح الله تعالى لهم نفقاً في الأرض ، فساروا فيه سنةً ونصفاً حتى خرجوا من وراء الصين ؛ فهم هناك حنفاء مسلمون مستقبلون قبلتنا .

قال الكاظمي^(١) وربيع والضحاك وعطاء : هم قوم من المغرب خلف الصين على نهر يحوى الرمل يسمى نهر أوران^(٢) ، وليس لأحد منهم مال دون صاحبه ؛ يُمطرون بالليل ، ويصحبون بالنهار ويزرعون ، لا يصل إليهم منا أحد ولا منهم إلينا وهم على الحق .

قال : وذكر عن النبيّ — صلى الله عليه وسلم — أن جبريل ذهب به ليلة أُسرى به إليهم ؛ فكلّمهم ؛ فقال لهم جبريل : هل تعرفون من تكلمون؟ قالوا : لا . قال : هذا محمد النبيّ الأمي . فأمنوا به وقالوا : يا رسول الله ، إن موسى أوصانا وقال : من أدرك منكم أحمدَ فليقرأ مني عليه السلام . فردّ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على موسى وعليهم السلام ؛ ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ولم تكن نزلت فريضةً سوى الصلاة والزكاة ، فأمرهم بالصلاة والزكاة ، وأمرهم أن يقيموا مكانهم ، وكانوا يسيّتون ، فأمرهم أن يُجمّعوا ويتركوا السبت .

حكاه أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره .

نرجع إلى تَمَّة أخبار موسى — عليه السلام — .

(١) كذا في (ج) . والذي في (١) « بحرى الرمل » .

(٢) كذا في (١) . والذي في (ج) « أرداف » مضبوطاً بالقلم بفتح الهمزة وسكون الراء .

ذكر خبر السامري وأخذه العجل وافتتان بني إسرائيل به
 قال الكسائي والثعلبي وغيرهما من أهل السير ما مختصره ومعناه : إن موسى
 — عليه السلام — لما توجه إلى البقعة المباركة التي كلمه الله تعالى فيها لميقات
 ربه ، استخلف أخاه هارون على بني إسرائيل ، وكان السامري فيهم .
 واختلف فيه ، فقال قتادة والسدي : كان السامري من عظماء بني إسرائيل من
 قبيلة يقال لها : (سامرة)^(١) ولكنه عدو لله منافق .

وقال سعيد : كان السامري من (كرمان) .

وقال غيرهم : كان رجلا صائغا من أهل باجرما ، وأسمه ميخا .

وقال ابن عباس — رضى الله عنهما — : اسمه موسى بن ظفر ، وكان رجلا منافقا
 وقد أظهر الإسلام ، وكان من قوم يعبدون البقر ، فدخل قلبه حب البقر ، فلما
 ذهب موسى — عليه السلام — لميقات ربه — وكان قد واعد قومه ثلاثين ليلة فأتىها
 الله بعشر ، كما أخبر الله عز وجل — فعذب بنو إسرائيل ثلاثين ، فلما لم يرجع إليهم
 موسى آفتنوا وقالوا : إن موسى أخلفنا الوعد ، فأغتنمها السامري ففعل ما فعل .

وقال قوم : إنهم عذبوا الليلة يوما واليوم يوما ، وكان موسى قد واعدهم
 أربعين ، فلما مضت عشرين يوما آفتنوا ، فأتاهم السامري وقال : إن موسى قد
 احتبس عنكم ، فينبغي لكم أن تتخذوا إلهًا ، فإن موسى ليس يرجع إليكم ، وقد تم
 الميقات . وإنما طمع فيهم السامري لأنهم في اليوم الذي أنجاهم الله من فرعون
 وطلبوا من البحر ، كان من أمرهم ما أخبر الله تعالى عنهم في قوله : ﴿ وَجَاوَزْنَا
 بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا

(١) في شرح القاموس أن اسم هذه القبيلة « سامر » بدون هاء .

إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥﴾ فطمع السامريُّ فيهم وأغتنمها ، فلمَّا تأخر موسى عن الميقات - وكان بنو إسرائيل قد استعاروا حلْيَ آل فرعون كما قدَّمنا ، فلمَّا فصل موسى قال هارون لبني إسرائيل : إِنَّ حَلْيَ القبط الذي آستعرتموه غنيمة ، وإنَّه لا يحلُّ لكم ، فأجمعوه فأحفروا له حفيرة وأدفنوه حتى يرجع موسى فيرى فيه رأيه . ففعلوا ذلك ، وجاءهم السامريُّ ومعه القبضة التي قبضها من أثر حافر فرس جبريل - عليه السلام - .

قالوا : وكان لجبريل - عليه السلام - فرس أنثى بلقاء يقال لها : « فرس الحياة » لا تصيب شيئاً إلَّا حيي ؛ فلمَّا رأى السامريُّ جبريلَ على تلك الفرس عرفه وقال : إن لهذا الفرس لشأنا . وأخذ قبضة من تراب حافرها حين عبر جبريلُ البحر .

قالوا : وإنَّما عرف السامريُّ خبر الفرس دون غيره من بني إسرائيل ، لأنَّ فرعون لما أمر بذبح أولاد بني إسرائيل جعلت المرأة إذا ولدت الغلام أنطلقت به سرًّا في جوف الليل إلى صحراء أو واد أو غار في جبل فأخفته ؛ فقيّض الله تعالى له ملكاً من الملائكة يطعمه ويسقيه حتى لا يختلط بالناس ، وكان الذي وليَّ كفالة السامريُّ جبريل عليه السلام ، فجعل يمتص من إحدى إبهاميه سمنا ، ومن الأخرى عسلاً ، فمن ثمَّ عرفه ، ومن ثمَّ الصبيُّ إذا جاع يمتص إبهامه فيروى من المص .

نرجع إلى خبر بني إسرائيل مع السامريِّ .

قال : فلمَّا أمرهم هارون بجمع الحليِّ وجمعوه ، جاء السامريُّ بالقبضة فقال لهارون : يا نبيَّ الله ، أأقذفها فيه ؟ فظنَّ هارون أنَّها من الحليِّ ، وأنَّه يريد بها ما يريد أصحابه ، فقال له : أقذف . فقذفها في الحفرة على الحليِّ ، فصارت عجلاً .

وقال ابن عباس — رضى الله عنهما — : أوقد هارون نارا وأمرهم أن
يقذفوا الحليّ فيها، فقذف السامريّ تلك القبضة فيها وقال : « كن عجلا جسدا
له خوار » . فكان كذلك للبلاء والفتنة .

(٨٩)

ويقال : إنّ الذى قال لبنى إسرائيل : « إنّ الغنيمة لا تحل لكم » هو
السامريّ ، فصدّقه وجمعوها ، فدفعوها إليه فصاغ منها عجلا فى ثلاثة أيام
ثم قذف فيه القبضة ، فحشا وخار خورة ثم لم يعد .

وقال السدىّ : كان يخور ويمشى ، فلمّا أخرج السامريّ العجل وكان من
ذهب مرصّع بالحجارة كأحسن ما يكون ، قال هذا إلهكم وإله موسى . فشبهه
السامريّ على أوغاد بنى إسرائيل وجها لهم حتى أضلّهم وقال لهم : إنّ موسى قد
أخطأ ربّه فأناكم ربّه أراد أن يريكم أنه قادر على أن يدعوكم إلى نفسه بنفسه ، وأنه
لم يبعث موسى لحاجة منه إليه ، وأنه قد أظهر لكم العجل ليكلّمكم من وسطه كما
كلّم موسى من الشجرة .

قالوا : فلمّا رأوا العجل وسمعوا قول السامريّ ، افْتَتَنُوا غير آثني عشر ألفا
وكان مع هارون ستمائة ألف ، فعكفوا عليه يعبدونه من دون الله تعالى ، وأحبّوه
حبّا ما أحبّوا مثله شيئا قط ، فقال لهم هارون : يا بنى إسرائيل إنّما فُتِنْتُمْ بِهِ
وَإِنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى
يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى .

فأقام هارون بمن معه من المسلمين ، وأقام من يعبد العجل على عبادته ، وخشى
هارون إن سار بمن معه من المسلمين إلى المفتنين الضالّين أن يقول له موسى :
فرقت بين بنى إسرائيل .

قال راشد بن سعد : لما واعد الله تعالى موسى أربعين يوما قال الله تعالى : يا موسى ، إن قومك قد آفقتنوا من بعدك . قال : يا رب كيف يفتنون وقد نجيتهم من فرعون ومن البحر ، وأنعمت عليهم ؟ قال : إنهم آتخذوا العجل إلها من دوني وهو عجل جسد له خوار . قال : يا رب من نفخ فيه الروح ؟ قال : أنا . قال : أنت — وعزتك — فتنهم ، إن هـى إلا فتنك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء . أنت ولينا فاغفر لنا وأرحمنا وأنت خير الغافرين .

قال : فلما رجع موسى من الميقات الى قومه وقرب منهم ، سمع اللغظ حول العجل وكانوا يرقصون حوله ، ولم يخبر موسى أصحابه السبعين بما أخبره به ربه تعالى من حديث العجل ، فقالوا : هذا قتال في المحلة . قال موسى لهم : لا ولكنها أصوات الفتنة ، افتن القوم بعدنا بعبادة غير الله تعالى .

ذكر خبر رجوع موسى إلى قومه وما كان من أمرهم

قال الله عز وجل : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ وذلك أنه لما رآهم حول العجل وما يصنعون فيه ألقى الألواح من يده فتكسرت ، فصعد عاتمة الكلام الذي فيها ، ولم يبق إلا سدسها ، ثم أعيدت له في لوحين .

روى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : ليس المعايين كالمنبر ، قال الله تعالى لموسى : إن القوم قد آفقتنوا فلم يلق الألواح ، فلما عاين ألقى الألواح فكسرها .

قالوا : فلما رأى موسى ما صنع قومه بعده من عبادة العجل ، أخذ شعر رأس أخيه هارون بيمينه ، ولحيته بشماله وقال له : يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا .

أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ، هَلَّا قَاتَلْتَهُمْ إِذْ عَلِمْتَ أَنِّي لَوْ كُنْتُ فِيهَا بَيْنَهُمْ لَقَاتَلْتُهُمْ
 عَلَى كُفْرِهِمْ ؟ فَقَالَ هَارُونَ : يَا بَنَ أُمَّ ، قَالَ الْمَفْسُورُونَ : كَانَ هَارُونَ أَخَا مُوسَى
 لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ بِقَوْلِهِ : يَا بَنَ أُمَّ تَقْرِيْبَهُ وَأَسْتَعْطَافَهُ عَلَيْهِ ، لَا تَأْخُذْ
 بِإِجْحَبَتِي وَلَا بِرَأْيِي إِنِّي خَشِيتُ ، إِنَّ أَقَاتِلُهُمْ أَنْ يَصِيرُوا حَزِينِينَ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ
 بَعْضًا ، فَتَقُولُ : فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ، وَلَمْ تَحْفَظْ وَصِيَّتِي
 حِينَ قُلْتَ لَكَ : اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ . وَقَالَ :
 إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشِمْتُ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ
 الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . فَقَالَ مُوسَى : رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ
 أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

١٠ قال : ثُمَّ أَقْبَلَ مُوسَى عَلَى السَّامِرِيِّ فَقَالَ لَهُ : مَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ، أَى
 مَا أَمْرُكَ وَشَأْنُكَ ؟ فَقَالَ السَّامِرِيُّ : بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً
 مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ، أَى أَخَذْتُ تَرَابًا مِنْ أَثَرِ فَرَسِ جَبْرِيلَ فَنَبَذْتُهَا وَطَرَحْتُهَا فِي الْعِجْلِ
 وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ، أَى زَيْت .

١٥ قال : فَلَمَّا عَلِمَ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ قَدْ أَخْطَأُوا وَضَلُّوا فِي عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ ، نَدَمُوا
 عَلَى ذَلِكَ وَاسْتَغْفَرُوا ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ
 قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ، فَقَالَ لَهُمْ
 مُوسَى : يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ .

قالوا : كيف نتوب ؟ قال : فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، أَى يَقْتُلُ الْبَرِيءُ الْمَجْرِمَ ، ذَلِكَ يُعْنَى

قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : أبى الله أن يقبل توبة بنى إسرائيل إلا بالحال التى كرهوا أن يقاتلوهم حين عبدوا العجل .

وقال قتادة : جعل الله توبة عبدة العجل القتل لأنهم ارتدوا ، والكفر مبيح للدم .

- وقال الكسائى : لما قال موسى لبنى إسرائيل : يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ، سألوه أن يتوب الله تعالى عليهم ، فسأل الله تعالى ، فأوحى الله تعالى إليه أنه لا توبة لهم ، لأن فى قلوبهم حب العجل ، فأجمع رماد العجل وألقه فى الماء ، وأمرهم أن يشربوا منه فإنه يظهر ما فى قلوبهم على وجوههم . ففعل ذلك ، فلما شربوا لم يبق أحد مما فى قلبه مرض إلا أصفّر وجهه ولونه وورم بطنه ، ودام ذلك بهم ، فقالوا : يا موسى ، هل شئ غير التوبة الخالصة وقد أخلصنا فى توبتنا حتى لو أمرتنا بقتل أنفسنا فعلنا ؟ فأوحى الله إليه : يا موسى قد رضيت بحكمهم على أنفسهم ، فقل لهم : بقتلوا أنفسهم إن كانوا صادقين فى توبتهم . فقال لهم موسى ما أمرهم الله به : ﴿ فَتَوْبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ . فقالوا : كيف نقتل أنفسنا ؟ قال : يقوم من لم يعبد العجل إلى من عبده فيقتله . فقاموا بالسيوف والخناجر إلى الذين عبدوه وأرسل الله عليهم ظلمة فلم يبصر بعضهم بعضا ، حتى كان الرجل يأتى إلى أخيه وأبيه وابن عمه وقربته فيقتله وهو لا يعرفه ، ولم يعمل السلاح فيمن لم يعبد العجل حتى خاضوا فى الدماء ، وصاح النساء والصبيان إلى موسى : « العفو يا نبي الله » فدعا موسى الله بالعفو عنهم ، فلم يعمل السلاح فيهم بعد ذلك ، وقبل الله تعالى توبتهم ، وارتفعت الظلمة عنهم .

قالوا : ثم هم موسى بقتل السامريّ ، فأوحى الله تعالى إليه : لا تقتله فإنه
 سخى ، ولكن أخرجهم عن قومك . فلعنهم موسى وقال له ما أخبر الله تعالى به عنه :
 ﴿ قَالَ فَأَذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخَافَهُ ﴾
 أى لعذابك فى القيامة . ﴿ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ
 ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ .

قال : وأمر موسى بنى إسرائيل ألا يخالطوا السامريّ ولا يقاربوه ، فصار
 السامريّ وحشيّا لا يألف ولا يؤلف ولا يدنو من الناس ولا يمسّ أحدا منهم
 فمن مسّه قُرض ذلك الموضع بالمقراض ، فكان ذلك دأبه حتى هلك .

ذكر خبر امتناع بنى إسرائيل من قبول أحكام التوراة ورفع الجبل عليهم وإيمانهم

قال الكسائى : ثم أقبل موسى على بنى إسرائيل بالتوراة وقال : هذا كتاب
 ربكم فيه الحلال والحرام والأحكام والسنن والفرائض ورجم الزانى والزانية المحصنين
 وقطع يد السارق ، والقصاص فى كل ذنب يكون منكم . فضجّوا من ذلك وقالوا :
 لا حاجة لنا فى هذه الأحكام ، وما كنا فيه من عبادة العجل كان أرفق بنا من هذا .

قال : فلما امتنعوا من قبول أحكام الله عز وجل قال موسى : يارب قد
 علمت أنهم ردّوا كتابك وكذبوا بآياتك . فأمر الله تعالى جبريل أن يرفع عليهم
 جبل طور سيناء فى الهواء ، قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ
 وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ (١) ﴿ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ ،

(١) يلاحظ أن قوله تعالى : « واسمعوا » الخ ليس من تنمة الآية السابقة ، بل هو من تنمة آية
 أخرى فى سورة البقرة ، وهى قوله تعالى : « وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة
 واسمعوا » الخ .

فجعل الجبل يدنو منهم حتى ظنوا أنه يسقط عليهم ؛ فأمّنوا ونحروا سجدًا على أنصاف وجوههم وهم ينظرون إلى الجبل بالنصف الآخر ؛ فلأجل ذلك سجد اليهود كذلك . وردّ الجبل عنهم .

ذكر خبر الحجر الذي وضع موسى — عليه السلام — ثيابه عليه

- قال : وكانوا إذا آغسلوا لا يسترون عوراتهم ، وإذا آغسل موسى يستتر^٥ فظنوا أن في بدنه عيبا ، فتكلموا بذلك ، وكان موسى — عليه السلام — إذا آغسل وضع ثوبه على حجر وقرعه بعصاه فيتفجر الماء منه ، فيغتسل ثم يلبس ثوبه ؛ ففعل ذلك في بعض الأيام ، فلما أراد أن يلبس ثوبه أنقلع الحجر من موضعه ومر على وجه الأرض وعليه ثوب موسى ؛ فعدا موسى خلفه وهو يقول : « ثوبي يا حجر ثوبي يا حجر » ولم يزل يعدو حتى وقف على بنى إسرائيل ، فنظروا إلى موسى ولا عيب فيه ، فندموا على ما كان منهم ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ .

ذكر خبر طلب بنى إسرائيل رؤية الله تعالى وهلاكهم

بالصاعقة ، وكيف أحياهم الله — عز وجل — وبعثهم من بعد موتهم

- قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ۖ فَأَخَذْتُمُ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

(٩١)

- وذلك أن الله تعالى أمر موسى — عليه السلام — أن يأتيه في ناس من بنى إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ؛ فاختر موسى — عليه السلام — سبعين رجلا من قومه من خيارهم ، وكان قد آختر من كل سبط ستة نفر ، فصاروا^{١٥} اثنين وسبعين ، فقال : إنما أمرت بسبعين ، فليخلف منكم رجلان . فتشاحنوا على^{٢٠}

ذلك ، فقال موسى : إن لمن قعد مثل أجر من خرج . فقعد يوشع بن نون وكالب
 آبن يوقنا^(١) ، فقال موسى لل سبعين : صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم . ففعلوا ذلك
 فخرج بهم موسى عليه السلام إلى طور سيناء لميقات ربه ، فلما بلغوا ذلك الموضع
 قالوا لموسى : اطلب لنا نسمع كلام ربنا . فقال : أفعل . فلما دنا موسى من
 الجبل وقع عمود الغمام عليه وتغشى الجبل كله ، فدخل في الغمام وقال للقوم : أدنوا .
 وكان موسى عليه السلام إذا كلمه ربه عز وجل — وقع على وجهه نور ساطع
 لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه ، فضرب دونه الحجاب ، ودنا القوم حتى
 دخلوا في الغمام وخزوا سجدا ، وسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه ، فأسمعهم
 الله تعالى : إني أنا الله لا إله إلا أنا ذو الملك ، أخرجتكم من أرض مصر فاعبدوني
 ولا تعبدوا غيري . فلما فرغ موسى وأنكشف الغمام أقبل إليهم فقالوا : لئن نؤمن
 لك حتى نرى الله جهرة ، أى لن نصدقك ، فأخذتهم الصاعقة ، وهى نار جاءت
 من السماء فأحرقتهم جميعا .

وقال وهب بن منبه : أرسل الله عليهم جندا من السماء ، فلما سمعوا حسها
 ماتوا في يوم وليلة .

فلما هلكوا جعل موسى — عليه السلام — يبكى ويتضرع ويقول : يا رب
 ما ذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ، ولو شئت أهلكتهم
 من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم
 الله — عز وجل — رجلا بعد رجل ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون . حكاه
 الثعلبي في تفسيره .

(١) كذا في النسخة التى بين أيدينا من كتاب الكسانى وتاريخ العيني .

وقال الكسائي في هذه القصة : أقبل بنو إسرائيل على موسى وقالوا : أرنا الله جهرة . فأوحى الله تعالى إليه : أكلهم يريد ذلك ؟ — وهو أعلم — فقال الصالحون منهم : إن الله أجل من أن نراه في الدنيا .

وقال الباقر : إنما أمتنع هؤلاء لضعف قلوبهم . فأوحى الله تعالى إليه : أن اختر منهم سبعين رجلا وسرهم إلى جبل الطور ، فسار بهم ، ووقع الغمام على الجبل حتى أظله ، وأتاه موسى وهم معه ، فأمر الله تعالى الملائكة أن تهبط إلى الجبل بزيتها وصورها ، فلما نظر بنو إسرائيل إليهم أخذتهم الرعدة والخوف ، وندموا على ما كان منهم ، ونودوا من قبل السماء : يا بني إسرائيل . فصنعوا كلهم وماتوا . وساق نحو ما تقدم .

قال : ورجعوا إلى قومهم وخبروهم بما رأوا .

ذكر خبر قارون

قال المفسرون : إن قارون كان ابن عم موسى ، لأنه قارون بن يصهر ابن قاهث .

وقال ابن إسحاق : هو عم موسى ، لأن يصهر بن قاهث تزوج شمش^(١) بنت ماويب بن بريكا بن يقشان بن إبراهيم ، فولدت له عمران بن يصهر وقارون ابن يصهر .

فعلى هذا القول يكون عم موسى ؛ وعلى قول الآخرين يكون ابن عمه ، وعليه عامة أصحاب التواريخ ؛ وعليه أهل الكتاب ، لا خلاف عندهم في ذلك .

(١) كذا في تاريخ العيني ورقة ٣٠٠ من الجزء الثاني قسم ثان . والذي في الأصول : سميت بنت

ماويب بن توكيا بن يعشان .

قالوا : وكان قارون أعلم بني إسرائيل بعد موسى وهارون وأفضلهم وأجملهم .

قال قتادة : وكان يسمى المبشور^(١) لحسن صورته ، ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ للتوراة منه ، **وَكَانَ عَدُوَّ اللَّهِ نَافِقًا كَمَا نَافَقَ السَّامِرِيُّ** ، فبغى على قومه ، كما قال تعالى : **﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾** .

قال الثعلبي : واختلفوا في معنى هذا البغى ما هو ، قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : كان فرعون قد ملك قارون على بني إسرائيل ، وكان يبغى عليهم ويظلمهم .

وقال عطاء الخراساني وشهر بن حوشب : زاد عليهم في الثياب شبرا .

وقال شيبان عن قتادة : بغى عليهم بالكبر والبذخ .

وقال سعيد عنه : بكثرة المال . وكان أغنى أهل زمانه وأثراهم ، كما قال تعالى : **﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ ﴾** أى تثقل وتميل بهم إذا حملوها لثقلها .

وأختلف المفسرون في عدد العصابة ، فقال مجاهد : ما بين العشرة إلى الخمسة .

وقال قتادة : ما بين العشرة إلى الأربعين .

وقال عكرمة : منهم من يقول : سبعين .

وقال الضحاك : ما بين الثلاثة إلى العشرة .

وقيل : هم ستون .

وروى جرير عن منصور عن خيثمة قال : وجدت في الإنجيل أن مفاتيح

خزائن قارون كانت **وَقَرَسَتَيْنِ** بغلا غرا محجلة ما يزيد منها مفتاح على إصبع
أكل مفتاح منها كثر .

(١) في الأصل « الميسور » ؛ وهو تحريف .

- ويقال : إن قارون كان أينما ذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه — وكانت من حديد — فلما ثقلت عليه جعلها من الخشب ، فثقلت عليه ، فجعلها من جلود البقر على طول الأصابع ، تُحمل معه على أربعين بغلا .
- وقال بعضهم : أراد بالمفاتيح الخزائن . وإليه ذهب أبو صالح .
- وقال أبو رزين : لو كان مفتاح واحد لأهل الكوفة كان كافيا .
- وآختلفوا في سبب اجتماع تلك الأموال لقارون ؛ ف قيل : كان عنده علم الكيمياء .
- قال سعيد بن المسيّب : كان موسى يَعْلَمُ الكيمياء ، فعَلَّمَ يوشعَ ثلث العلم ، وعَلَّمَ كالب ثلثه ، وعَلَّمَ قارون ثلثه ؛ فخذعهما قارون حتى أضافا علمهما إلى علمه .
- وحكى الكسائي : كان قارون من فقراء بني إسرائيل ، فأوحى الله إلى موسى أن يحلّ تابوت التوراة بالذهب ، وعَلَّمَهُ صنعة الكيمياء ؛ فخاء قارون إلى أم كلثم أخت موسى — وقد قيل : إنها كانت زوجته — فسألها : من أين لموسى هذا الذهب ؟ فقالت : إن الله تعالى قد علّمه صنعة الكيمياء . وكان موسى قد علّمها الصنعة ، فتعلّمها قارون منها .
- قالوا : فكان ذلك سبب أمواله ، فذلك قوله كما أخبر الله تعالى عنه : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ .
- وقيل : معناه على علم عندي بالتصرف في التجارات والزراعات وسائر أنواع المكاسب والمطالب .
- وقيل في سبب جمعه تلك الأموال ما رواه الثعلبيّ بسنده عن أبي سليمان الداراني أنه قال : تَبَدَّى إبليس لقارون وكان قارون قد أقام في جبل أربعين سنة حتى

غلب بنى إسرائيل في العبادة ، فبعث إبليس إليه شياطينه فلم يقدرُوا عليه ؛ فأتاه وجعل يتعبد معه ، وجعل قارون يتعبد وإبليس يقهره في العبادة ويفوقه ؛ فخضع له قارون ؛ فقال له إبليس : يا قارون ، قد رضينا بهذا الذي نحن فيه ، لا نشهد لبنى إسرائيل جماعة ، ولا نعود مريضاً ، ولا نشهد جنازة ؟

٥ . قال : فأحدره من الجبل إلى البيعة ، فكانا يؤتيان بالطعام ، فقال له إبليس : يا قارون ، قد رضينا أن نكون هكذا كلاً على بنى إسرائيل ؟ فقال له قارون : فأى رأى عندك ؟ قال : نكسب يوم الجمعة ، ونتعبد بقية الجمعة .

قال : فكسبوا يوم الجمعة وتعبدوا بقيتها ؛ فقال إبليس : قد رضينا أن نكون هكذا ؟ قال قارون : فأى رأى عندك ؟ قال : نكسب يوماً ونتعبد يوماً فنتصدق ونعطى .
١٠ . قال : فلما كسبوا يوماً وتعبدوا يوماً خَسَّ إبليس وتركه ، ففتُحت على قارون أبواب الدنيا ، فبلغ ماله — على ما رواه الثعلبي — بسنده إلى المسيب بن شريك قال : مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ، وكانت أربعمائة ألف ألف في أربعين جراباً .

قال : فبغى وطنى حين آستغنى ، فكان أول طغيانه وعصيانه أنه تكبر وأستطال على الناس بكثرة الأموال ، وكان يخرج في زينته .

١٥ . قال مجاهد : خرج على براذين بيض عليها سروج الأرجوان وعليه المعصفرات . وقال ابن أسلم : خرج في سبعين ألفاً عليهم المعصفرات .

قال : وذلك أول يوم ظهرت فيه المعصفرات في الأرض .

وقال مقاتل : خرج على بغلة شهباء على سرج من الذهب عليه الأرجوان ومعه ألف فارس عليهم الديناج وعلى دوابهم الأرجوان ؛ ومعه ستمائة جارية بيض عليهن الحلّى والثياب الحمر ، وهن على البغال الشهب .
٢٠ .

وحكى الكسائي أن قارون آتخذ سريرا من الذهب يصعد إليه بمراق ، وعليه أنواع من فُرُش الديباج ، وعلى رأسه تاج من الذهب مرصع بالجوهر .

قالوا : فلما خرج في بعض الأيام في زينة عظيمة ، تمنى أهل الجاهالة والخسارة مثل الذى أُوتِيَهُ ، وقالوا ما أخبر الله تعالى به عنهم : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ فأنكر عليهم أهل العلم بالله تعالى ، وقالوا لهم : اتقوا الله وأعملوا ما أمركم به ، وأنتهوا عما نهاكم الله عنه ، فإن ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا من لذات الدنيا وشهواتها ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يُلَاقَاهَا ﴾ ، أى لا يوفق لهذه الكلمة ﴿ إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ ، أى على طاعة الله وعن زينة الحياة الدنيا .

قالوا : ثم أوحى الله تعالى إلى نبيه موسى - عليه السلام - أن يأمر قومه أن يعلقوا في آذانهم خيوطا أربعة ، في كل طرفٍ خيط أخضر كلون السماء فقال موسى : يا رب لم أمرت بنى إسرائيل بتعليق هذه الخيوط الأخضر في آذانهم ؟ فقال تعالى : إن بنى إسرائيل في غفلة ، وقد أردت أن أجعل لهم علما في ثيابهم ليدكرونى به إذا نظروا إلى السماء ، ويعلموا أنى منزل منها كلامى . فقال موسى : يا رب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم كلها خضرا ، فإن بنى إسرائيل تحقر هذه الخيوط ؟ فقال له : يا موسى ، إن الصغير من أمرى ليس بصغير ، وإن لم يطيعونى فى الأمر الصغير لم يطيعونى فى الأمر الكبير .

(٩٣)

قال : فدعا موسى بنى إسرائيل وأعلمهم بأمر الله تعالى ، ففعلوا ذلك وأستكبر قارون فلم يطعه ، وقال : إنما يفعل هذا الأرباب بعبيدهم لكى يتميزوا من غيرهم . فكان هذا أيضا من بغيه وعصيانه .

قالوا : ولما قطع موسى البحر بنى إسرائيل جعلت الحُبورة -- وهى رآسة المذبح وبيت القربان -- لهارون عليه السلام ؛ وكان بنو إسرائيل يأتون بهديهم فيدفعونه إلى هارون ، فيضعه على المذبح ، فتنزل نار من السماء فتأكله ، فوجد قارون في نفسه من ذلك ، وأتى موسى وقال له : يا موسى ، لك الرسالة ، وهارون الحُبورة ، وليس لى من ذلك شىء ، وأنا أقرأ للتوراة منكما ، لا صبر لى على هذا .
فقال موسى : والله ما أنا جعلتها فى هارون ، بل الله جعلها له . فقال قارون : والله لا أصدقك فى ذلك حتى ترى بيّنة .

قال : بجمع موسى رؤساء بنى إسرائيل وقال : هاتوا عصيّكم . فجاءوا بها فخرمها وألقاها فى قبته التى كان يعبد الله تعالى فيها ؛ وجعلوا يحرسون عصيّهم حتى أصبحوا ، فأصبحت عصا هارون قد آهتر لها ورق أخضر ، وكانت من شجر اللوز فقال موسى : يا قارون ، أترى هذا من فعلى ؟ قال قارون : والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر . وذهب قارون مغاضباً ، وأعتزل موسى بأتباعه ؛ وجعل موسى يداريه للقرابة التى بينهما وهو يؤذيه فى كل وقت ، ولا يزداد كل يوم إلا عتواً وتجبّراً ومخالفة .

ويقال : إنه بنى داراً وجعل بابها من الذهب ، وضرب على جدرانها صفائح الذهب ، وكان المملأ من بنى إسرائيل يغدون عليه ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدثونه ويضاحكونه .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : ثم أنزل الله تعالى الزكاة على موسى ؛ فلما وجبت الزكاة على بنى إسرائيل أتى قارون موسى فصالحه عن كل ألف دينار على دينار ، وعن كل ألف درهم على درهم ، وعن كل ألف شاة على شاة ، وعن كل ألف

- شئ شيئا، ثم رجع إلى بيته فحسبه فوجده كثيرا، فلم تسمح بذلك نفسه، فجمع بنو إسرائيل وقال لهم: يا قوم، إن موسى قد أمركم بكل شئ فأطعتموه، وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم . فقالوا له : أنت كبيرنا وسيدنا فربما شئت . فقال : أمركم أن تحيئوا بفلانة البغي فنجعل لها جُعلا على أن تقذف موسى بنفسها، فإذا فعلت ذلك نخرج عليه بنو إسرائيل ورفضوه فأسترحنا منه . فأتوا بها، فجعل لها قارون ألف درهم . وقيل : ألف دينار . وقيل : طستا من ذهب . وقيل : حكمها؛ وقال لها : إني أمولك وأخلطك بنسائي على أن تقذفي موسى غدا إذا كان بنو إسرائيل متجمعين . فلما كان الغد جمع قارون بنو إسرائيل ، ثم أتى موسى فقال : إن بنو إسرائيل قد اجتمعوا ينظرون خروجك لتأمرهم وتنهاهم وتبين لهم اعلام دينهم وأحكامهم وأحكام شرعهم . فخرج إليهم موسى وهم في براح من الأرض ، فقام فيهم خطيبا ووعظهم، وقال فيما قال : يا بنو إسرائيل ، من سرق قُطعت يده ، ومن آفترى جلدناه ثمانين جلدة ، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة ، وإن كانت له امرأة رجمناه حتى يموت . فقال له قارون : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا . قال : فإن بنو إسرائيل يزعمون أنك بفلانة . قال موسى : أنا ؟ قال : نعم . قال : أدعها فإن قالت فهو كما قالت . فدُعيت ؛ فلما جاءت قال لها موسى : يا فلانة ، أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء؟ وعظم عليها وسألها بالذى فلق البحر لبني إسرائيل وأنزل التوراة على موسى إلا صدقت . فلما ناشدها موسى تداركها الله تعالى بالتوفيق وقالت : لأن أحدث اليوم توبة أفضل من أودى رسول الله . وقالت : لا والله بل كذبوا، ولكن جعل لي قارون جُعلا على أن أقذفك بنفسى . فلما تكلمت بهذا الكلام سقط في يد قارون ونكس رأسه، وسكت الملاء وعرف قارون أنه قد وقع في مهلكة، وخرّ موسى ساجدا لله تعالى .

وقال الكسائي في قصة هذه المرأة : إن قارون بعث إلى امرأة فاسقة كان موسى قد نفاها من عسكره ، فقال لها : إني أريد أن أتزوج بك وأنقذك من هذا الفقر إن عملت ما أقول . قالت : وما هو ؟ قال : إذا اجتمع بنو إسرائيل عندي فأحضري وقولي : إن موسى دعاني إلى نفسه فلم أطاوعه ، فأخرجني من عسكره فانصرفت ودخلت على قارون من الغد — وقد آجتماع بنو إسرائيل عنده — فقالت : يا بني إسرائيل ، هذا مالمق الأخيار من الأشرار ؛ اعلّموا أن قارون دعاني بالأمس وقال لي كذا وكذا ، وأمرني أن أكذب على نبي الله موسى ؛ وكذب قارون إنما أخرجني موسى من عسكره لفسادي ، وقد تبنت إلى الله تعالى من ذلك . فلما سمع قارون ذلك ندم ، ولامه بنو إسرائيل ، وبلغ موسى الخبر فغضب ودعا على قارون .

معين التاريخ
لأهل التاريخ

قالوا : وجعل موسى يبكي ويقول : يارب إن عدوك هذا قد آذاني وأراد فضيحتي ، اللهم إن كنت رسولك فاغضب لي وسلطني عليه . فأوحى الله تعالى إليه : ارفع رأسك وأمر الأرض بما شئت تطعك . فقال موسى : يا بني إسرائيل إن الله قد بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون ، فمن كان معه فليثبت مكانه ومن كان معي فليعتزل عنه . فأعتزل بنو إسرائيل قارون ولم يبق منهم إلا رجلان ثم قال موسى : يا أرض خذهم . فأخذتهم إلى كعابهم . ثم قال : يا أرض خذهم . فأخذتهم إلى ركبتهم . ثم قال : يا أرض خذهم . فأخذتهم إلى أعناقهم ؛ وقارون وصاحباؤه في كل ذلك يتضرعون إلى موسى ويناشدونه ؛ حتى روى في بعض الأخبار : أنه ناشده سبعين مرة وموسى في جميع ذلك لا يلتفت إليه ، لشدة غضبه عليه . ثم قال : يا أرض خذهم . فأنطبقت عليهم الأرض ؛ فأوحى الله إلى موسى : استغاثوا بك سبعين

مرة فلم ترحمهم ولم تغثهم، أما وعزتي وجلالي لو إياي دعوا لوجدوني قريبا مجيبا .
 قال قتادة : ذكر لنا أن الله تعالى يخسف بهم في كل يوم قامة ، وأنه يتخلخل فيها^(١)
 لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة .

قالوا : فلما خسف الله تعالى بقارون وصاحبيه أصبح بنو إسرائيل يتناجون فيما بينهم : إن موسى دعا على قارون ليستبد بداره وكنوزه وأمواله . فدعا موسى حتى خسف الله تعالى بدار قارون وأمواله الأرض ، وأوحى الله تعالى إلى موسى :
 أنى لا أعبد الأرض لأحد بعدك أبدا ، فذلك قوله تعالى : ﴿ نَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَصِّرِينَ ﴾ .

قال : فلما حلت نعمة الله تعالى بقارون حمد المؤمنون الله تعالى ، وندم الذين كانوا يمتنون ماله وحاله ، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله : ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَذِّبُ اللَّهُ بِسُوءِ الرَّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَذِّبُ لَوْلَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ . والله الفعال .

ذكر خبر موسى والخضر — عليهما السلام —

وهذا الخبر إنما رجعت فيه وأعتمدت على ما ورد في الحديث الصحيح النبوي مما خرجه البخاري — رحمه الله تعالى — في صحيحه ، ورويناه بسندنا عنه بسنده عن ١٥
 ابن عباس عن أبي بن كعب — رضي الله عنهم — عن النبي صلى الله عليه وسلم :
 أن موسى^(٢) — عليه السلام — قام خطيبا في بني إسرائيل ، فسئل : أى الناس

(١) يتخلخل : يتقلقل ويضطرب .

(٢) يلاحظ أن في رواية هذا الحديث هنا اختلافا يسيرا عما ورد في البخاري في كتاب تفسير القرآن

انظر الجزء الخامس ص ٢١٤ طبع بولاق سنة ١٢٩٦ هـ .

أعلم ؟ قال : أنا . فعتب الله تعالى عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فقال : بلى ، عبد بجميع البحرين هو أعلم منك .

وورد في الحديث الآخر من رواية البخاري : بلى عبدنا خضر . قال : أى رب ومن لى به ؟ قال سفيان من روايته : أى رب وكيف لى به ؟ قال : تأخذ حوتا فتجعله فى مكمل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم . وربما قال : فهو ثمة . فأخذ حوتا فجعله فى مكمل ، ثم أنطلق هو وفتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما ، فرقد موسى عليه السلام ، وأضطرب الحوت فخرج فسقط فى البحر : ﴿ فَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ ، فأمسك الله عن الحوت بحرية الماء فصار مثل الطاق ، فأطلقا يمشيان بقيّة يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان من الغد قال لفتاه : ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ ، ولم يجد موسى النصب حتى جاوز حيث أمره الله تعالى ، قال له فتاه : ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنَسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ ، فكان للحوت سرّبا ولهما عجبا .

قال له موسى : ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ .

فرجعا يقصّان آثارهما حتى آتيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى بثوب ، فسلم موسى ، فردّ عليه فقال : وأنى بأرضك السلام . قال : أنا موسى . قال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم ، أتيتك لتعلمنى ممّا علّمت رُشدا . قال : يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه . ﴿ قَالَ هَلْ أُتْبِعُكَ ﴾ . ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ * وكيف

(١) فى البخارى : « فصار عليه مثل الطاق » .

تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا) . إلى قوله : ((أَمْرًا)) ؛ فَأَنْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ، فَتَرَتَ بِهِمَا سَفِينَةً فُكِّمُوهُمَ أَنْ يَحْمِلُوهُمَ ؛ فَعَرَفُوا الْحَضِرَ فَحَمَلُوهُ بِغَيْرِ نَوْلٍ ؛ فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ جَاءَ عَصْفُورٌ فَوْقَ عَلِي حُرْفِ السَّفِينَةِ فَتَقَرَّ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ ^(٢) فَقَالَ لَهُ الْحَضِرُ : يَا مُوسَى ، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعَصْفُورُ بِمَنْقَارِهِ مِنَ الْبَحْرِ . « فَأَخَذَ الْفَأْسَ فَتَرَعَ لَوْحًا » .

قال : فلم يَفْجَأَ مُوسَى إِلَّا وَقَدْ قَلَعَ لَوْحًا بِالْقُدُومِ ؛ فَقَالَ لَهُ مُوسَى : مَا صَنَعْتَ ؟ قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمِدَتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَحَرَقْتَهَا ((لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا)) . وَكَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نَسْيَانًا . فَلَمَّا خَرَجَا مِنَ الْبَحْرِ مَرًّا بِغَلَامٍ يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَامَانِ ، فَأَخَذَ الْحَضِرُ بِرَأْسِهِ يَقْلَعُهُ بِيَدِهِ هَكَذَا — وَأَوْمَأَ سَفِيَانٌ بِأَطْرَافِ أَصَابِعِهِ كَأَنَّهُ يَقْطِفُ شَيْئًا — قَالَ لَهُ مُوسَى : ((أَقَاتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا * فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ)) مَائِلًا ، ((فَأَقَامَهُ)) — أَوْمَأَ بِيَدِهِ هَكَذَا وَأَشَارَ سَفِيَانٌ كَأَنَّهُ يَمْسَحُ شَيْئًا إِلَى فَوْقِ — قَالَ : قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يَطْعَمُوا وَلَمْ يُضَيِّفُونَا عَمِدَتَ إِلَى حَائِطِهِمْ ، ((لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)) .

(١) وردت قصة العصفور هذه في البخاري مؤخرة عن هذا الموضع بقليل ، أي بعد ذكر خرق السفينة .

(٢) لم يرد في البخاري قوله : « أو نقرتين » انظر القسطلاني ج ٧ ص ٢٦١ .

(٣) هذه العبارة التي بين هاتين العلامتين لم ترد في البخاري أثناء هذا الحديث الوارد في كتاب تفسير القرآن .

(٤) عبارة البخاري « لم يفجأ إلا والحضر قد قلع لوحًا » الخ .

قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « وِدِدْنَا أَنْ مُوسَى كَانَ صَبْرًا فَقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ خَبْرِهِمَا » .

قال سفيان : قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَوْ كَانَ صَبْرًا لَقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا » .

وقرأ ابن عباس - رضي الله عنهما - : « أَمَّا لَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَضَبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ » .
ثم قال لي سفيان : سمعته منه مرتين وحفظته منه .

هذا حديث البخاري عن علي بن عبد الله عن سفيان عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب ، وقصتهما في كتاب الله تعالى :
﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَضَبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ نُخْشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ الآيات ، إلى قوله : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

وحكى أبو إسحاق الثعلبي - رحمه الله - في قصصه أن الخضر - عليه السلام - اسمه بليلى بن ماري بن فالح بن عابر بن شالح بن أرغشاذ بن سام بن نوح عليه السلام .

وروى حديثا عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ، وإذا هي تهترت تحت خضراء .

(١) لم يرد اسم علي بن عبد الله في سند هذا الحديث الوارد في البخاري ج ٥ ص ٢١٤ طبع بولاق سنة ١٢٩٦ هـ وإنما رواه الحميدي عن سفيان .
(٢) كذا ورد هذا الاسم في تاريخ العيني مضبوطا بالعبرة .

وروى عن مجاهد قال : إنما سمي الخضر لأنه حينما صَلَّى أخضرَّ ما حوله .
قال الثعلبيّ : وكان الخضر في أيام أفريدون الملك على قول عامة أهل الكتب
الأول .

قال : وقيل إنه كان على مقدّمة ذى القرنين الأكبر الذى كان في أيام ابراهيم
— عليه السلام — وذلك في أيام مسيره في البلاد ، وأنه بلغ مع ذى القرنين
نهر الحياة وشرب من مائه وهو لا يعلم ولا يعلم ذو القرنين ، فخلد ، وهو حيّ إلى
الآن ، والله أعلم .

وسندكر — إن شاء الله تعالى — في السّفر الذى يلي هذا السّفر خبره في ظفّره
بماء الحياة في أخبار ذى القرنين .

ذكر خبر البقرة وقتل عاميل

١٠

قال أبو إسحاق الثعلبيّ — رحمه الله تعالى — في تفسيره عن السّدى وغيره : إن
رجلا كان في بني إسرائيل كان باّزا بأبيه ، وبلغ من برّه به أن رجلا أتاه بأولوة
فآبتاعها منه بخمسين ألفا ، وكان فيها فضل وربح ، فقال له البائع : اعطني الثمن .
فقال : إن أبى نائم ، ومفتاح الصندوق تحت رأسه ، فأمهلىنى حتى يستيقظ فأعطيك
الثمن . فقال له البائع : أيقظ أباك وأعطني المال . قال : ما كنت لأفعل
ولكن أزيدك عشرة آلاف وأنظرنى حتى ينتبه . فقال الرجل : أنا أعطيك
عشرة آلاف إن أيقظت أباك وعجّلت النقد . فقال : أنا أزيدك عشرين ألفا
إن أنتظرت أنتباهه . ففعل ولم يوقظ أباه ، فلما استيقظ أبوه أخبره بذلك ، فدعا
له وجزاه خيرا ، وقال له : أحسنت يا بنى ، وهذه البقرة لك بما صنعت . وكانت
بقية بقر كانت لهم .

٢٠

قال : وقال ابن عباس ووهبٌ وغيرُهما : كان في بني إسرائيل رجل صالح له ابن طفل ، وكان له عجلة ، فأتى بها إلى غِيضة وقال : اللهم إني أستودعك هذه العجلة لأبني حتى يكبر . ومات الرجل ، فشبت العجلة في الغِيضة وصارت عوانا وكانت تهرب من كل من رامها ، فلما كبر الابن — وكان برّا بوالدته ، وكان يقسم الليلَ ثلاثة أثلاث : يصلي ثلثا ، وينام ثلثا ، ويجلس عند رأس أمه ثلثا ، فإذا أصبح أنطلق وأحتطب على ظهره ، ويأتي به السوق فيبيعه بما شاء الله ، ثم يتصدق بثلثه ، ويأكل ثلثه ، ويعطي والدته ثلثه .

وحكى الكسائي عن وهب قال : كان في بني إسرائيل عبد صالح ، فمات وترك امرأته حاملا . فولدت غلاما ، فسَمَّته مِيشَى ، فكبر ، وكان يحتطب من المواضع المباحة ، وينفق على نفسه وأمه ، وكان كثير العبادة ، فلم يزل كذلك حتى كبر وضعف وعجز عن الاحتطاب .

قالوا : فقالت له أمه : إن أباك ورثك عجلة وذهب بها إلى غِيضة كذا وأستودعها الله — عز وجل — فانطلق إليها وأدع إليه إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يردّها عليك ، وإن من علامتها أنك إذا نظرت إليها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدّها — وكانت تسمى المذهبّة لحسنها وصُفرتها وصفاء لونها — فأتى الفتى إلى الغِيضة ، فرآها ترعى ، فصاح بها وقال : أعزم عليك بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب . فأقبلت تسعى حتى قامت بين يديه ، فقبض على عنقها وقادها ، فتكلّمت بإذن الله — عز وجل — وقالت : أيّها الفتى البار بوالدته ، اركبني فإنّ ذلك أهون عليك . فقال : إنّ أمي لم تأمرني بذلك ، ولكن قالت : خذ بعنقها . فقالت البقرة : وإله بني إسرائيل لو ركبتني ما كنت تقدر

- على أبدا ، فانطلق فلانك لو أمرت الجبل أن ينقطع من أصله وينطلق معك
لفعل ، ليرك بوالدتك . فسار الفتى بها ، فاستقبله عدو الله إبليس في صورة راع
فقال : أيها الفتى ، إني رجل من رعاة البقر ، اشتقتُ إلى أهلي فأخذتُ ثورا
من ثيراني ، فحملتُ عليه زادي ومتاعي ، حتى إذا بلغتُ شطر الطريق ذهبت
لأقضي حاجتي ، فعدا الثورُ وسط الجبل وما قدرتُ عليه ، وإني أخشى على نفسي
الهلكة ، فإن رأيتَ أن تحملني على بقرتك . فلم يفعل الفتى وقال له : اذهب
فتوكل على الله — عز وجل — فلو علم الله منك الصدق لبلغك بلا زاد ولا راحلة .
فقال له إبليس : إن شئتَ فبعنيها بحكمك ، وإن شئتَ فاحملني عليها وأعطيك
عشرا مثلها . فقال الفتى : إن أمي لم تأمرني بذلك . فبينا الفتى كذلك إذ طار
طائر من بين يديه ، فنفرت البقرة هاربة في الفلاة ، وغاب الراعي ، فدعا الفتى باسم
إله إبراهيم ، فرجعت إليه وقالت : أيها الفتى البار بوالدته ، ألم تر إلى الطائر الذي
طار ، إنه إبليس عدو الله آخِلسني ، أما إنه لو ركبنى ما قدرتُ على أبدا ، فلمّا
دعوتُ بإله إبراهيم جاء ملك وأنترعني من يد إبليس وردّني إليك ليرك بأَمك
وطاعتك لها . فجاء بها الفتى إلى أمه ، فقالت له أمه : إنك فقير لا مال لك
ويشقى عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل ، فانطلق فبع هذه البقرة وخذ ثمنها .
قال : بكم أبيعها ؟ قالت : بثلاثة دنانير ، ولا تتبعها بغير رضا ومشورتي .
فكان ثمن البقرة في ذلك الوقت ثلاثة دنانير ، فانطلق بها الفتى إلى السوق
فبعث الله — عز وجل — مَلَكًا ليرى في خَلْقِه قدرته ، وليخبرُ الفتى كيف برّه
بوالدته ، وكان الله تعالى به خبيرا ، فقال له الملك : بكم تباع هذه البقرة ؟ قال :
بثلاثة دنانير ، وأشترط عليك رضا والدتي . فقال له الملك : فأنا أعطيك ستة دنانير
ولا تستأمر أمك . فقال الفتى : لو أعطيتني وزنها ذهباً لم آخذه إلا برضا أمي .

فردّها إلى أمّه ، وأخبرها الخبر ، فقالت : ارجع فبعها بستة دنانير على رضا منى .
 فانطلق بها إلى السوق ، وأتى الملك ، فقال : استأمرت والدتك ؟ فقال الفتى :
 إنها أمرتني ألا أنقصها عن ستة دنانير على أن أستأمرها . فقال الملك : فإنني
 أعطيك اثني عشر دينارا على ألا تستأمرها . فأبى ورجع إلى أمّه فأخبرها بذلك ؛
 فقالت : إن ذلك الرجل الذي يأتيك هو ملك من الملائكة يأتيك في صورة
 آدمي ليختبرك ، فإذا أتاك فقل له : أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا ؟ ففعل
 الفتى ذلك ؛ فقال له الملك : اذهب إلى أمك فقل لها : أمسكي هذه البقرة ، فإن
 موسى بن عمران يشتريها منكم لقتيل يُقتل من بني إسرائيل ، فلا تبيعوها إلا
 بمِئَةِ مَسَكِينِها دنانير . فأمسكوا البقرة ، وقدر الله على بني إسرائيل ذبح تلك البقرة
 بعينها مكافأة له على برّه بآمه ؛ وذلك أنه وجد قتيل في بني إسرائيل اسمه (عاميل)
 ولم يُدرَ قاتله .

وآختلفوا في قاتله والسبب في قتله ؛ فقال عطاء والسديّ : كان في بني إسرائيل
 رجل كثير المال ، وله ابن عم مسكين لا وارث له غيره ، فلما أبطأ عليه موته
 قتله ليرثه .

قال : وقال بعضهم : كان تحت عاميل بنت عم له تُضرب مثلا في بني إسرائيل
 بالحسن والجمال ، فقتله ابن عمها لينكحها .

وقال الكلبيّ : قتله ابن أخيه لينكح أخته ، فلما قتله حمله من قريته إلى قرية
 أخرى وألقاه هناك .

وقيل : ألقاه بين قريتين .

وقال عكرمة : كان لبني إسرائيل مسجد له اثنا عشر بابا ، لكل سبط منهم
 باب ، فوجد قتيل على باب سبط ، وجُرّ إلى باب سبط آخر ، فأختصم السبطان فيه .

وقال ابن سيرين : قتله القاتل ثم احتمله فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يطلب بثأره ودمه ويدّعيه عليه .

قالوا : بخاء أولياء القتل إلى موسى — عليه السلام — وأتوه بأناس وأدّعوا عليهم القتل ، وسألوه القصاص ، فسألهم موسى عن ذلك ، فحشدوا ، فاشتبه أمر القتل على موسى — عليه السلام — ووقع بينهم خلاف .

قال الكلبي : وذلك قبل نزول القسامة في التوراة ، فسألوا موسى — عليه السلام — أن يدعو الله ليبين لهم ذلك ، فسأل موسى — عليه السلام — ربه عز وجل ، فأمرهم بذبح بقرة ، فقال لهم موسى ما أخبر الله تعالى به في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَنْتَحِدَنَا هُزُوا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ، أى تستهزئ بنا حين نسألك عن القتل وتأمرونا بذبح البقرة ، وإنما قالوا ذلك لتباعد ما بين الأمرين في الظاهر ، ولم يدروا ما الحكمة فيه . قال موسى : ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ، أى من المستهزئين بالمؤمنين ، فلما علم القوم أن ذبح البقرة عزم من الله عز وجل ، سألوه الوصف ، فذلك قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾ .

قال : ولو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ، ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، وإنما كان تشديدهم تقديرا من الله — عز وجل — وحكمة . قال : ومعنى ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ ، أى سل ، وهكذا في مصحف عبد الله : «سل لنا ربك يبين لنا ما هي وما سنّها» . قال موسى : إنه — يعنى الله عز وجل — يقول : ﴿ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ ﴾ : لا كبيرة ولا صغيرة ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ أى تصف بين السنين .

وقال الأخفش : العوان التي تُتَجَّتْ مرارا ، وجمعه عُون . ﴿ فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ :
من ذبح البقرة ، ولا تكرر القول . ﴿ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنَ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ
إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاطِرِينَ ﴾ .

قال ابن عباس : شديدة الصفرة .

وقال قتادة وأبو العالية والربيع : صاف .

وقال سعيد بن جبير : صفراء القرنين والظلف .

وقال الحسن : سوداء . والعرب تسمى الأسود أصفر .

وقال العتيبي : غلط من قال : الصفراء هاهنا السوداء ، لأن هذا غلط في نعوت
البقر ، وإنما هو من نعوت الإبل ، وذلك أن السود من الإبل يشوب سوادها صفرة .

وقال آخر : إنه لو أراد السواد لما أكد بالفقوع ، لأن الفاقع : البالغ
في الصفرة ، كما يقال : أبيض يقق ، وأسود حالك ، وأحمر قاني ، وأخضر
ناضر . ﴿ تَسُرُّ النَّاطِرِينَ ﴾ إليها ، ويعجبهم حسنهما وصفاء لونها ، لأن العين تسر
وتولع بالنظر إلى الشيء الحسن .

وقال عليّ — رضى الله عنه — : من لبس نعلا صفراء قلّ همّه ، لأن الله
تعالى يقول : ﴿ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاطِرِينَ ﴾ * قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا
مَا هِيَ ﴿ أسائمة أم عاملة ﴾ ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنِ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾
أى إلى وصفها .

قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : ”وَأَيُّكُمْ لَوْ لَمْ يَسْتَتِنُوا لَمَا بَيَّنَّتْ
لَهُمْ آخِرَ الْأَبَدِ“ . ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ ﴾ ، أى مذالة للعمل . ﴿ تُثِيرُ
الْأَرْضَ ﴾ ، أى تقلبها للزراعة ﴿ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةً ﴾ أى بريئة من العيوب

وقال الحسن : مسأمة القوائم ، ليس فيها أثر العمل . ﴿ لَا شَيْءَ فِيهَا ﴾ ، قال عطاء : لا عيب فيها .

وقال قتادة : لا بياض فيها أصلا .

وقال مجاهد : لا بياض فيها ولا سواد .

وقال محمد بن كعب : لا لون فيها يخالف معظم لونها . فلما قال هذا ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ ، أى بالوصف البين التام ، فطلبوها فلم يجدوا كمال وصفها إلا عند الفتى البار بالدته ، فأشتروها منه بملء مسكها ذهباً .

وقال السدى : اشتروها بوزنها عشر مرات ذهباً .

وقيل : اشتروها بوزنها مرة ، قاله أبو عبيد .

وقيل : بوزنها مرتين .

وقال الكسائى : إنهم أتوا إلى مِيشَى فى بيع البقرة فقال : لا أبيعها إلا بحضرة موسى . فرضوا بذلك ، وأخرج البقرة إلى موسى ، قال : بكم تبيعها ؟ قال : المساومة بينى وبينك لا خير فيها ، لا أبيعها إلا بملء جلدها ذهباً . فقال موسى لبنى إسرائيل : ذلك لتشديدكم على أنفسكم فشدد الله عليكم . فضمنوا له ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ من غلاء ثمنها .

وقال محمد بن كعب : وما كادوا يجدونها بأجتماع أوصافها .

وقال الكسائى : بوفاء المال ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَآذَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ ، يعنى عاميل . ﴿ فَمَا ذَرَأْتُمْ ﴾ : اختلفتم ، قاله ابن عباس ومجاهد .

وقال عبد العزيز بن يحيى : شككتكم .

وقال الربيع بن أنس : تدافعت . وأصل الدرء : الدفع ، يعنى ألقى هذا على هذا وهذا على ذاك ، فدافع كل واحد عن نفسه لقوله تعالى : ﴿ وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ ، أى يدفعون . قال الله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ يعنى القتيل ببعض البقرة .

وآختلفوا فى هذا البعض ما هو .

فقال ابن عباس : ضربوه بالعظم الذى يلى الغضروف ، وهو المقبل .
وقال الضحاك : بلسانها .

قال الحسين بن الفضل : وهذا أولى الأقوال ، لأن المراد كان من إحياء الفتيل كلامه ، واللسان آله .

وقال سعيد بن جبير : بعجم ذنبها .

قال يمان بن زرياب : وهو أولى التأويلات بالصواب ، لأن العَصَصُ أساس البدن الذى رُكِبَ عليه الخلق ، وأنه أول ما يُخْلَق ، وآخر ما يبلى .
وقال مجاهد : بذنبها .

وقال عكرمة والكلبى : بفخذها الأيمن .

وقال السدى : بالبضعة التى بين كتفها .

وقيل : بأذنها . ففعلوا ذلك ، فقام القتيل — بإذن الله عز وجل — وأوداجه تشخبُ دما ، وقال : قتلى فلان . ثم مات وسقط مكانه ، قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

قال الكلبي : ثم قالوا بعد ذلك : « لم نقتله نحن » وأنكروا ، فلم يكونوا قط أقسى قلبا ولا أشد تكذيبا منهم لنبيهم عند ذلك ، ولذلك يقول الله تعالى :
 ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ .

قال الكلبي : يبست وأشتدت .

وقال أبو عبيدة : جفت من الشدة فلم تلين .

وقيل : غلظت .

وقيل : اشتدت .

وقال الزجاج : تأويل القسوة ذهاب اللين والرحمة والخشوع والخضوع .

قوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ ، أى من بعد ظهور الدلالات ، فهى فى غلظتها وشدتها
 ﴿ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ ، أى بل أشد قسوة .

ثم عدد الله تعالى الحجارة وفضلها على القلب القاسى ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ
 الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا
 لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ ، أى ينزل من أعلى الجبل إلى أسفله ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ
 عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

ذكر بناء بيت المقدس وخبر القربان والتابوت والسكينة وصفة النار

وهذا البيت ليس هو البيت المقدس الموجود الآن ، وإنما هو الذى تسميه
 اليهود : « قبة الزمان » ويزعمون أن ذلك نص التوراة ، وكان من خبر هذه القصة
 ما رواه الثعلبي بإسناده عن وهب بن منبه قال : أوحى الله تعالى إلى موسى — عليه
 السلام — أن يتخذ مسجدا لجماعتهم ، وبيتا قدس للتوراة ، وتابوتا للسكينة
 وقبابا للقربان ، وأن يجعل لذلك المسجد سرادقات باطنها وظاهرها من الجلود

الملبسة عليها ، وأن تكون تلك الجلود من جلود ذبائح القربان ، وحبالها من أصواف
تلك الذبائح ؛ وعهد إليه ألا تغزل تلك الحبال حائض ، ولا يدبغ تلك الجلود جُنُب ؛
وأمره أن ينصب تلك السراديات على عمود من نحاس ، طول كل عمود منها أربعون
ذراعا ، ويجعل فيها آثني عشر قسما ^(١) مشرجا ، إذا نُقِضَتْ صارت اثني عشر جزءا
يحمل كل جزء بما فيه من العمود سبط من الأسباط من بني إسرائيل ؛ وأمره أن
يجعل سعة ذلك السرادق ستمائة ذراع ، وأن ينصب فيه سبع قباب ، ست قباب
منها مشبكة بقضبان الذهب والفضة ، كل واحدة منهن منصوبة على عمود من فضة
طول كل عمود منها أربعون ذراعا ، وعليها أربعة دسوت ثياب ، الباطن منها سندس
أخضر ، والثاني أرجوان أحمر ، والثالث ديباج أصفر ، والرابع من جلود القربان
وقاية لها من المطر والغبار ، وحبالها التي تُمدّ بها من صوف القربان ، وأن يجعل
سعتها أربعين ذراعا ، وأن ينصب في جوفها موائد من فضة مربعة مرصعة يوضع
عليها القربان ، سعة كل مائدة منها أربع أذرع ، كل مائدة منها على أربع قوائم من
فضة ، طول كل قائمة ثلاث أذرع ، لا ينال الرجل منها إلا قائما ؛ وأمره أن ينصب
بيت المقدس على عمود من ذهب ، طوله سبعون ذراعا ، وأن يضعه على سبيكة
من ذهب أحمر طولها تسعون ذراعا ، مرصعة بألوان الجواهر ، وأن يجعل أسفله
مشبكة بقضبان الذهب والفضة ، وأن يجعل حباله التي يُمدّ بها من صوف القربان
مصبوغة بألوان من أحمر وأصفر وأخضر ؛ وأن يلبسه سبعة من الحُلل ، الباطن منها
سندس أخضر ، والثاني أرجوان أحمر ، والثالث ديباج أصفر ، والرابع من الحرير
الأبيض ، وسائرهما من الديباج والوشى ؛ والظاهر غاشية له من جلود القربان وقاية
له من الأذى والندى ؛ وأمره أن يجعل سعته سبعين ذراعا ، وأن يفرش القباب

(١) مشرجا ، أى دوخل بين عراه وضم بعضها إلى بعض .

بالقَزَّ الأحمر؛ وأمره أن ينصب فيه تابوتا من ذهب كتابوت الميثاق، مرصعا بأنواع
الجواهر والياقوت والزمرد الأخضر، وقوائمه من الذهب، وأن يجعل سعته
سبع أذرع في أربع أذرع، وعلوه قامة موسى عليه السلام، وأن يجعل له أربعة
أبواب: باب تدخل منه الملائكة، وباب يدخل منه موسى، وباب يدخل
منه هارون، وباب يدخل منه أولاد هارون، وهم سَدَنَة ذلك البيت وخَزَان
التابوت، وأمر الله نبيّه موسى أن يأخذ من كلّ محتلم من بني إسرائيل مثقالا
من الذهب فينفقه على هذا البيت، وأن يجعل باقى المال الذى يحتاج إليه
فى ذلك من الحلى والحلل التى ورثها موسى وأصحابه من فرعون وأصحابه، ففعل
موسى ذلك، فبلغ عدد رجال بني إسرائيل سِتْمائة ألف وسبعمائة وخمسين رجلا
فأخذ منهم ذلك المال .

١٠

وأوحى الله تعالى إليه أنى منزل عليكم من السماء نارا لا دخان لها ولا تُحْرِق
شيئا، ولا تنطفئ أبدا، لتأكل القرابين المقبولة، وتُسْرَج منها القناديل التى فى بيت
المقدس، وكانت من ذهب معآقة بسلاسل من ذهب، منظومة باليواقيت والالآئ
 وأنواع الجواهر؛ وأمره أن يضع فى وسط البيت صخرة عظيمة من الرّخام، وينقر
 فيها نُقْرَةً لتكون كانون تلك النار التى يُنْزَل بها من السماء؛ فدعا موسى أخاه هارون
 وقال له: إن الله تعالى قد آصطفانى بنار يُنْزَل بها من السماء لتأكل القرابين المقبولة
 وتُسْرَج منها القناديل، وأوصانى بها، وإنى قد آصطفيتك لها وأوصيتك بها . فدعا
 هارون أبنيه وقال لهما: إن الله تعالى قد آصطفنى موسى بأمر وأوصاه به، وإنه
 قد آصطفانى له وأوصانى به، وإنى قد آصطفيتكما وأوصيتكما به . وكان أولاد
 هارون هم الذين يلون سِدانة بيت المقدس وأمر القربان والنيران؛ فشربا ذات
 ليلة ثم ثَمَلَا، ثم دخلا البيت وأسرجا القناديل من هذه النار التى فى الدنيا، فغضب

٢٠

الله عليهما ، وسلط عليهما تلك النار حتى أحرقتهما ، وموسى وهارون يدفعان عنهما النار فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ؛ فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : هكذا أفعل بمن عصاني ممن يعرفني ، فكيف أفعل بمن لا يعرفني ، والله أعلم .

ذكر ما أنعم الله تعالى به على بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر
قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال أبو إسحاق الثعلبي : اختلفوا في معنى الملوك ؛ فروى عن أبي سعيد الخدري — رضى الله عنه — عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم وأمراة فهو ملك “ .

وقال أبو عبد الرحمن الحُبلي : سمعتُ عبد الله بن عمرو بن العاص — وسأله رجل فقال : ألسنا من فقراء المهاجرين ؟ — فقال له عبد الله : ألك أمراة تأوى إليها ؟ قال : نعم . قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال : نعم . قال : فأنت من الأغنياء . قال : وإنا لى خادما . قال : فأنت من الملوك .

وقال الضحّاك : كانت منازلهم واسعة ، فيها مياه جارية ، فمن كان مسكنه واسعا وفيه ماء جارٍ فهو ملك .

﴿١٠٠﴾

وقال قتادة : وكانوا أول من ملك الخدم ، وأول من سُخِّرَ لهم الخدم من بنى آدم .

وقال السدي : يعنى وجعلكم أحرارا تملكون أنفسكم بعد ما كنتم فى أيدي القبط بمنزلة أهل الجزية ، فأخرجكم الله تعالى من ذلك الذل .

﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ، يعنى من عالم زمانكم .

وقال مجاهد : يعنى المن والسلوى والمجر والغمام .

قال : ثم أوحى الله تعالى إلى موسى أن يسير ببني إسرائيل إلى الأرض المقدسة
ويجاهد الجبارين ؛ فأخرجهم موسى — عليه السلام — لذلك ، فقال : ﴿ يَا قَوْمِ
ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ .

قال الثعلبي : اختلفوا في الأرض المقدسة ما هي .

فقال مجاهد : هي الطور وما حوله .

وقال الضحاك : هي إيلياء وبيت المقدس .

وقال عكرمة والسدي وآبن يزيد : هي أريحا .

وقال الكلبي : دمشق وفلسطين وبعض الأرذنة .

وقال قتادة : الشام كله .

- ١٠ قال الكسائي : فلما أخبرهم موسى بذلك قالوا : يا موسى إنك قلت لنا حين
أخرجتنا من مصر : إن الله تعالى بعثك لتنقذنا من عذاب فرعون ، والآن فإنك
تحملنا على ما هو أشق منه ، وبيننا وبين الأرض المقدسة المفاوز والقفار ، وكيف
ندخلها ولا زاد معنا ولا ماء ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى ، قل لهم : إني منزل
عليهم المن والسلوى ، وقد أمرت الحجر أن يتفجر لهم بالماء العذب ، وأمرت
الغمام أن يظلهم ويسير معهم حيث ساروا ؛ وألا تنقب خفافهم ونعالهم ؛ وأمرت
١٥ ثيابهم أن يلبسها صغيرهم وكبيرهم .

- فلما سمعوا ذلك طابت نفوسهم ، وساروا نحو الأرض المقدسة والغمام يظلهم
في مسيرهم ، والسماء تمطر عليهم بالمن ، والريح بالسلوى ، ويجدون كل ما يحتاجون
إليه ، ويضيء لهم بالليل عمود من النور ، وتهب الريح على السلوى فتعطر ريشها
٢٠ فيطبخونها بغير تعب ؛ ويقرع موسى — عليه السلام — الحجر فتفجر لهم اثنتا عشرة

عيناً ، تجرى كل عين إلى سبط من الأسباط ؛ وثيابهم جدد بيض لا تتلحق ، وهم في خفض ودعة .

وقال أبو إسحاق الثعلبي ، كان ما أنعم الله تعالى به عليهم أنهم قالوا لموسى في التيه : أهلكتنا وأخرجتنا من العمران إلى مفاوز لا ظل فيها . فأنزل الله تعالى عليهم غمامة بيضاء رقيقة ليست بغمام المطر أرق وأطيب وأبرد ، فأظلتهم وكانت تسير معهم إذا ساروا ، وتدور عليهم من فوقهم إذا داروا ، وجعل لهم عموداً من نور يضيء لهم بالليل إذا لم يكن ضوء القمر ، فقالوا : هذا الظل والنور قد حصلنا ، فأين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن .

واختلفوا فيه ؛ فقال مجاهد : هو شيء كالصمغ يقع على الأشجار ، وطعمه كالشهد .

وقال الضحاك ^(١) : هو الطرنجيين .

وقال وهب : الخبز الرقاق .

وقال السدي : عسل كان يقع في السحر من الليل فيأكلون منه .

وقال عكرمة : أنزل الله — عز وجل — عليهم مثل الزيت الغليظ .

وقيل : هو الزنجبيل .

وقال الزجاج : جملة المن : ما يمن الله عز وجل به مما لا تعب فيه ولا نصب .

فكان ينزل عليهم كل ليلة ويقع على أشجارهم مثل الثلج ، لكل إنسان منهم صاع كل ليلة ، فقالوا : يا موسى ، قتلنا هذا المن بجلاوته ، فآدع لنا ربك أن يطعمنا اللحم . فدعا موسى عليه السلام ، فأنزل الله — عز وجل — عليهم السلوى .

(١) كذا في تاريخ العيني ؛ والذي في كلا الأصلين : « مجاهد » ؛ وهو تبديل من النسخ ، فان مجاهدا هو صاحب القول السابق .

قالوا : وأختلفوا فيه ؛ فقال ابن عباس — رضى الله عنهما — وأكثر المفسرين : هو طائر يشبه السَّمَانِي .

وقال أبو العالية ومقاتل : بعث الله — عز وجل — السحابة فمطرت السَّمَانِي في عرض ميل وقدر طول ریح في السماء بعضه على بعض .
وقال عكرمة : طير يكون بالهند أكبر من العصفور .

فكان يأخذ كل واحد منهم ما يكفيه يوما وليلة من المن والسلوى ، فإذا كان يوم الجمعة أخذوا ما يكفيهم عن يومين ، لأنه لم يكن ينزل عليهم يوم السبت ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ولا تذخروا لغد . فحنوا لغد فقطع الله ذلك عنهم ، ودود وفسد ما آذخروا ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ معناه وما ضررنا بالمعصية ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ روى عن أبي هريرة — رضى الله عنه — عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : لولا بنو إسرائيل لم يخنر الطعام ، ولم يخبث اللحم ، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها . ثم قالوا : يا موسى ، من أين لنا الشراب ؟ فاستسقى لهم موسى ، فأوحى الله تعالى إليه : أن أضرب بعصاك الحجر .

قال الثعلبي : وأختلف العلماء في الحجر ؛ فقال وهب : كان موسى — عليه السلام — يقرع لهم أقرب حجر من عرض الحجارة فيتفجر عيوننا ، لكل سبط عين ، وكانوا اثني عشر سبطا ، ثم تسيل كل عين في جدول إلى سبط ؛ فقالوا : إن فقد موسى عصاه متنا عطشا . فأوحى الله تعالى إليه : لا تفرعن الحجارة بالعصا ولكن كلمها تطعك لعلهم يعتبرون . فكان يفعل ذلك . فقالوا : كيف بنا لو مضينا إلى الرمل وإلى الأرض التي ليس فيها حجارة ؟ فأمر موسى فحمل معه حجرا ، فحيثما نزل ألقاه .

وقال آخرون : كان حجرا مخصوصا بعينه ، والدليل عليه قوله : « الحجر »
فأدخل الألف واللام للتعريف والتخصيص ؛ وأمر أن يحمله ، فكان موسى عليه
السلام يضعه في مخلاته ، وإذا احتاجوا إلى الماء أخرجه وضربه بعصاه وسقاهم .

وقال أبو روق : كان الحجر من الغضار ، وكان فيه اثنتا عشرة حفرة ينبع من
كل حفرة ماء عذب ، فيأخذونه ، فإذا فرغوا وأراد موسى حمله ضربه بعصاه ؛
فيذهب الماء ؛ فكان كل يوم يستقي منه ستمائة ألف .

وقال سعيد بن جبير : هو الحجر الذي وضع موسى عليه ثوبه لغسله ففتر
بثوبه ؛ فلما وقف أتاه جبريل فقال : يا موسى ، إن الله تعالى يقول لك : ارفع
هذا الحجر فإن لي فيه قدرة ، ولك فيه معجزة .

وقد تقدم ذكر خبر الحجر .

وورد أيضا في صحيح البخاري نحو ما تقدم .

قال أبو إسحاق الثعلبي : وكان مما أنعم الله تعالى به على بني إسرائيل أنهم
قالوا لموسى عليه السلام : من أين لنا اللباس ؟ نفخ الله تعالى ثيابهم التي عليهم حتى
إنها لا تزيد على الأيام ومروها إلا جدّة وطراوة ، ولا تخلق ولا تبلى ، وتمو على
صبيانهم كما ينمون .

قال : ثم سمّ بنو إسرائيل المن والسلوى ، فقالوا ما أخبر الله تعالى به عنهم :
﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثَبِّتُ
الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا ﴾ .

وآختلف في الفوم ما هو ؟ فقال ابن عباس : هو الخبز ، تقول العرب :
« فُومُوا لنا » ، أي آخذوا .

وقال عطاء وأبو مالك : هو الحنطة ، وهي لغة قديمة .

وقال العتبي : هو الحبوب كلها .

وقال الكلبي والنضر بن شميل والكسائي والمؤرج : هو الثوم .

فقال لهم موسى عند ذلك : ﴿ أَتَسْتَبِدُّونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ۖ ﴾ .

قالوا : مصرا من الأمصار ، ولذلك نونه ، ولو أراد مصر بعينها لقال : « مصر » ولم يصرفه ، كقوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ ۖ ﴾ .

وقال الضحاك : هي مصر فرعون .

واليهود يزعمون أن موسى — عليه السلام — وبني إسرائيل حُرِّمَ عليهم بنص التوراة الدخول إلى مصر حين خرجوا منها عند اتباع فرعون لهم وغرقه ، وأنهم لم يدخلوها بعد ذلك . والله أعلم .

ولنرجع إلى أخبار النقباء وقاتل الجبارين .

ذكر خبر النقباء ومسيرهم إلى أريحا ، وقصة عوج بن عوق وخبر التيه قال الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ ﴾ .

قال الثعلبي : وذلك أن الله تعالى وعد موسى — عليه السلام — أن يورثه وقومه الأرض المقدسة ، وهي الشام ، وكان يسكنها الكنعانيون الجبارون ووعدهم أن يهلكهم ويجعل أرض الشام مسكن بني إسرائيل ؛ فلما استقرت بني إسرائيل الدار بمصر أمرهم الله تعالى بالمسير إلى أريحا .

(١) كذا في القاموس وشرحه . وفي الأصل : « عنق » بالنون .

”هكذا قال الثعلبي“ : ^(١) بمصر .

واليهود تنكر ذلك ، ويقولون : إن نص التوراة عندهم أن الله تعالى لما أغرق فرعون وقومه ونجى موسى وبني إسرائيل ، تنقلوا من مكان إلى آخر . ويذكرون أسماء الأماكن بالعبرانية — وليست تعرف الآن — وكان في خلال مسيرهم خبر التيه ، وكل ما تقدم ذكره من الأخبار يزعمون أنه في التيه ؛ والله أعلم .

نعود إلى سياق الثعلبي .

قال : فأمرهم الله تعالى بالمسير إلى أريحا وأرض الشام ، وهي الأرض المقدسة وقال : يا موسى ، إني قد كتبتها لكم دارا وقرارا ، فأخرج إليها وجاهد من فيها من العدو ، فإني ناصركم عليهم ، وخذ من قومك اثني عشر نقيبا ، من كل سبط نقيبا يكون كفيلا على قومه بالوفاء منهم على ما ^(٢) أمروا به .

فاختار موسى — عليه السلام — ^(٣) النقباء .

قال : وهذه أسماءهم ؛ « من سبط روبيل شامل بن زكور . ومن سبط شمعون سافاط بن حري . ومن سبط يهوذا كالب بن يوقنا . ومن سبط أبين حامل بن بكر

(١) تشعر هذه العبارة التي بين هاتين العلامتين بأن قوله « بمصر » محل نظر . (٢) في تفسير الآلوسي عند تفسير قوله تعالى : « ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل » الخ : « فيما أمروا به » .

(٣) وردت أسماء هذه النقباء في التوراة صفحة ٢١٤ هكذا : « من رأوبين أليصور بن شديثور ومن شمعون شلوميئيل بن صوريشداي ، ومن يهوذا نحشون بن عميناداب ، ومن يساكر نثنائيل بن صوعر ومن زبولون أليآب بن حيلون ، ومن بني يوسف من أفرايم اليشاماع بن عميهور ، ومن منسى جملئيل ابن فدهصور ، ومن بنيامين أنيدان بن جدعوني ، ومن دان أجيحاز بن عميشداي ، ومن أشير فخئيل بن عكران ، ومن جاد أليساد بن دعوثيل ، ومن نفتالي أجيرع بن عبتان » . وهي مخالفة كل المخالفة لما هنا كما ترى . وقد أورد العيني في تاريخه هذه الأسماء هكذا : « من سبط روبيل شامل بن زكور ومن سبط شمعون شافاط بن حوري ، ومن سبط يهوذا كالب بن يوقنا ، ومن سبط يساخرشال بن ماعون ومن سبط داني جيعدد بن عميشدي ، ومن سبط جاد حايل بن يوسف ، ومن سبط زبولون حوا بن سودا ، ومن سبط أشير شالون بن مليكا ، ومن سبط نفتالي حولا بن مليكا ، ومن سبط يوسف عليه السلام وهما سبطان سبط افرايم وسبط منشى ، فاختر من سبط افرايم يوشع بن نون ، ومن سبط منشى جدى بن سوشى ، ومن سبط بنيامين بلطم بن راقون » .

ابن سورا . ومن سبط يوسف وهو سبط افرام يوشع بن نون . ومن سبط بنيامين
 قلطم بن رقوق . ومن سبط زبولون خدي بن سوري . ومن سبط يوسف وهو
 سبط منشي بن يوسف جدى بن سوشي . ومن سبط آشير شيانون بن ملكيل .
 ومن سبط نفتالى حنا بن وقشي . ومن سبط دان جملائيل بن حمل . ومن سبط
 لاوى حولى بن مليكا » .

قال : فسار موسى بنى إسرائيل حتى إذا دنوا من أرض كنعان — وهى
 أريحا — بعث هؤلاء النقباء إليها يتجسسون له الأخبار ويعلمون علمها ؛ فلقبهم
 رجل من الجبارين يقال له : عوج بن عوق ، وكان طوله ثلاثة آلاف وعشرين ألف
 ذراع وثلاثمائة ذراع وثلاثا وثلاثين ذراعا .

قال ابن عمر — رضى الله عنهما — : وكان عوج يحتجز بالسحاب ويشرب
 منه ، ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها ، ثم يأكله .
 ويروى أنه أتى نوحا — عليه السلام — يوم الطوفان فقال له : احملنى معك
 فى السفينة . فقال له : اذهب يا عدو الله فإنى لم أؤمر بك ، وطبق الماء ما على
 وجه الأرض من سهل وجبل فما جاوز ركبتي عوج .

وعاش عوج ثلاثة آلاف سنة حتى أهلكه الله على يدى موسى .

قال : وكان لموسى عسكر فرسخ فى فرسخ ، فجاء عوج حتى نظر إليهم ، ثم جاء
 إلى الجبل وقور منه صخرة على قدر العسكر ، ثم حملها ليُطبقها على العسكر ، فبعث الله
 عليه الهدد ومعه الطيور ، وجعلت تنقر بمناقيرها حتى قورت الصخرة وأنتقبت
 حتى وقعت فى عنق عوج ، فطوقته وصرعته ، فأقبل موسى وطوله عشر أذرع
 وطول عصاه عشر أذرع ، ونزا فى السماء عشر أذرع ، فما أصاب إلا كعبه وهو
 مصروع بالأرض ، فقتله .

قالوا : وأقبلت جماعة كثيرة ومعهم الخناجر حتى حزوا رأسه ؛ فلما قُتل وقع على نيل مصر فسكَّه^(١) سنة .

قالوا : وكانت أم عُوْج يقال لها : عناق ، وهى إحدى بنات آدم لصلبه .
ويقال : إنها كانت أول من بغت على وجه الأرض ، وكان كل إصبع من أصابعها ثلاث أذرع فى ذراعين ، فى كل إصبع ظفران حادان مثل المنجلين ، وكان موضع مقعدها جريب من الأرض ، فلما بغت بعث الله تعالى إليها أسودا كالفيلة وذئبا كالإبل ، ونسورا كالحمر ، وسلطها عليها فقتلوها وأكلوها .

قالوا : فلما لقي عُوْج النقباء لقيهم وعلى رأسه حزمة حطب ، فأخذهم وجعلهم فى حُزْمَتِهِ ، وأنطلق بهم إلى أمراته ، وقال : انظروا إلى هؤلاء الذين يريدون قتالنا . فطرحهم بين يديها وقال : ألا أطحنهم برجلي ؟ قالت أمراته : لا ، بل خل عنهم حتى يُخبروا قومهم بما رأوا . ففعل ؛ وجعلوا يتعزفون أحوالهم .
وكان لا يحمل عنقودَ عنبهم إلا خمسة أنفس بينهم فى خيشة ، ويدخل فى قشر شطر الرقانة إذا نُزِعَ حبُّها خمسة أنفس .

قال : فلما خرج النقباء قال بعضهم لبعض : يا قوم إنكم إن أخبرتم بنى إسرائيل خبر القوم آرتدوا عن نبي الله ، ولكن آكتموا وأخبروا موسى وهارون فيكونا هما يران رأيهما . فأخذ بعضهم على بعض الميثاق بذلك ؛ ثم أنصرفوا إلى موسى — عليه السلام — وجاءوا بحبة من عنبهم وقرَّ رجل ، ثم إنهم نكثوا العهد ، وجعل كل واحد منهم ينهى سبطه عن قتالهم ، ويخبرهم بما رأى ، إلا يوشع وكالب .

قال : فلما سمع القوم ذلك من النقباء رفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا : ياليتنا متنا فى أرض مصر ، وليتنا نموت فى هذه البرية ولا يدخلنا الله أرضهم ، فتكون نساؤنا وأولادنا وأموالنا غنيمةً لهم .

(١) سكره : سده .

وجعل الرجل يقول لأصحابه : تعالوا نجعل علينا رأسا وننصرف إلى مصر؛ فذلك قوله تعالى إخبارا عنهم : ﴿ يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا أَن نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ .

فلما قالوا ذلك وهموا بالانصراف إلى مصر ، خرم موسى وهارون — عليهما السلام — سجداء ، وخرق يوشع وكالب ثيابهما ، وهما اللذان أخبر الله تعالى عنهما بقوله : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنِعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ ، أى يخافون الله .
وقرأ سعيد بن جبير (يخافون) بضم الياء .

قال : كانا من الجبارين ، فأسلما وأتبعنا موسى . ﴿ أَنِعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾ ، لأن الله تعالى منجز وعده ، وإنا أتيناهم فكانت أجسامهم عظيمة قوية ، وقلوبهم ضعيفة ، فلا تخشوهم ، وعلى الله فتوكلوا .
١٠ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فأراد بنو إسرائيل أن يرموهم بالججارة ، وقالوا : يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ .

فلما قالوا ذلك غضب موسى وقال : رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ . وكانت عجلة عجلها موسى — عليه السلام — فظهر الغمام على قبة الزمان ، وأوحى الله تعالى إلى موسى : إلى متى يعصيني هذا الشعب ، وإلى متى لا يصمدقون بالآيات ؟ لأقتلنهم جميعا ، ولأجعلن بدلهم شعبا أشد وأكثر منهم .
١٥

قال موسى : إلهى لو أنك قتلت هذا الشعب كله كرهل واحد قالت الأمم الذين سمعوا : إِنَّمَا قَتَلَ هَذَا الشَّعْبَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَدْخُلَهُمُ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ، فقتلهم فى البرية ، وإليك طويل صبرك ، كثيرة نعمك ، وأنت تغفر الذنوب ، وتحفظ الآباء على الأبناء وأبناء الأبناء ، فأغفر لهم ولا توبقهم .
٢٠

فقال الله تعالى : قد غفرت لهم بكلمتك ، ولكن بعد ما سميتهم فاسقين ودعوت عليهم ، لأحترم عليهم دخول الأرض المقدسة غير عبدى يوشع وكالب ولأتيتهم في هذه البرية أربعين سنة ، ولتلقين جيفهم في هذه القفار ، وأما بنوهم الذين لم يعملوا الخير والشر فإنهم يدخلون الأرض المقدسة ، فذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ في ستة فرائخ ، يسيرون كل يوم جادين ، حتى إذا سئموا وأمسوا ، فإذا هم في الموضع الذي ارتحلوا منه وكانوا ستمائة ألف مقاتل ، مات النقباء العشرة الذين أفسدوا الخبر بغتة ، وكل من دخل التيه ممن جاوز عشرين سنة مات في التيه غير يوشع وكالب ، ولم يدخل أريحا أحد ممن قال : إِنَّا لَنَزَخُلُهَا أَبَدًا .

١٠ فلما هلكوا وأنقضت أربعون سنة ، ونشأت النواشى من ذراتهم ، ساروا إلى حرب الجبارين ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ . والله المعين .

ذكر مسير موسى — عليه السلام — وبني إسرائيل

لحرب الجبارين ودخولهم القرية

١٥ قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَتَرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

اختلف المفسرون في القرية :

قال ابن عباس : هي أريحا ، وهي قرية الجبارين ، وكان فيها بقية من عاد يقال لهم : العمالقة .

٢٠ وقيل : هي بقاء .

وقال ابن كيسان : هي الشام .

وقال الضحاك : الرملة والأردن وفلسطين وتدمر .

وقال مجاهد : بيت المقدس .

وقال مقاتل : إيلياء . وقوله : رَغَدًا ، أى موسعاً عليكم .

والباب : باب من أبواب القرية ، وكان لها سبعة أبواب .

وقال مجاهد : هو باب في بيت المقدس يُعرف إلى اليوم بباب حطة .

وقيل : هو باب القبة التي كان موسى يصلي إليها .

وعن مجاهد أيضا : أنه باب في الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى كالفرصة .

وقوله : سَجَّدًا ، أى منحنين متواضعين .

وقال وهب : قيل لهم : ادخلوا الباب فإذا دخلتموه فاسجدوا شكرا لله عزّ

وجلّ ، وذلك أن موسى — عليه السلام — لما آنقضت مدة التيه سار بالأبناء

إلى القرية ودخلها ، ودخل المؤمنون سجّدا كما أمرهم الله تعالى . وقوله : ﴿ وَقُولُوا

حُطَّةً ﴾ ، قال قتادة : حُطَّتْ عَنَّا خطايانا ، أمروا بالاستغفار .

قال ابن عباس : يعنى لا إله إلا الله ، لأنها تحط الذنوب .

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ .

قال مجاهد : طُوطِئَ لهم الباب ليخفضوا رءوسهم ، فلم يخفضوا ولم يركعوا ولم

يسجدوا ، ودخلوا يزحفون على أستاههم ، وقالوا قولا غير الذي قيل لهم ، وذلك

أنهم أمروا أن يقولوا : حِطَّةً ، فقالوا : (هطاسمعا) ، يعنون حنطة سمراء

استخفافا بأمر الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ

يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ، وذلك أن الله تعالى أرسل عليهم ظئمة وطاعونا ، فهلك

قال الكسائي : وغلب موسى على مدينة أريحا ، وهرب من كان بها من الجبارين .

وقيل : إنما دخل موسى الآن أرض كنعان ، وإن مدينة أريحا فتحها يوشع ابن نون بعد وفاة موسى — عليه السلام — على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخبار يوشع .

ذكر خبر مدينة بلقاء وخبر بلعم بن باعورا وما يتصل بذلك قالوا : ولما دخل موسى بنى إسرائيل أرض كنعان ، سار منها يريد مدينة بلقاء .

قال مقاتل : سميت بلقاء لأن ملكها كان يقال له : بالق ، وكان بها بلعم بن باعورا ، وهو الذي أنزل الله تعالى فيه : ﴿ وَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ الآيات .

وقيل : نزلت الآيات في غيره — على ما نذكره إن شاء الله تعالى آخر القصة — .

وآخُتْلَفَ أيضا في اسمه ونسبه .

فقال ابن عباس — رضى الله عنهما — : هو بلعم بن باعورا .

وقال ابن مسعود — رضى الله عنه — : بلعم بن ابر .

وقال مجاهد : بلعام بن باعر .

وقال الثعلبي : قال أكثر المفسرين : هو بلعام بن باعورا بن أيدن بن مارب ابن لوط ، وكان من الكنعانيين .

وقال عطية عن ابن عباس : هو من بنى إسرائيل .

وقال علي بن أبي طلحة عنه : هو من الكنعانيين من مدينة الجبارين .

وقال مقاتل : هو من مدينة بلقاء .

قالوا : فلمّا أقبل موسى بنى إسرائيل إلى مدينة بلقاء، كان أهلها يعبدون

الأصنام، فلمّا بلغ الملك مسير موسى — عليه السلام — إليه استشار أكابر دولته،

فقالوا له : إنّ فرعون لم يطقه مع كثرة جنوده، فأنت أولى ألا تطيقه، غير أنّ هاهنا

رجلا يعرف ببلعام مجاب الدعوة، التمس منه أن يدعو عليهم ليكفيك ربك أمر

موسى . فبعث الملك إليه وأحضره وتحدّث معه في أمر موسى، فقال : حتى

أستأذن ربّي . ودخل بلعم مصلاّه وأستأذن في الخروج، فأوحى إليه أن هذا

العسكر هم بنو إسرائيل، وعليهم موسى رسول، ولا تخرج إليهم . فقال بلعم لرسول

الملك : إنّ ربّي قد منعني من ذلك، فأصرفوا وعزّفوا الملك .

وكان لبلعم امرأة، فأهدى لها الملك هديّة نفيسة، وسألها أن تكلم زوجها

في التوجه مع الملك، فسألته، فقال : قد أستأذنت ربّي فنهاني . فلم تزل به حتى

أستأذن الله ثانياً، فأوحى الله إليه : أنى نهيتك عن ذلك، والآن قد جعلت الأمر

إليك . فطابت نفسه بالخروج مع الملك . حكاها الكسائي .

وقال الثعلبيّ في تفسيره، وعزاه إلى ابن عباس وابن إسحاق والسدّي وغيرهم :

إن موسى — عليه السلام — لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض كنعان من

أرض الشام، أتى قوم بلعام — وكان عنده اسم الله الأعظم — فقالوا : إن موسى

رجلٌ حديد، ومعه جنود كثيرة، وإنه قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلّها

بنى إسرائيل، وإنا قومك وبنو عمك، وليس لنا منزل، وأنت رجل مجاب الدعوة

فأخرج وأدع الله أن يردّ عنا موسى وقومه . فقال : ويلكم، هو نبيّ الله ومعه الملائكة

والمؤمنون، كيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم؟ ! وإني إن فعلت ذلك ذهبت

دنياى وآخرتى . فراجعوه فى ذلك ، فقال : حتى أوامر ربى . — وكان لا يدعو حتى ينظر ما يؤمر به فى المنام — فأمر فى الدعاء عليهم ، ف قيل له فى المنام : لا تدع عليهم . فقال لقومه : إني قد نهيت عن الدعاء عليهم . فأهدوا إليه هدية فقبلها ، ثم راجعوه فى الدعاء عليهم ، فقال : حتى أوامر . فأمر فلم يجر إليه شيء فقال : قد أمرت فلم يجر إلى شيء . فقالوا : لو كره ربك أن تدعو عليهم ٥
لنراك كما نراك فى المرة الأولى . فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه فافتن ، فركب أتانا له متوجها إلى جبل يطلعه على عسكر بنى إسرائيل يقال له : (حبان) فلما سار عليها غير كثير ربضت ، فنزل عنها فضربها ، حتى إذا ألمها قامت ، فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت ، فنزل عنها وضربها حتى إذا ألمها أذن لها بالكلام ، فتكلمت حجة عليه ، فقالت : ويحك يا بلعم ، أين تذهب ؟ ألا ترى الملائكة أمامى يردوننى عن وجهى هذا ؟ تذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم ؟ فلم ينزع عنها ، فخلّى الله سبيلها ، فانطلقت حتى إذا أشرفت به على جبل (حبان) جعل يدعو عليهم ، فلا يدعو بشرا إلا صُرف به لسانه إلى قومه ، ولا يدعو لقومه بخير إلا صُرف لسانه إلى بنى إسرائيل ، فقال قومه : يا بلعم أتدرى ما تصنع ؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا . قال : فهذا مالا أملك . وأندلع لسانه فوق على صدره ، فقال لهم : قد ذهبت منى الآن الدنيا والآخرة ، ولم يبق إلا المكر والحيلة ، فسأمكر لكم وأحتال ، جملوا النساء وزينوهن وأعطوهن السلع ، ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنهن فيه ، ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها ، فإنهم إن زنى منهم رجل واحد كفيتموهم . ففعلوا ، فلما دخل النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كُستى بنت صعور برجل من عظماء بنى إسرائيل يقال له : ٢٠

(١) كذا ضبط هذا الاسم فى تاريخ العيني فى الأجزاء المكتوبة بخط المؤلف ضبطا بالقلم .

- زمري بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم — عليهم السلام — فقام إليها فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ، ثم أقبل حتى وقف على موسى فقال له : إني أظنك ستقول : هذه حرام عليك . قال موسى : أجل ، هي حرام عليك ، لا تقربها . قال : فوالله لا نطيعك في هذا . ثم دخل بها قبته فوقع عليها
- فأرسل الله تعالى الطاعون على بني إسرائيل في الوقت ، وكان فنحاص بن العيزار
- ابن هارون صاحب أمر موسى رجلا قد أُعْطِيَ بَسْطَةً في الخَلْق وقوة في البطش وكان غائبا حين صنع زمري بن شلوم ماصنع ، فجاء والطاعون يجوس في بني إسرائيل فأخبر الخبر ، فأخذ حربته ، وكانت كلها من حديد ، ثم دخل عليهما القبة وهما مضطجعان فنظمهما بحربته ، ثم خرج بهما رافعا حربته إلى السماء قد أخذها بذراعه ، واعتمد بمرفقه على خاصرته ، وأسند الحربة إلى لحيته
- وكان بكر العيزار — وجعل يقول : اللهم هكذا تفعل بمن يعصيك ، ورفع الطاعون ، فحُسب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون — فيما بين أن أصاب المرأة إلى أن قتله فنحاص — فوجدوه قد أهلك منهم سبعين ألفا في ساعة واحدة من النهار.
- قال : فمن هناك يُعْطَى بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها الخاصرة ^(١) والذراع واللحية ، لاعتماده بالحربة على خاصرته ، وأخذه إياها بذراعه ، وإسناده إياها إلى لحيته ، والبكر من كل أموالهم وأنفسهم ، لأنه كان بكر العيزار بن هارون .
- قال الثعلبي أيضا : وقال مقاتل : إن ملك البلقاء قال لبلعام : ادع الله على موسى . فقال : إنه من أهل ديني فلا أدعو عليه . فنحت الملك خشبة ليصلبه فلما رأى ذلك خرج على أتان له ليدعو عليه ، فلما عاين عسكرهم قامت به الأتان
- (١) كذا في كتاب الثعلبي المنقول عنه هذا الكلام ص ١٨٢ طبع المطبعة البهية . والذي في كلا الأصلين : « القبة » وهو تبديل من الناسخ اذ لا يناسب معناه سياق ما هنا .

وقد وقفت ، فضربها ، فقالت : لِمَ تضربني وأنا مأمورة ؟ فلا تظلمني ، وهذه نارٌ أمامي قد منعني أن أمشي . فرجع فأخبر الملك ؛ فقال : لتدعوك عليه أو لأصلبك . فدعا على موسى باسم الله الأعظم ألا يدخل المدينة ، فأستجيب له ، ووقع موسى في التيه بدعائه ، فقال موسى : ياربّ بايّ ذنب وقعنا في التيه . فقال : بدعاء بلعام . قال : ربّ بما سمعت دعاءه عليّ فاسمع دعائي عليه . فدعا موسى أن ينزع منه الاسم الأعظم والإيمان . فسلخه الله مما كان عليه ، ونزع منه المعرفة ، فخرجت حكمامة بيضاء ، فذلك قوله عز وجل ﴿ فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ .

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيّب وأبو روق وزيد بن أسلم : نزلت هذه الآية في أمية بن أبي الصلت ، وكانت قصته أنه كان في ابتداء أمره قد قرأ الكتب وعلم أن الله عزّ وجلّ مرسل رسولاً في ذلك الوقت ، ورجا أن يكون هو ذلك الرسول ، فلما أرسل الله تعالى محمداً — صلى الله عليه وسلم — حسده وكان قد قصد بعض الملوك ، فلما رجع مرّ بقتلى بدر ، فسأل عنهم ؛ ف قيل : قتلهم محمد . فقال : لو كان نبياً ما قتل أقرباءه . فلما مات أتت أخته فارعة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فسألها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن وفاة أخيها ؛ فقالت : بينا هو راقداً أتاه آثان فكشفا سقف البيت ونزلا ، فقعد أحدهما عند رجله والآخر عند رأسه ، فقال الذي عند رجله للذي عند رأسه : أوعى ؟ قال : وعى . قال : أزعكا قال : أبى . [قالت ^(٢)] : فسألته عن ذلك ؟ فقال : خير أريد بي فصّرف عني . ثم غشي عليه ، فلما أفاق قال :

(١) كذا في كتاب الثعلبي المنقول عنه هذا الكلام ص ١٨٢ طبع المطبعة البهية . والذي في كلتا النسختين : « إن كان » ؛ وهو تحريف .

(٢) لم ترد هذه الكلمة التي بين مربعين في كلا الأصلين ؛ وقد أثبتناها عن كتاب أبي إسحاق الثعلبي في قصص الأنبياء المنقول عنه هذا الكلام .

كُلُّ عِيشٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ دَهْرًا * صَائِرُ أَمْرِهِ إِلَى أَنْ يَزُولَا
 لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَأَ لِي * فِي قِلَالِ الْجِبَالِ أَرْعَى الْوُعُولَا
 إِنَّ يَوْمَ الْحِسَابِ يَوْمٌ عَظِيمٌ * شَابَ فِيهِ الصَّغِيرُ يَوْمًا ثَقِيلًا
 ثُمَّ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْشِدِينِي مِنْ شِعْرِ أَخِيكَ .
 فأنشدته :

لَكَ الْحَمْدُ وَالنَّعْمَاءُ وَالْفَضْلُ رَبَّنَا * وَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْكَ جَدًّا وَأَمْجَدُ
 مُلِكٌ عَلَى عَرْشِ السَّمَاءِ مَهِيْمٌ * لِعَزَّتْهُ تَعَنُّوْا الْوُجُوْهُ وَتَسْجُدُ
 وَهِيَ قَصِيْدَةٌ طَوِيلَةٌ ، حَتَّى أَنْتَ عَلَى آخِرِهَا .
 وأنشدته قصيدته التي يقول فيها :

يُوقِفُ النَّاسُ لِلْحِسَابِ جَمِيعًا * فَشَقِيٌّ مُعَذِّبٌ وَسَعِيدُ
 ثُمَّ أَنْشَدَتْهُ قَصِيدَتَهُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ تُعَرِّضُونَ عَلَيْهِ * يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَالسِّرَّ الرَّاحِلِيَّ
 يَوْمَ نَأْتِي الرَّحْمَنَ وَهُوَ رَحِيمٌ * إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا
 يَوْمَ آتِيهِ - مِثْلَ مَا قَالَ - فَرْدًا * ثُمَّ لَا أُدْرِ رَاشِدًا أَمْ غَوِيًّا
 أَسْعِيدَا إِسْعَادَهُ أَنَا أَرْجُو * أَوْ مُهَانَا بِمَا آكْتَسَبْتُ شَقِيًّا
 إِنَّ أُؤَاخِذُ بِمَا أَجْتَرَمْتُ فَلِأَنِّي * سَوْفَ أَلْقَى مِنَ الْعَذَابِ قَرِيًّا
 رَبِّ إِنْ تَعَفَّ فَالْمَعَاْفَاةَ ظَنَنْتِي * أَوْ تَعَاقِبْ فَلَمْ تَعَاقِبْ بَرِيًّا

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : آمَنَ شِعْرُهُ وَكَفَرَ قَلْبُهُ . وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ :
 ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْتَخَفَّ مِنْهَا ﴾ الْآيَاتُ .

ومنهم من قال : إِنَّ الآيات نزلت في ألبسوس ، وكان رجلاً أُعطي ثلاث دعوات مستجابة ، وكانت له امرأة ، وكان له منها ولد ، فقالت : اجعل لي منها دعوة واحدة . فقال : لك فيها دعوة ، فما تريدن ؟ قالت : أدع الله أن يجعلني أجملَ امرأة في بني إسرائيل . فدعا لها ، فصارت أجملَ امرأة في بني إسرائيل ؛ فلما علمت أنه ليس فيهم مثلها رغبت عنه ، فغضب ودعا عليها ، فصارت كلبة نبّاحة ، بجاء بنوها وقالوا : ليس لنا على هذا قرار ، قد صارت أمنا كلبة نبّاحة والناس يعيروننا بها ، فأدع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها . فدعا الله تعالى ، فعادت كما كانت ، فذهبت فيها الدعوات .

وقال أبو سعيد : نزلت في أبي عامر بن نعمان بن صيفي - الراهب الذي سمّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم : الفاسق ، وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وقدم المدينة ، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما هذا الذي جئت به ؟ فقال : جئت بالحنيفية دين إبراهيم . قال : فأنا عليها . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لستَ عليها ، ولكحك أدخلتَ فيها ما ليس منها . ثم خرج إلى كفار قريش .

وأخباره تُذكر — إن شاء الله — في سيرة سيّدنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

فهذا ما قيل في تفسير هذه الآية .

قال الكسائي : ونادى موسى في قومه بعد رفع الطاعون عنهم : «أن أحملوا» . فحملوا وأقتتلوا ، فقتل الملك وبلعم ، وأنهزم الباقون ، وغنم بنو إسرائيل من النساء والولدان شيئاً كثيراً . والله تعالى أعلم بالصواب .

ذكر خبر وفاة هارون عليه الصلاة والسلام

قال الكسائي : — وذكر وفاة هارون إثر خبر البقرة وقتل عاميل — قال :
 لما كان بعد قتل عاميل نظر هارون إلى جبل في التيه بعيد من العسكر ، فقال :
 يا موسى ، ألا نمضي إلى ذلك الجبل فننظر إلى خضرته ونضارته . فمضيا من الغد
 ومعهما أولاد هارون . فأتوه فإذا هو جبل كثير المياه والعشب والكهوف
 وفيه كهف واسع يسطع نورا ، فدخلوه وإذا هم بسرير من ذهب عليه أنواع من
 الفرش ، فصعد هارون إليه ونام . فجاء طولَه ، فهم أن ينزل ، فأتاه ملك الموت
 في صورة شاب حسن ، فقبض روحه ، وغسلته الملائكة ، وصلى موسى عليه ، وسدوا
 باب الكهف ، وعاد موسى إلى بني إسرائيل ، فسألوه عن هارون ، فأخبرهم بوفاة
 قالوا : بل قتلته . فقال : ما ذا لقيت منكم يا سفهاء بني إسرائيل ، أقتل أنى
 وشقيقي ؟ ثم دعا ربه أن يريهم إياه على صورته . فأمر الله الملائكة أن يخرجوا
 سريره من الكهف ، فأخرجوه وحملوه في الهواء حتى نظرت إليه بنو إسرائيل ، ثم
 نادى الملائكة : يا بني إسرائيل ، هذا سرير هارون قد قبضه الله تعالى إليه .

وقال أبو إسحاق الثعالب في تفسيره في وفاة هارون — عليه السلام — قال
 السدي : أوحى الله تعالى إلى موسى — عليه السلام — أني متوفى هارون ، فأت
 به جبل كذا وكذا . فأنطلق موسى وهارون — عليهما السلام — نحو ذلك الجبل
 فإذا هما بشجرة لم يريا شجرة مثلها ، وإذا بيت مبنئ ، وفيه سرير عليه فراش
 وإذا فيه ريح طيبة ، فلما نظر هارون إلى ذلك أعجبه وقال : يا موسى ، إنني أحب
 أن أنام على هذا السرير . قال : نعم عليه . قال : إنني أخاف أن يأتي رب هذا
 البيت فيغضب علي . قال موسى : لا ترهب ، أنا أكفيك رب هذا البيت ، فتم .

قال : يا موسى ، بل نعم معي ، فإن جاء رب البيت غضب عليّ وعليك جميعا . فلما
 ناما أخذ هارون الموت ، فلما وجد حسه قال : يا موسى خدعتني . فلما قبض
 — عليه السلام — رفع ذلك البيت ، وذهبت تلك الشجرة ، ورفع السرير به إلى
 السماء ، فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل وليس معه هارون ، قالوا : إن موسى قتل
 هارون وحسده لحب بني إسرائيل له . فلما أكثروا عليه قام فصلّي ركعتين ، ثم دعا
 الله تعالى ، فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض ، فصّدقوه .

٧٠

وقال الثعلبيّ أيضا . وقال عمرو بن ميمون : مات هارون — عليه السلام —
 في التّيه ، ومات قبل موسى ، وكنا نخرج في التّيه إلى بعض تلك الكهوف ، فمات
 هارون ، فدفنه موسى ، وأنصرف إلى بني إسرائيل ، فقالوا : ما فعل هارون ؟ قال :
 مات . قالوا : كذبت ، ولكك قتلته لحبنا إياه — وكان محبّا في بني إسرائيل —
 فتضرّع موسى إلى الله تعالى وشكا ما لقي من بني إسرائيل ، فأوحى الله إليه : أن
 أنطلق بهم إلى قبره ، فإني باعته حتى يخبرهم أنه مات موتا وأنت لم تقتله . فانطلق
 بهم موسى إلى قبره ، فنادى : يا هارون . فخرج من قبره ينفذ رأسه ، فقال :
 أنا قاتلك ؟ قال : لا ، ولكني مت . قال : فعُد إلى مضجعك . فعاد — عليه
 السلام — وأنصرفوا .

ذكر وفاة موسى بن عمران — عليه الصلاة والسلام —

قال أبو إسحاق الثعلبيّ — رحمه الله — قال ابن إسحاق : كان موسى — عليه
 السلام — قد كره الموت وأعظمه ، فأراد الله تعالى أن يحبب إليه الموت ويكره
 إليه الحياة ، وكان يوشع بن نون يغدو عليه ويروح ، فيقول له موسى : يانبيّ الله
 ما أحدث الله إليك . فيقول له يوشع : يانبيّ الله ، ألم أصحبك كذا وكذا سنة ، فهل

كنتُ أسألك عن شيء مما أخذت الله إليك حتى تكون أنت تبتدئ به وتذكره ؟
ولا يذكر له شيئاً .

فلما رأى موسى ذلك كره الحياة وأحب الموت .

وعن وهب أنه قال — وذكر من كرامة موسى عليه السلام — أنه ضاق ببنى
إسرائيل ذرعاً لما كثروا عليه ؛ فأوحى الله تعالى إلى ألف نبيٍّ أن يكونوا أعواناً له ؛
فلما مال الناس إليهم وجد موسى في نفسه ، فأماهم الله تعالى لكرامته في يوم واحد .

والذي صحَّ لنا من خبر وفاة موسى — عليه السلام — ما ثبت في صحيح البخاريّ
وهو ما حدَّثنا به الشيخان المُسنِّدان المعمران : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن
أبي طالب نعمة بن حسن بن عليّ بن سنان الشُّحنة الصالحيّ الحجَّار ، وسِتُّ الوزراء
أم محمد^(١) (وزيرة) ابنة الشيخ الإمام العالم شمس الدين أبي حفص عمر ابن القاضي
وجيه الدين أسعد بن المنجا التنوخيّ الدمشقيّان ، قراءة عليهما ، وأنا أسمع بالمدينة
المنصوريّة بخطّ (بين القصرين بالقاهرة المعزيّة) ، وذلك في يوم السبت السابع
من جمادى الأولى سنة خمس عشرة وسبعائة ، بقراءة الشيخ علاء الدين عليّ بن
الماردينيّ ، قالوا : حدَّثنا الشيخ سراج الدين أبو عبد الله الحسين بن المبارك بن
محمد بن يحيى الزبيديّ ، قال : أخبرنا الشيخ أبو الوقت عبد الأول بن عيسى بن
شعيب السَّجَزِيّ الصوفيّ ثم الهرويّ ، قال : أخبرنا الإمام جمال الدين أبو الحسن
عبد الرحمن بن محمد بن المظفر بن محمد بن داود الداوديّ ، قال : أخبرنا الإمام
أبو عبد الله محمد بن أحمد بن حمويه التنوخيّ ، قال : أخبرنا الإمام أبو عبد الله محمد
ابن يوسف بن مطر الفهريّ ، قال : حدَّثنا الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن

إبراهيم بن المغيرة بن الأحنف الجعفي مولاهم البخاري - رحمه الله - قال :
 حدثنا محمود ، حدثنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن
 أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام
 فلما جاءه صكه ، فرجع إلى ربه فقال : أرسلني إلى عبد لا يريد الموت . فرد
 الله عليه عينه وقال : ارجع فقل له يضع يده على متن ثور فله بكل ما غطت به
 يده بكل شعرة سنة ، قال : أي رب ثم ماذا ؟ قال : ثم الموت . قال : فالآن . فسأل
 الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر . قال : قال رسول الله - صلى الله
 عليه وسلم - : فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر .
 قال الثعلبي : وكان عمر موسى - عليه السلام - مائة وعشرين سنة ، عشرون
 منها في ملك أفريدون ، ومائة سنة في ملك منوجهر ، وبعث الله تعالى بعد موسى
 يوشع عليهما السلام .

كل الجزء الثالث عشر من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين
 أحمد بن عبد الوهاب البكري التيمي القرشي المعروف بالنويري - رحمه الله تعالى -
 ويليه الجزء الرابع عشر ، وأوله : الباب الثاني من القسم الثالث من الفن الخامس فيما
 كان بعد موسى بن عمران عليهما السلام ، وهو أخبار يوشع بن نون وحزقييل وإلياس
 واليسع وغيل واشمويل وداود وطالوت وجالوت وسليمان بن داود عليهم السلام .
 والحمد لله رب العالمين

ج ر ب
 مَعِينُ التَّارِخِ
 لِأَهْلِ التَّارِخِ

استدراك

قد وقعت بعض أخطاء مطبعية يسيرة في هذا الجزء ، فرأينا أن نستدرك ما عثرنا عليه منها بعد الطبع ، وهي في ثلاثة مواضع :

(١) وقع في صفحة ٢٨ سطر ٥ قوله : « إبناء » . والصواب « بناء » بغير ألف في أوله .

(٢) وفي صفحة ١٧٣ سطر ٩ قوله : « ونحروج » . والصواب : « وحروب » كما في بعض النسخ .

(٣) وفي صفحة ٢٢٠ سطر ٣ ما نصه : ” أجد أمة مرحومة ضعفاء يرثون الكتاب الذين اصطفيينا فمنهم ظالم لنفسه “ الخ . وقد كتبنا في الحاشية رقم ١ من هذه الصفحة ما يفيد أن قوله : « الذين » غير واضح موقعها من الإعراب في هذه العبارة بخلاف موقعها من الآية المقتبسة منها ، وهي قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفيينا من عبادنا » اهـ . وقد تبين لنا أن قوله : « الذين اصطفيينا » زائدة في هذه العبارة التي وردت في كلام المؤلف ، فقد ورد هذا الكلام في كتاب الثعلبي المنقول عنه هذا الكلام — مع اختلاف في بعض ألفاظه ، فليلاحظ — ونصه : ” أجد أمة مرحومة أصفياء يرثون الكتاب فمنهم ظالم لنفسه “ الخ .

٣ ٣

كَمُلُ طبع ” الجزء الثالث عشر من كتاب نهاية الأرب “
بمطبعة دار الكتب المصرية في يوم الثلاثاء ٢٨ شوال سنة ١٣٥٧
(٢٠ ديسمبر سنة ١٩٣٨) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٢٤/١٩٣٧/٢٥٠٠)
